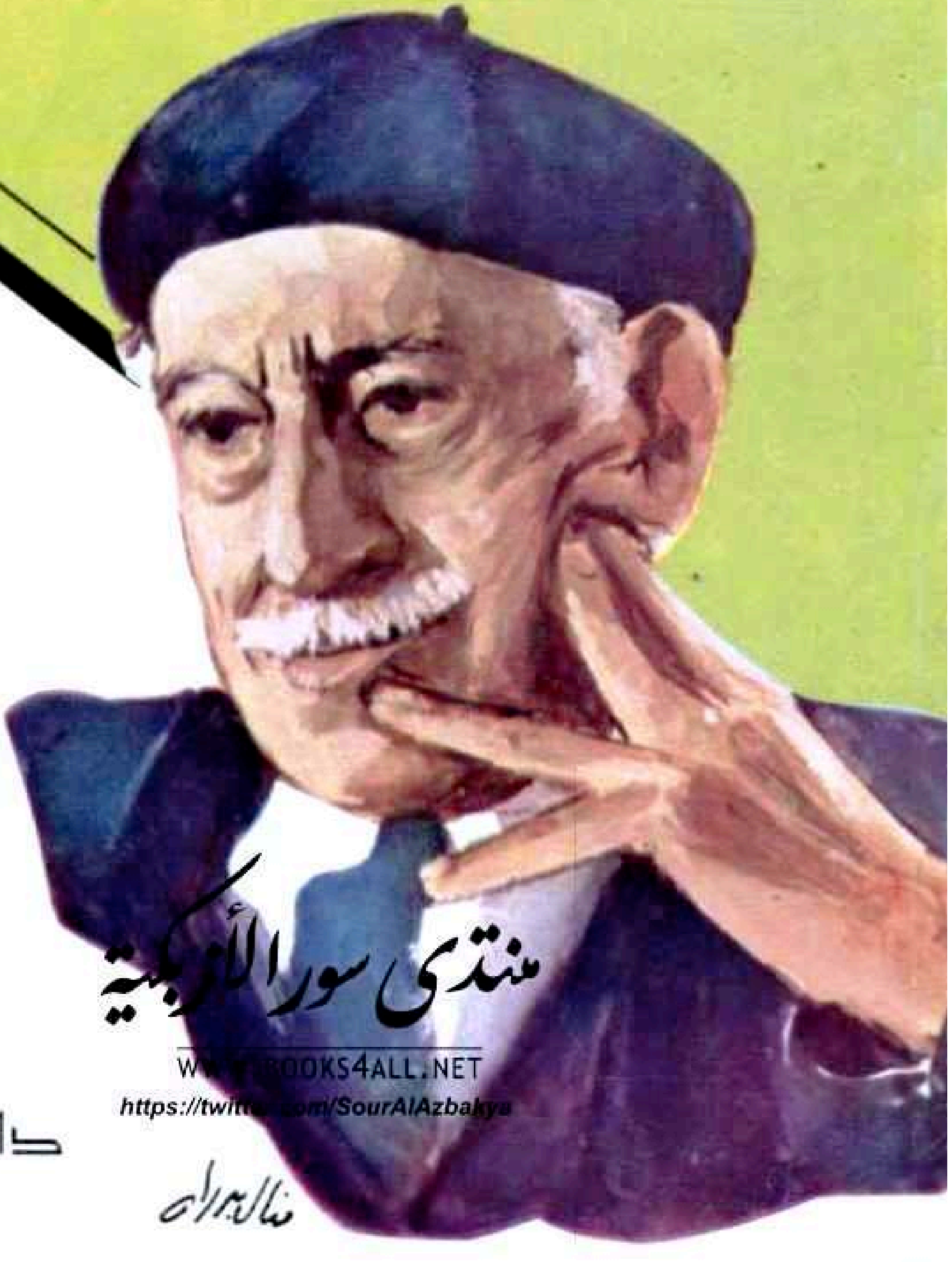
إبراهيم عبد العزيز

الملف الشخصي لتوفيق الحكيم



دار المعارف

إبراهيم عبد العزيز

الملف الشخصي لتوفيق الحكيم

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهـداء

إلى زوجـتى التى
تنصرنى فى جهاد
العمل والحياة .

إبراهيم عبد العزيز

قبل أن تقرأ

توفيق الحكيم
بقلم توفيق الحكيم *

٢ - توفيق الحكيم شخص لا أعرف عنه شيئاً كثيراً - وإنى اقرأ عنه أحياناً بعض ما ينشر عنه
فأراه شخصاً آخر .. أما أنا فأسأل نفسى دائماً : ما هى المهمة التى كلفت بها فى
هذه الحياة الموقوتة - وكلما سرت فى طريق حياتى فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق
ليس هو الطريق الذى تصورته - ولو كان فى طريق حياتى لافتات مثل لافتات
المرور لنبهتنى إلى أن هذا الطريق يؤدى إلى جهة كذا كنت تنبهت من أول الأمر
ولم أواصل السير .. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور فى
شارع حياتى الطويل ...

(*) سطور من إحدى الصفحات التى كتبها توفيق الحكيم بخط يده إجابة على أسئلة المؤلف التى أعدها له بتاريخ ٦ / ٩ / ١٩٨٦ ، يقول فيها الحكيم عن نفسه : توفيق الحكيم شخص لا أعرف عنه شيئاً كثيراً .. وإنى اقرأ عنه أحياناً بعض ما ينشر عنه فأراه شخصاً آخر .. أما أنا فأسأل نفسى دائماً : ما هى المهمة التى كلفت بها فى هذه الحياة الموقوتة .. وكلما سرت فى طريق حياتى فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق ليس هو الطريق الذى تصورته .. ولو كان فى طريق حياتى لافتات مثل لافتات المرور تنبهنى إلى أن هذا الطريق يؤدى إلى جهة كذا كنت تنبهت من أول الأمر ولم أواصل السير .. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور فى شارع حياتى الطويل ... » .

تقديم(*)
نجيب محفوظ

عندما عرفت الأستاذ توفيق الحكيم فى قهوة « ريتز » التى كان يفضل الجلوس فيها أمام البنك الأهلى ، لم يفصلنى عنه إلا الموت . وعلاقتى بتوفيق الحكيم تمثل فى كتاب العمر إلى جانب الصداقة الأدبية ، الصداقة الشخصية ، وهو يعرف أننى كنت دائما أنوه بأستاذيته الحقيقية ، وكان هو يقدرنى كأديب ويشجعنى ، ولن أتحدث عن توفيق الحكيم الأديب لأن الدنيا تكلمت عنه فى الشرق والغرب ، ولكننى سأتكلم عنه من الناحية الإنسانية والمواقف الجديرة بالاحترام ، كتشجيعه للشباب واستماعه لهم ، أو زيارته لمعارضهم ، وتشجيعه للفنانين ، فضلا عن مواقفه فى اللجان والجوائز ، أو وقوفه مع المظلومين ، وأذكر أنه كان سيستقيل من المجلس الأعلى للفنون والآداب بسبب الجو العدائى لترشيح كمال الملاخ لجائزة الدولة .

وكذلك وقف إلى جانب حصول « ألفريد فرج » عليها ولم أكن عضوا فى اللجنة الخاصة بذلك ، فطلب منى أن أكون سنداً له للتغلب على الجو السيئ المعادى لألفريد فرج ، وقمنا بما يشبه مذبحة القلعة لكى ينال الجائزة التى يستحقها بكل جدارة .

(*) هذه المقدمة هى حصيلة حوار أجراه المؤلف مع الأستاذ نجيب محفوظ .

وعندما تبنيت فكرة عودة د . غالى شكرى إلى الأهرام ، وافقنى توفيق الحكيم وكتبنا بذلك مشروع خطاب وقعناه واستجاب إبراهيم نافع إستجابة جميلة ، وبذلك كسب الأهرام ، غالى شكرى .

فتوفيق الحكيم شخص عامر بالعواطف الرقيقة المهذبة ، روح خفيفة جدا ، وصافية جدا ، والجلوس معه متعة من متع الحياة الدنيا التى لا يُشبع منها ، فهو محدث لبق وغنى بالذكريات سواء ذكريات الصبا والطفولة مع والده أو والدته ، أو ذكرياته مع أسرته ، أو ذكرياته فى القاهرة مع خطوات الفن الأولى ، وذكريات أوربا عن دراسته الرسمية للقانون ، والدراسة الحقيقية للفن ، ويتخلل ذلك دائما النكت اللطيفة والملاحظات الجميلة .

والغريب الذى يدلك على شخصية توفيق الحكيم ، هو الركن الخاص به فى قهوة « بترو » ، لأنه يجمع أناسا لا يمكن لإنسان أن يتعايش معهم دفعة واحدة ، لأنهم مختلفون جداً ، ما بين باشوات من أعماق العهد الماضى ، وشباب عهد حديث لايزال يبزغ ، وناس فى سنى ، وآخرين من عمره ، وهؤلاء على قدر ما يختلفون مع بعضهم يلتقون فى توفيق الحكيم على أحسن وئام ، فهو يعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة ، كأنه طبيب بشرى !

ثم إن هناك أشياء اشتهر بها توفيق الحكيم مثل بخله وعدائه للمرأة ، وهذه أمور تستطيع أن تسميها شعارات وجد فيها الحكيم نوعا من الفن ، وهو يتمسك بها على هذا الأساس ، أما فى الواقع ، فهو لم يكن عدواً للمرأة بل كان من أكبر أنصارها ومحبيها ، ثم وهو يظهر البخل فى أشياء صغيرة ، فإنها كانت دائما تثير فكاهة عميقة ، وعندما تأتى لواقع الحياة تجد أنه أبعد ما يكون عن البخل ، وأنا أذكر أنه قام بتزويج ابنتى زوجته (ناجا ، ونورا) تماما مثل ابنته ، وهذا شىء يندر أن يقوم به إنسان ، ولو

كان بخيلا لم يكن سيزوج حتى ابنته ، وأذكر أنه فى شارعنا كان يوجد رجل « بك » موظف كبير ، وكان بخيلا إلى درجة أنه لم يكن يوافق على زواج ابنته ، حتى هربت وتزوجت ، وبذلك أعفى نفسه من أى التزامات بتجهيزها ، أما توفيق الحكيم فقد كان كريما وأنا أعرف ظروفا فقد فيها ما يعتبر ثروة ضخمة عندما تضربها فى أرقام اليوم ، ولو كان فى مكانه إنسان عادى لهده فقده لأموال ليس مسئولا عن ضياعها ، ولكن توفيق الحكيم تقبل الأمر ببساطة وبفلسفة ، ولذلك يندر أن أكون رأيت شخصية بكرم توفيق الحكيم ، لأنه كرم يخفيه بعكس بعض الناس الذين يتظاهرون بالكرم ، ويحبون أن يعرف الناس أنهم كرماء ، يمكن لظروف الانتخابات والسياسة ، فينفقون أموالا كثيرة ، وينجحون فى إخفاء بخلهم وتقتيرهم ، لكن الذى طبع على الكرم ويخفيه ، هو كريم أصيل لأنه يعمل الكرم للكرم ، لا لكى تقول عليه أنه كريم ، بل يتركك لتقول عليه أنه بخيل .
وهكذا كان توفيق الحكيم كريما ، وكان أكرم ما يكون مع أسرته ، مشغولا بأبنائه كأب ، فخورا بالمرحوم - إسماعيل ، ويريد أن يطمئن دائما على زينب ومستقبلها بل حتى على ابنتى زوجته ، ولكنه كان كأديب مشغولا كثيراً بأدبه فيهيأ له أنه ظلم أسرته ، وأن هذا الوقت الذى انشغل فيه بالأدب كان يجب أن يكون من حقهم ، وهذا غير صحيح ، لأن الحكيم رب الأسرة قد أعطاهم حقهم وأكثر . وكان عليه أن يعطى أدبه حقه أيضا ، ولكنه كان يرى أن كل الوقت كان من المفروض أن يكون لأسرته ، ولم يقل بهذا أحد ، لأن أسرته لم تكن ستطيق تفرغه لهم .

وأرى أن أبناءنا نحن الأدباء يجب أن نتركهم لحريتهم إلى حد ما لكى تتكون شخصياتهم ويكبرون ، لأن الحنان الزائد عن حده ينقلب إلى ضده ، وشعور توفيق الحكيم بالتقصير تجاه أسرته كان شعورا مبالغا فيه كثيرا ، والدليل على ذلك أن أفراد أسرته نجحوا فى حياتهم ، وكان

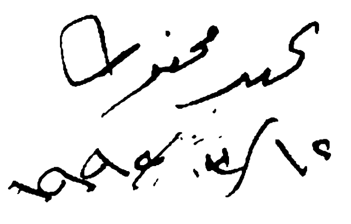
نجاحهم أساسه الحرّية وعدم تدخله فى شئونهم بما يعيقهم عن نمو شخصياتهم واعتمادهم على ذواتهم ، لكن الظروف التى - للأسف الشديد - أنهت حياة إسماعيل ، هى ظروف خاصة يمكن أن يقع فيها أى شاب ، وليس لها علاقة إطلاقاً بأن توفيق الحكيم لو تفرغ له وجلس معه أكثر لكان ذلك مؤجلا لنهايته المحتومة .

ولذلك فإن هذا الكتاب الذى يتناول حياة توفيق الحكيم الأسرية من خلال ابنته ، وابنتى زوجته ، وأحفاده ، ومن حوله ، هو تأريخ للجانب الذى يغيب عادة عن المؤرخين لأديب كبير أو لأعظم أديب فى حياتنا ، وهذا يفيد النقد ، والأدب ، والتاريخ ، من خلال المعرفة وإلقاء الأضواء على الجوانب التى قد تغيب عن الإنسان ، بل قد يكون فيها تفسير لكثير من مواقفه الأدبية .

ولا ينبغى أن يكون السؤال ماذا يبقى من توفيق الحكيم ؟ لأننى عندما أنظر إلى مؤلفاته العديدة يكون السؤال :

وما الذى لا يبقى منها ؟ هذا هو السؤال المعقول ، لأنها كلها مرشحة للبقاء ، ولذلك فالفراغ الذى تركه توفيق الحكيم لم يُسد ، ولم يُتعزى عنه .

ولا يبقى إلا أن أشكر المؤلف إبراهيم عبد العزيز الذى جدد ذكرى توفيق الحكيم ، وجعلنى أعيش فى رحابه .



البـاب الأول

أسرار خلف الجـدران

الفصل الأول

الزواج أو الانتحار

(*) ١ – النساء لا تؤنس الوحدة دائما . فهى تدخل وحدها أول الأمر . وإذا دخلت تدخل خلفها كل متاعب الدنيا .

١ – (*)النساء لا تؤنس الوحدة دائما . فهى تدخل وحدها أول الأمر . وإذا دخلت تدخل خلفها كل متاعب الدنيا .

- أول فشل فى الحب
- الفتاة التى كونت عدو المرأة
- إبطال الحكيم لمحاولة هدى شعراوى فتح فرع للحركة النسائية فى بيته
- كروان الإذاعة يختار للحكيم زوجته

(*) هذه الكلمة وما سوف يليها من كلمات بخط الحكيم ، هى بعض إجاباته على بعض الأسئلة التى أعدها المؤلف .

يرى توفيق الحكيم أن المرأة هى السجان الدائم لنا نحن الرجال ، تحبسنا بين جدران بطنها ونحن أجنة ، فإذا خرجنا إلى الحياة وقعنا بين سياج حجرها ونحن أطفال ، فإذا اجتزنا بالكبر ذلك السياج تلقفتنا أغلال ذراعيها ، فطوقت أعناقنا حتى الممات .

وإذا لم يكن للحكيم مفر من جدران بطن أمه وسياج حجرها ، فقد حاول ألا يقع بين أغلال ذراعى المرأة المطوقة (الزوجة) ، ولكنه وإن استطاع ذلك لبعض الوقت إلا أنه لم ينجح فى ذلك كل الوقت ، لأن الوحدة كانت مريرة بالنسبة له كلما تقدمت به السن - حتى نجحت المرأة فى إدخاله سجن الزوجية ، ولكن الحكيم جعله سجنا بلا أبواب ولا حراس ، سجنا بشروطه هو لا بشروطها هى ، ورغم ذلك فقد انتوى الفرار بعد الزواج بثلاثة شهور على أقصى تقدير ، ولكن الدخول فى قفص الزوجية ليس كالخروج منه ، فلم يفارق شريكة حياته إلا بعد موتها .

وقد كان لإقدامه على الزواج قصة عجيبة .

* * *

رأى الحكيم أن الحياة لا معنى لها بغيرا مرأة مهما كانت عيوبها ، ولذلك اكتشف أن حياته أيضاً لا يمكن أن تستمر بغير امرأة مع الأسف الشديد كما كان يقول ، وعاش فى حوار مع القدر الذى قال له : جرب أن تعيش بعيداً عنها أو ليكن تفكيرك خاليا منها ، ولكن الحكيم لم يستطع إلى درجة أنه ظل مترددا فى الاختيار بين الانتحار أو الزواج ! ولكن حبه للحياة جعل فكرة الزواج تتغلب على تفكيره إذ وجد أن ذلك أهون الضررين ،

ولكن ممن يتزوج ؟ صحيح أنه عرف كثيرات ، كإبنة الجيران « سنية » فى سن الصبا والشباب ، وفى باريس تعرف وأحب ، ولكنه لم يرتبط بواحدة منهن ، فقد كان فى انطلاقه بحثا عن كنوز الفكر والثقافة والفن ، لا يريد أن يربط نفسه بذلك « الرباط المقدس » الذى يقيد حريته ويحد من انطلاقه ، فضلا عن أنه لم يجد من تحبه - إذا أحبها .

لقد عرف الشقاء فى الحب لأول مرة فى باريس ، وإن حاول أن يخفى ذلك مبررا شقاءه بدق والده فوق رأسه يطلب منه أن يبرق إليه بنجاحه فى الحصول على دكتوراه القانون ، مما جعله حائرا يبحث عن نفسه الضائعة بين رغبة والده له ، ورغبته هو فى طريق الفن الذى ساقه إلى حب الفتاة الباريسية « إيما دوران » التى حاولت أن تنسى معه هجر حبيبها لها ، فلما عاد إليها وعادت إليه ، ودعت كأس توفيق الحكيم بأن حطمته فوق قلبه بعد معاشرته أربعة عشر يوما ، ولم تترفق به ، فتركت له رسالة تقول له فيها :

أتمنى أنى ما عشت قط هذين الأسبوعين .

وهكذا جاء فشل الحكيم فى حبه الباريسى ليولد عنده فكرة مشاكسة المرأة برفع شعار العداء لها ، فتجده يسجل على نفسه فى باريس أقوالا مثل :

○ إنى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى .

○ المرأة عندى يجب أن تكون فى « الحريم » أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى .

* * *

إنها نفس الأفكار التى رددها توفيق الحكيم حينما حدد شروطه للزواج ، عندما أضطر إليه فى الأربعينات من عمره ، ولكنه لم يكن زواجا

عن حب ، بل عن تفكير وعقل ، ذلك لأنه يرى أن هناك فرقا بين الحب والزواج ، وإذا انتهى الحب إلى الزواج فلا بأس ، ولكنه يرى فى نفس الوقت أن هناك أشياء يجب أن تكون موجودة فى الزوجة وهى غير موجودة فى الحبيبة لأن « الحب » مرض ، والزواج صحة ، والمرض والصحة لا يجتمعان .

و « الزواج شيء جليل مقدس ، والحب عملة فى السوق ، أما الحياة الزوجية فإنها تجميد عملة الحب فى سند غير قابل للتحويل وله فوائد متجددة » . ولذلك كان زواج توفيق الحكيم عن طريق قاضى العقل الذى يعطى عدالة وأحكاما وحياة منطقية مرتبة ، لا محامى الحب الذى يجمل الأشياء ويترافع فيما لا يجب الترافع فيه ، حيث عين المحب عن عيوب حبيبه كليلة .

ولم يكن الحكيم كغيره ممن تثقفوا بالثقافة الفرنسية وعادوا بزوجة من باريس ، سأله التلميذ(*) عن السبب ؟

فقال : لأننى مثل والدى من رجال الشرق محافظ إلى حد الانغلاق فيما يتعلق بشريكة حياتى ، ومن الصعب أن أجد من توافق على شروطى من بنات باريس ، فقد تربين على الحرية والانطلاق ، هذا بالإضافة إلى أننى لست من أنصار الزواج من أجنبيات ، قد تكون هناك تجارب ناجحة لزواج شخصيات مرموقة من أجنبيات على غير الجنسية والديانة ، ولكن رأيى الشخصى أن يتزوج المصرى مصرية مثله ، مع انسجام فى الثقافة والتفكير ، حتى يكون هناك تكافؤ وتفاهم . لكى لا يحدث فى الأسرة بين الأبناء انفصال وبلبلة بين طبيعتين وجنسيتين ..

(*) التلميذ هنا هو المؤلف الذى يحاور الأستاذ توفيق الحكيم على مدى صفحات الكتاب .

وقد بحث الحكيم عن زوجة من بنى وطنه ، وقد أجهده البحث ، فعلى رأسه لافتة « عدو المرأة » ولذلك أغلقت أبواب الزواج دونه ، فقد أخذت كل أسرة هذه التهمة مأخذ الجد ، حتى أن كل صديق كلفه أن يبحث له عن عروس ، فشل فى مهمته وعاد قائلاً :

– نعمل لك إيه ؟ النسوان خايفة منك .

فكل امرأة تتصور أنه وحش سيأكلها أو سفاح سيخنقها ، حتى جاء ذات يوم صديق عزيز متطوع رثى لحال الحكيم وصمم على أن يجد له عروساً بأى طريقة ، ولكنه عاد بعد أيام يقول له :

أنا كنت على وشك ضرب صديق قديم بحذائى من أجلك ! فعندما عرف هذا الصديق القديم أن صديقه جاء لخطبة ابنته الكبرى للكاتب المشهور توفيق الحكيم ، فإذا به ينتفض غضباً ويصيح به فى سخط وهياج :

ما هذا التهريج يارجل .. هل أصابك الجنون حتى تتصور أننى أزوج ابنتى لهذا الفنان البوهيمى الحشاش الأفيونجى !.

فبهت صديق الحكيم وقال : حشاش أفيونجى ، دا طول عمره ما دخن سيجارة .

فقال الصديق القديم : اسكت بقى واقفل الموضوع .. أنا كنت فاكرك إنك صديق مخلص عاقل .. عمرى ما كنت أصدق انك تطلب منى أوقع بنتى الغالية الوقعة السودة الهباب دى !

فنهض صديق الحكيم محتجاً وهو يصيح : وأنا كنت فاكر إنك شخص مثقف من بنى آدم .. عمرى ما كنت أصدق انك حيوان جاهل بالدرجة دى .. إخص عليك منحط مغفل عديم الفهم والإدراك .. سلام عليكم .

وخرج من بيته وقد تمت القطيعة بينهما ، بسبب توفيق الحكيم ، الذى يئس من الزواج وهو الذى كان محل ترحيب العائلات يوم كان وكيلاً

للنيابة ، ولكنه كان يرفض ، لانشغاله بمحاولة تحقيق ذاته فى الفن ، بالإضافة إلى أن من ترشحهن أمه له ، للزواج كانت تختارهن على غير الأساس الذى يريده ابنها ، فقد وضعت فى رأسها خطة اخرى ، هى أن تزوجه من عروس غنية وارثة مما يؤمن حياته ويحيطها بالضمان ، ولكن توفيق الحكيم الذى كان يرفض بالأمس ، صار هو مرفوضاً اليوم ، حتى طرد فكرة الزواج عن ذهنه ، ولكن إلى حين ، لأنه كان يشعر بالفراغ فى شقته الواسعة بجاردن سيتى ، المطلة على نيل مصر الخالد ، فعاودته فكرة الزواج من جديد ، ولم يجد حلا سوى اللجوء إلى زعيمة الحركة النسائية ، هدى شعراوى .

* * *

ولكن كيف يجرؤ على ذلك وهو عدوالمرأة . لقد اضطر إلى طلب الهدنة ، بل التوبة والصلح ، فقام بزيارة هدى شعراوى وقال لها : أطلب مساعدتك فى الزواج .. زوجة واحدة لا أربع والله العظيم (فقد كان الحكيم قد كتب ضمن ما كتب ، يدعو إلى ضرورة زواج الرجل بأربع نساء ، مثل السيارة التى لا تستطيع السير إلا بأربع عجلات .

فقالت هدى شعراوى : هل تعلن توبتك عن معاداة المرأة .

فقال الحكيم : تبت ولن أعاديها أبداً .

وعندما تأكدت من صدق نيته ، وعدته خيراً ، ثم قدمت له واحدة من المقربات إليها العاملات معها فى الحركة النسائية ، فدب القلق فى نفس توفيق الحكيم ، وأدرك أن مثل هذه الزوجة سوف تجعل من بيته فرعاً تابعاً لحزب النساء .

وهكذا لم تنجح وساطة هدى شعراوى ولا محاولات أصدقاء آخرين حاولوا مساعدته فى العثور على زوجة تناسب طبعه ، أى أن تكون بجانبه وتشعره دائماً بأنها غير موجودة ، وترك الله ليختار له الزوجة المناسبة .

حتى سمع الإذاعى الراحل محمد فتحى ، برغبة توفيق الحكيم فى الزواج ، فرشح له إحدى السيدات ، وتم اللقاء بينهما بمعرفته ، أكثر من مرة ، حتى حدث الانسجام بينهما .

إنها السيدة « سيادة بيومى » التى طلقت من زوجها خريج التجارة العليا ، بينما كانت اهتماماتها أدبية وثقافية ، فكان استمرار التفاهم بينهما صعباً ، رغم أن ثمرة ذلك الزواج كانت ابنتين ، هما ، ناجا ، ونورا ، وكانت هذه السيدة فى الثلاثين من عمرها ، والحكيم فى الخامسة والأربعين .

وكانت للحكيم شروطه كفنان ، قبل أن يدخل قفص الزوجية ، فطبيعته كفنان يقدس الحرية ، كان لابد لمن اختارها لحياته أن تشعره دائماً بأنها وهى موجودة كأنها ليست موجودة ، وألا تخرج معه إلى الناس والمجتمع ، أو حتى فى نزهة ، وأن تشعره وهو متزوج كأنه غير متزوج ، وألا يشعر أحد أنه تزوج ، وأن تبعد عنه مسئوليات الحياة الزوجية ومشاكل الحياة اليومية ومتطلباتها .

صحيح أن الزواج مشاركة فى المسئولية ولكن هذا إذا كان زواجاً عادياً ، أما زوجة الفنان فدورها خطير لأنها ستتعامل مع طفل كبير ، وقد قبلت من اختارها الحكيم كل شروطه ، ومع ذلك فقد ظلت هذه السيدة مترددة ، لأنها أدركت أنها ستتعامل مع طفل كبير متقلب الأحوال والأطوار ، لذلك أرادت أن تطمئن وتستوثق مرة أخرى من حقيقة رغبة الحكيم وصدقه فى الزواج منها ، فطلبت منه ، قبل إتمام العقد وهى تخلع الخاتم من إصبعها أن يعيد التفكير جيداً . فطمأنها أنه ليس فى مبدأ الشباب حتى تؤثر فى قراره أى ظروف أو أهواء .

وتمت مراسم عقد القران دون « زفة » ، فالحكيم يحب الهدوء ويكره

الضجيج حتى ولو كان فى مناسبة زواج ، ولو قد تم شئ من أمور « الزفة » لعاد الحكيم فى قراره ، وترك المكان دون استئذان .

ولكن توفيق الحكيم كان متفقاً مع عروسه على كل شئ ، وكان التفاهم إلى درجة أنه لم يكن هناك كلام أو مغالاة فى مسألة « المهور » .

سأله التلميذ : كيف حدث ذلك ؟ فقال : تلك مسألة خارجة عن واجبات الزوجية وأصولها لأن الدين الإسلامى راعى ذلك ولم يجعل للمهر ومقداره أى أهمية فى الزواج ، يكفى تقديم خاتم من الحديد ، وأحيانا لا يجد الخطيب ما يقدمه لزوجه إلا رداءه الذى عليه ، وفى بعض الأحوال كان يتقاسم هذا الرداء مع زوجته ، فيجب أن يترك أمر المهر وما يشابهه من مطالب الزواج إلى ظروف كل منهما بالتفاهم وليس بالإجبار أو مراعاة تقاليد سحيقة ، ولم تكن هناك مشكلة فى الأصل بالنسبة لزواجى ، ولو كانت مشكلة فستكون مذللة ما دامت الزوجة عندها طبيعة مراعاة الزوج فى عمله وحريته ، فإنها لا شك ستقبل هذه الظروف المالية إذا كانت ستقف فى سبيل إتمام زواجى ، فالتى تنازلت عن حريتها مراعاة لحرية زوجها فى عمله ليست تجد صعوبة فى أن تتنازل أيضاً عن بعض مطالبها المادية إذا شعرت أن زوجها لا يستطيع ذلك ، فالعبرة هنا فى الزوجة وحسن تقديرها للأمور هى وأسرتها فى عدم التقيد بالمظاهر التقليدية والعادات القديمة فى التدخل فى هذه الأمور ، ويجب أن يرجعوا إذا كانوا من المسلمين إلى آداب الخطوبة والزواج فى الإسلام ، والأحاديث الشريفة فى ذلك ، وسيجدون هذا التساهل العجيب البعيد عن النظرة المادية كل البعد ، ولذلك لم أفكر فى تكاليف الزواج لا أنا ولا هى ولا أسرتها ، ولذلك كان كل شئ يسير طبقاً لظروفنا التى لم تكن هذه المسائل ذات شأن فيها لأن المشكلة الأساسية عندى فى الزواج والتى فهمتها تمام الفهم هى وأسرتها ، هى مراعاة حرية الفنان ، وهذه الحرية كانت مكفولة لذا

استمر الزواج لأن الحرية كانت الشرط الأساسى .

وتم الزواج فى ٦ يونيو ١٩٤٦ ، وكان عمر الحكيم ٤٥ سنة ، والزوجة فى الثلاثين مع عمرها ، سن متأخر للزواج فى مثل هذا الوقت من الأربعينات من القرن العشرين حيث لم تكن الأمور قد تعقدت بعد كما فى أواخره بالنسبة لزواج الشباب ، ولكنها ظروف الحكيم الخاصة فى بحثه عن شخصيته كفنان أولا ، ثم بعد ذلك يأتى الزواج ، وسأله التلميذ عما إذا كان نادما ؟ فقال : « إننى نادم على تأخرى فى الزواج ، فلو تزوجت فى سن مبكرة لكان لى الآن أحفاد كثيرون وأسرة كبيرة ، ولذلك فإننى اليوم من دعاة الزواج المبكر وأحث الشباب على الإسراع فى العثور على نصفهم الثانى ، ولذلك فإن بقائى إلى الخامسة والأربعين من العمر دون زواج كان بلا مبرر ، أجل إنى اتساءل بين الحين والآخر : لماذا تزوجت فى مثل هذه السن المتأخرة ؟ ولقد قالت لى أمى ذات يوم : من الأفضل ألا تتزوج أبداً بعدما تأخرت طوال هذه السنوات » ، وكان فى ظنها أن العزوبية أفضل وأسلم من زواج الشيخوخة .

ولكن هكذا جرت الأقدار وتزوج الحكيم متأخراً ولكنه لا ينصح الشباب أن يحذو حذوه ، وألا يتأخروا عن الزواج مثله ، واستدركه التلميذ : ولكن ظروف الحياة الصعبة لا تجعل للمستجيبين لدعوة الزواج المبكر ، القدرة على الزواج ؟ فقال : « لابد من تعاون الفتى والفتاة على بناء حياتها فى مسيرة الحياة من أولها بإنشائها معاً ، متعاونان بالعمل كل حسب امكانياته للحصول على ما يستطيعان المشاركة به فى بناء عش الزوجية ، لأنه فى حالة عدم وجود إمكانية لإنشاء حياة زوجية بالطرق التقليدية فلابد من أن يقوم الزواج على العمل المشترك بين الزوج وزوجته للحصول على موارد مشتركة ، وإلا فلينتظر كل منهما تحسن حالته المعيشية ، ولذلك يكون الزواج طبيعياً للمرأة فى سن الخامسة والعشرين

تقريبا ، وبالنسبة للرجل فى حدود الثلاثين حتى يستطيع أن يكون قد كون نفسه ، أما الزواج المبكر جداً الذى يقوم على العاطفة فقط دون استعداد له فهو فى غاية الخطورة وقلما يعيش طويلا ، فالزواج هو عمل انشائى كأى مشروع ، ولذلك لابد له من الإعداد الواعى لتأسيسه على أساس سليم » .

وهكذا كان توفيق الحكيم ناضجاً هو وزوجته عندماتزوجا ، فكيف كانت حياتهما خلف الجدران ؟

الفصل الثانى

يازوجتى كونى أنانية !

- خطة للزواج لمدة ثلاثة شهور .
- حجرة لنوم الزوج وأخرى لنوم الزوجة
- الصراصير الملهمة .
- لقطة من حجرة النوم .

لم يشأ توفيق الحكيم أن يعلم أحد بأمر زواجه ، وكان ذلك شرطاً من شروط زواجه ، ولذلك فإنه فى نفس يوم الزواج لم يغير شيئاً من نظام حياته المعتادة .

فقد تزوج وخرج من بيته ليقضى سهرته مع أصدقائه كعادته ، فلم يلحظوا عليه أى تغيير ، فلم يعد إلى منزله إلا فى الساعة الثالثة صباحاً .

وقد عاش توفيق الحكيم مع زوجته أكثر من ثلاثين سنة ، وماتت دون أن يدرى أحد إلا القليلين الذين اكتشفوا زواج « عدو المرأة » ، وكان اكتشافاً متأخراً .

ومع بداية حياة الحكيم الزوجية بدأ حنينه إلى حياة العزوبية والحرية التى اعتادها دائماً . فقد قرر ألا تطول مدة زواجه على ثلاثة شهور ، وهوما يكفى لدراسة تجربة الزواج ، ولكن مدة الزواج استمرت ثلاثين سنة ، حتى ماتت الزوجة وهو شيخ فى أشد الحاجة إليها .

* * *

ولم يندم الحكيم على زواجه ، فقد كان موفقاً ، فالزوجة احترمت شروطه إلى أبعد حد ممكن ، وإذا كانت حواء الجدة قد أخرجت آدم من الجنة فإن حواء اليوم بعد ملايين وملايين السنين قد تعلمت الحكمة فلن تخرج آدمها الجديد من جنة سجنها له فى بيت الزوجية ، ولكن سجن الحكيم كان بغير سجان ، فلم تلحق زوجته الضرر المحسوس بنشاطه الفنى ، وهذا هو الذى كفل لزواجه الاستمرار ، ولو كان قد شعر قليلاً ولو لعدة أيام أن هذا الزواج قد كان له تأثير فى إنتاجه الفنى لما استمر لحظة واحدة ، ولكنه لم يؤثر على فنه ولا على حرية تنقله بما يجعله يضيق به

فيكسر قيوده ، فقد كان يفعل ما يريد وينتج كما يشاء فى أى وقت ، وحجرته التى يعمل بها عندما يدخلها ويغلق بابها على نفسه بالعشر ساعات ليقرأ أو يكتب ، لا تسأله زوجته كيف ولماذا ، ولا تتأفف ، وكان يحثها على مغادرة البيت حين يكون مشغولاً بالكتابة ، ويقول لها :

ألا تذهبين لرؤية أهلك ؟! فتفهم ماذا يريد بهذه الاشارة ، و عندما يعود إلى المنزل قبل قرب الفجر ، لا تسأله لماذا تغيب أو تأخر ، وتقديرا من الحكيم لزوجته كان يحاول ألا يشعرها بعودته فى هذا الوقت المتأخر ، محافظة على شعورها ، فيدخل إلى حجرته مباشرة ، فقد كانت له حجرة نوم خاصة ، ومثلها لزوجته ، لزوم تأجيج نار الشوق ، فيذهب أحدهما للآخر إذا شعر برغبة فى اللقاء .

وذات يوم خميس ، وهو اليوم الذى كان معتادا أن يقضيه مع أسرته من كل أسبوع ، كانت الزوجة فى ذلك اليوم عند أمها المريضة ، وخرج الحكيم وعاد متأخراً عند منتصف الليل ، وضبطته ابنته زينب وكانت لا تزال فى المرحلة الثانوية ، فقالت له فى جرأة تحسد عليها :

سأخبر ماما أنك عدت متأخراً .

فقال لها مداعباً : إذن فماذا تطلبين ثمناً لسكوتك ؟ فطلبت جنيهًا ، وكان هذا هو أقصى مبلغ يصل إليه حلم فتاة فى مثل سنها فى ذلك الزمان الذى كانت فيه للجنيه قيمة .

وأحبت زينب أن تستخدم هذا السر فى كل مرة تريد فيها الحصول على مثل هذا المبلغ ، ولكن أمها كانت قد عرفت من زوج ابنتها « نورا » الذى علم من أحد أصدقائه أن الحكيم فى تلك الليلة كان مع أصدقائه فى « شبرد » فظن الحكيم أن زوجته عرفت بتأخره من ابنتها ، فقطع عليها سبيل استغلالها لهذا السر الذى لم يعد سراً .

ولكن الزوجة لم تكن تتحدث فى مثل هذه الأمور ، حتى أنها عندما

شاهدته بناء على بلاغ من أحد أقاربها ، مع فتاة شقراء فى أحد الفنادق لم تناقشه فى هذا الموضوع إلا بعد ذلك بسنوات فأخبرها أنها كانت صحفية أجنبية تجرى حواراً معه . لقد احترمت زوجة الحكيم شروط حريته إلى أبعد الحدود .

ولذلك يقول الحكيم عندما ناقشه التلميذ فى هذه الجزئية من حياته الزوجية :

إن هذا هو الذى جعلنى لا أشعر إطلاقاً بأنى فى سجن الزواج ، وإذا كان هذا السجن موجوداً كما يقال فقد كان سجناً مفتوح الأبواب ليس به سجان يسألنى :

متى خرجت ، ومتى دخلت ؟

ولو شعرت بوجود أى سؤال عن الخروج أو الدخول ، أو التأخر ، أو التضجر من عملى واهتمامى به ، وانعزالى بالعمل والفن عن كل ما حولى ، لما وجدتنى الزوجة والأولاد بينهم لحظة واحدة ، لأنى سأكون كالسجين الذى يفر من أول يوم ، ويرمى نفسه من النافذة بأى طريقة .

ولكن الحقيقة أن الزواج عندى لم يكن له أبواب ، لأن الزوجة أدركت أن كل ما يهمنى هو عملى ، وهذا العمل يقتضى منى أن أكون حراً كل الحرية ، وهذا هو الشرط الأساسى للزواج ، لا أقول للفنان وحده ، بل لكل رجل يهتم بعمله ، فيجب على كل زوجة أن تشعر بأن حياتها الزوجية لا تقوم إلا على شعور الزوج بأنه حر تمام الحرية » .

وهذه الحرية التى ضمنتها ، زوجة الحكيم له ، جعلته بعيداً عنها فى أكثر الأوقات ، ولذلك فإنه كان كثيراً ما يحاول أن ينقص قدره فيقول لها : زمانك يا أم إسماعيل ندمانة لأنك أخذت مقلب ! فتقول له بثقة المرأة التى لم تهزم فى معركتها مع الرجل أبدا : ليكن هذا رأيك ولكنك عندى بالدنيا كلها .

فقد كانت زوجة تعرف قيمة زوجها ، وكان هو يعرف أيضا قيمتها .

وقد سأله التلميذ : ألم تكن تتذكر زوجتك بهدية فى مناسبة من المناسبات ؟

فقال : لم أكن أذكر المناسبات الخاصة أو المناسبات العامة ، ولا أقبل من يذكرنى بها ، وكذلك لا أحب أن أذكر مناسبات الآخرين ، وقد تعودت الزوجة على ذلك ، ولذلك كنت فى حرية زوجية مطلقة ، وهى التى جعلتنى أستمر فى الزواج دون أن أشعر بوجوده ، ولا أنصح لأى زوج أن يكون مثلى ، ولكن أنصح لكل زوجة أن تضمن الحرية التامة لزوجها لكى تبقى الحياة الزوجية مستمرة ، وأعتقد أن أى زوج آخر تعامله زوجته بهذه الحرية فإنه لن تكون له طبيعتى فى إهمال المناسبات ، بل إنه رغماً عنه وعنها سيتقدم إليها بهدية تشعرها بأنه مقدر لمعاملتها له بهذا التسامح فى استخدام حريته المطلقة ..

وهذا ما فعله الحكيم استثناء وإن لم يرتبط تعبيره عن تقديره لزوجته بمناسبات معينة لأن المناسبة هنا كانت هى إظهار عرفانه لما وفرته له زوجته من ظروف مناسبة لإنتاجه الفنى ، فكان يقدم لها بعض الهدايا من الذهب بل إنه قد أهداها ذات مرة عقداً من « الألماظ » ، أضطرت إلى بيعه للإنفاق على شراء الآلات الموسيقية لإبنها إسماعيل ، دون أن يعرف الحكيم شيئا عن ذلك ، حتى لا تغضبه أو تجرح مشاعره بتفريطها فى هداياه إليها ، حتى لو كان ذلك من أجل إبنها، ولعل إنشغال زوجة الحكيم بأبنائها عنه، كان مما يعوضها عن إنشغاله عنها أكثر مما يجب .. ولا تستطيع أى حياة زوجية أن تتحمله مما يؤدى إلى الملل .

فهل كان هناك ملل فى حياة توفيق الحكيم الزوجية ؟

سأله التلميذ ، فأجابه : الملل فى الحياة الزوجية قليل إذا كان هناك أطفال ، لأن الأطفال لا يمكن أن يشعروا الزوجة الأم بأى وقت للملل ،

لأن الإنشغال بهم يستوعب كل وقتها ، أما الملل فيكون عندما تكون الزوجة بمفردها ، فإذا تأخر عنها الزوج وأرادت المحافظة على الزوجية فعليها أن تخترع لنفسها عملاً أو هواية أو أى شىء تملأ به وقت الفراغ لحين أن تسمح الظروف لزوجها بالحضور ، فهذا واجب المرأة : أن تبحث هى عما يملأ فراغها لا أن تحمل زوجها هذه المسئولية ويكون هذا سبباً من أسباب الخلاف الذى يؤدى إلى الانفصال ، وأنا لم أعرف هذا مطلقا ولم تشعرنى زوجتى بأى ملل » .

بل إن الحكيم وقد كان ينام فى حجرة منفصلة عن زوجته ، ويغيب عنها لمدة سنة فى باريس أثناء عمله كمندوب لليونسكو ، لم تكن زوجته تشكو من هذا الوضع لأنها كانت تتفهمه ، خاصة وأنها كانت مثقفة ، وقارئة جيدة للأدب العربى متذوقة للشعر ، وتحفظ بعض قديمه وحديثه ، وتجيد الفرنسية ، ولذلك عندما أخذها الحكيم إلى باريس فى أحد المرات ، أذهلته بقدراتها الثقافية ، ففى متحف اللوفر ، كانت تتفحص الصور بكل صبر واهتمام ، ولا تريد أن تفارق المتحف طوال النهار ، وفى دار الأوبرا ، لم يستطع الحكيم الاستمرار فى المتابعة وأراد الانصراف أثناء الاستراحة لكى ينام ، بينما كانت هى متيقظة تريد الاستمرار لمتابعة القسم الثانى .

ومع الاهتمامات الثقافية لزوجة الحكيم ، لم تكن تنسى طبيعتها كامرأة فى التجول بين المحلات وشراء ما يروق لها من محلات باريس ، لها وللأولاد ، مما جعل الحكيم يقول إنها أفسدت ميزانيته . ولكن ذلك لم يكن ينسى الحكيم ميزة زوجته ، بعقليتها المتفتحة ، مما جعله يدخل معها فى كثير من الأحيان فى الأوقات التى ينفردان فيها ، فى مناقشات أدبية وفكرية وثقافية ، كان يستغنى بها عن أبنائه ، وكان من الطبيعى للزوجة المثقفة أن تقرأ كتبه ومقالاته ، وكانت لها عليها ملاحظات ، وكان لا ينسى لها الهدوء والتفرغ الذى أتاحته له فى تأليف الكتب التى أخرجها بعد

الزواج ، ولذلك قال عنها إنها « خير زوجة » فى « سجن العمر » الذى أهدى لها نسخة منه قال فيها :

إلى التى عاونتنى وساعدتنى فى إخراج هذا الكتاب وإنتاجه لما دبرته لى من جو الهدوء التام بابتعادها عن البيت » !

وفى إهدائه لها كتابه « شمس النهار » . كتب لها معترفا لأول مرة « إلى زوجتى الحبيبة شمس النهار » . ولم تكن إهداءات الحكيم لزوجته تخلو من روح الدعابة ، فيهديها كتاب « مصير صرصار » ، قائلا لها :

إلى زوجتى الحبيبة التى تركت الصراصير حولى لتلهمنى » !

* * *

ولم تكن زوجة الحكيم تستغل اسمه لقضاء شىء من أمورها ، كما لم تكن تفتح أدراج مكتبه أو تفتش جيوبه ، وكانت تحصل على ما تريده منه ، من نقود ، أو حين يفشل أبناؤها فى الحصول على النقود منه ، فتطلب « ناجا » إبنتها الكبرى ، نقوداً لها أو لإخوتها حينما يوسطونها فى ذلك ، فيقول لها الحكيم :

من أجل ماذا .. هى بعشرة فلوس .. ألا تتعلمون النظام ؟ .

أو يقول لها : فلوس ؟ من أين ؟ .. هل تركت لى أمكم شيئا ؟ .

فتذهب « ناجا » إلى أمها شاكية ، وعندما تهم بالتدخل يقول لها الأبناء :

يا ماما أريحى نفسك لن تحصلى منه على شىء .

ولكنها تقول لهم بثقة : إنتظرونى .

فتدخل على الحكيم وتخرج وفى يدها « الشيك » ، ولكن أحياناً كان الحكيم لا يستجيب لها ، ويثور ، فقد أعطاها مصروف الشهر حتى لا تُشغله بمسئوليات البيت والإنفاق عليه ، فما لزوم أى فلوس زيادة تطلبها ؟ .

هكذا كان الحكيم يتساءل ، لأنه لم يكن يعرف أن مصاريف الأولاد كلما كبروا كانت تزداد .

ولكن الحكيم لم يكن يشعر بذلك لأنه لا يشترى شيئاً ولكنه كان يحس بزيادة الأسعار كلما طالبته زوجته بنقود جديدة لمصاريف البيت والأولاد ، ولذلك حينما أخرج كتابه « بنك القلق » ، أهداه إلى زوجته قائلاً : أهدى هذا البنك إلى زوجتى حتى لا تطالبنى بنقود جديدة » !

ولكنها كمسئولة عن ميزانية البيت لم تستطع إلا أن تطالبه بالمزيد ، ولم يكن أمام الحكيم إلا أن يستجيب فى النهاية ، ويتراجع بعض الأحيان التى قد يبدو فيها غير مقتنع باتجاهات الإنفاق ، فهو لم يكن يملك سوى أن يلبى لزوجته ما تطلبه ، وإلا فإنه يشعر بالضيق إذا لم يستجب لما تطلبه ، ولذلك كان يقول : أنا أتفاءل حين أرضيها » ، ولهذا حينما يراها أبناؤها وقد خرجت من حجرة الحكيم وفى يدها « الشيك » يسألونها فى دهشة : كيف حصلت عليه ؟ !

وإلى جانب رغبة الحكيم فى إرضاء زوجته ، فقد كانت لها القدرة على إقناعه بما تريده ، ولها فى ذلك إشارات وتلميحات ، فمثلاً عندما يطلب منها أحد أبنائها شيئاً لا تريد الاستجابة له ، كأن تطلب منها زينب ، التى كانت تسميها « سوزى » على اسم بطلة الحكيم فى « عصفور من الشرق »، أن تخرج لزيارة صديقة لها ، أو للفسحة ، أو لأى سبب آخر ، فإنها لا ترفض ، ولكنها تعلق موافقتها على موافقة توفيق الحكيم باعتبار أن الكلمة الأخيرة له ، فتحدثه برغبات أبنائها التى لا توافق عليها ، بطريقة لا تجعله هو الآخر يوافق ، فتقول له بشأن خروج زينب : قال يا توفيق ، سوزى تريد الخروج » ؟ ! ، وعندما يسمع أحد الأبناء ، أمهم تنادى والدهم باسمه مجردا ، فمعنى هذا أنها تشير إليه ألا يوافق ، لأنها فى الأحوال العادية كانت تناديه حينما تدلله فتقول له « محسن » ، اسمه فى

« عودة الروح » ، والذى نقشته على خاتم الزواج ، كما كانت تناديه بقولها « يا بابا » ، كالأولاد ، ربما لأنه كان فى ظنها والد الجميع ، وكان الحكيم أيضاً يحترمها ، ولم يحدث أبداً أن شاهد هما الأولاد فى حالة شجار ، وكان الحكيم لا يناديها باسمها مجرداً ، ويبدو أنه كان متأثراً فى ذلك بوالده الذى لم يسمعه طوال حياته ينادى أمه باسمها ، وكانت هى تخاطبه بإسماعيل بيه ، أما توفيق الحكيم فكان ينادى زوجته باسم « ماما » ، أو يقول لها « حضرتك » ، فالحكيم محافظ جداً فى علاقته الزوجية ، ولم يحدث أن اصطحب زوجته فى نزهة أو مناسبة عامة أو سار بها فى الطريق العام ، وإن كان قد اصطحبها معه مرتين خارج مصر ، الأولى ١٩٦٠ فى باريس حيث احتفل معها بعيد زواجهما الرابع عشر ، ودعا نزلاء الفندق الذى كان ينزلان فيه إلى « تورتة » ذلك الاحتفال .

والمرة الثانية حين اصطحبها إلى لندن ١٩٧٢ ، حيث أشعرها هناك بما لم تكن تتوقعه من التواجد معها فى كل لحظة وكل مكان ، فى المسرح ، والمقهى ، والمعرض ، وكانت تساعده على ذلك بعقلها المتفتح واستعدادها الثقافى للاستجابة لكل مظاهر الحضارة ، وعندما عادت كانت تقول لأولادها إن بابا توفيق كان يعاملها كملكة متوجه .

لقد كان هذا منه تعبيراً عن تقديره للزوجة التى كانت قلبا كالنبع يريح رأس المفكر الكبير ، ولذلك كان إذا شعر بأى ظلم يقع عليها حتى ولو كان من حماتها ، التى هى أمه التى يحبها ، فإنه كان يقف إلى جوار زوجته ، عندما تمارس أمه دور « الحماة » وتضطهدها ، مما يجعل الحكيم لا يستطيع أن يتحمل الموقف ، فينحاز إلى زوجته اعتقاداً منه أنه يحقق العدل بذلك،ولهذا لم تكن زوجته تشعره ، ولا هو يشعرها بتدخل أحد من أسرتيهما فى علاقاتهما الزوجية ، أما كيف حدث هذا ؟ فقد سأل التلميذ ؟ وأجاب توفيق الحكيم : تركتنى زوجتى بحرية تامة فى التزاور ، فلم أكن

أزور أحداً من أسرتها لأنها شعرت أنى أيضاً لا أزور أحداً من أسرتى ولا أطالبها بذلك ، و لا تجعل للأسرة من الطرفين أى تدخل فى علاقتنا الزوجية » .

ورغم الهدوء والسكينة اللذان أحاطت بهما الزوجة ، الحكيم ، إلى درجة أنها كانت تجبر الأولاد على احترام عزلة أبيهم ، فتنبه عليهم ألا يدخل أحد حجرته أو يقترب منها ، إلا أنها حينما وجدته مشغولا أكثر مما يجب ، أرادت أن تنبهه عندما بلغ ابنها « إسماعيل » الثالثة عشرة من عمره ، إلى أنه أصبح فى حاجة إليه أكثر من حاجته إليها ، وكانت تلك من اللحظات النادرة التى يثور فيها عليها ويقول لها : أنها عاطفية أكثر من اللازم . ولذلك حينما كان يرى عاطفة الأمومة مسيطرة عليها فى تعاملها مع الأولاد ، بدرجة يشعر منها أنها تؤدى إلى التدليل الذى يؤدى إلى إفسادهم ، كان يقول لها :

ياريت يكون عندك بعض الأنانية » ! ولعل هذه الأنانية ، التى كان يريد الحكيم أن يكون منها شىء فى تركيب زوجته ، كانت هى من بعض مكونات شخصيته كجزء من محافظته على نفسه بألا يسرف فى عواطفه ، ألا يحمل نفسه مشاكل أو هموم تؤثر على قدرته على العطاء الأدبى والفكرى ، ولو كان قد فعل لخسرنا نحن توفيق الحكيم الفنان ، ولكنه فى النهاية شعر بخسارته لنفسه ولأسرته ، وكان الندم لا يفارقه إلى درجة أنه أعلن فى حديث صحفى على رؤوس الأشهاد « لقد قتلت زوجتى وقتلت ابنى ولا أعرف لماذا أعيش حتى الآن » .

وإن كان الحكيم قد حاول فى أواخر حياة زوجته وابنها ، أن يقترب منهما ويعوضهما عما جفت به عواطفه تجاههما ، فإن الزوجة كانت أكثر فهماً وتقديراً لرسالة زوجها ، من فهم وتقدير ابنها لتلك الرسالة ، كانت الزوجة مرتبطة بالحكيم ارتباط الروح والقلب والعقل ، وإن لم تسأله أن

يعطيها بعض وقته إلا أن يكون ذلك العطاء لأبنائهما ، الذين مهما كانت حاجتهم لحنان الأم فلابد من شعورهم بتواجد الأب معهم ، أما شعور الزوجة بتواجده فهى تقدر وضعه كفنان وتساعده على التفرغ له ، وتعمل على راحته وتطمئن عليه إذا تأخر عن موعد عودته من مكتبه ، فتتصل به تليفونياً إذا جاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر .

وحينما مرضت كان الحكيم يحاول ألا يشعرها بتأخيره ، فكان يقوم بتأخير الساعة لمدة ساعتين ، أو حسبما تقتضيه الظروف ، فيعود مثلاً فى الثالثة أو بعدها ، وتكون الساعة مضبوطة على الواحدة ، ولكن الزوجة رغم مرضها كانت تشعر بتأخر زوجها ، وتسأل إبنتها الكبرى « ناجا » عن الساعة فتخبرها بما ضبطها عليه الحكيم ، وتحضرها لها لتتأكد بنفسها ، فتطلب منها إحضار المصحف لتقرأ لها سورة « يس » ، وتستعيدها مرة وثالثة ورابعة حتى يحضر زوجها ، فيدخل عليها هاشا باشا ضاحكا وهو يقول لها :

كيف حالك ... وحشتينى .. عامله إيه ؟ .

فتسأله عن تأخره ، فيقول لها : أبداً أنا لم أتأخر أنظرى ها هى الساعة الآن الواحدة » . بينما تكون الساعة الثالثة وأحيانا الرابعة ، يفعل الحكيم ذلك حتى لا يجعل زوجته تحس بغيابه عنها فى مرضها ، لأنها لم تكن تأكل أو تتناول الدواء حتى يحضر ، لأنها كانت تظل رغم شعورها بالجوع تنتظره حتى يعود ، وكان يؤكد لها أن شعورها بالجوع هو علامة من علامات تحسن صحتها ، رغم أن ذلك كان من علامات تقدم الساعة التى كان يؤخرها .

ويجلس الحكيم أمام زوجته على سريرها ، ويتناولان الغداء على منضدة بحجرة نومها ، وبعد الغداء يجلس بجوارها على السرير ، يتحدثان أو

يشاهدان التليفزيون ، حتى يغلبهما النوم ، وحينما تدخل عليهما « ناجا » للاطمئنان على أمها تجد منظراً عجيبا :

الحكيم نائم بجوار زوجته على غير استعداد للنوم وقد أسدلت طاقية رأسه على عينيه ، والتليفزيون لازال يبث إرساله على « الفيلم » الذى لم يستكملا مشاهدته ، فتنبه « ناجا » الحكيم ،

فيقول لها وهو بين النوم واليقظة :

إيه .. فيه .. إيه ؟ وظل الحكيم خلال الخمس سنوات الأخيرة من حياة زوجته طيلة فترة مرضها يأتى من مكتبه ليجلس معها ولا يفارقها إلا بعد أن تنام ، وقد ينام معها دون أن يشعر ، وتحس الزوجة وقد طال مرضها ، أنها صارت عبئا على المفكر الكبير الذى لم يكن يشغله شىء عن نفسه ، فإذا هى تشغله بمرضها طيلة الوقت ، مما جعلها تقول له :

المفروض إنى كنت أحملك فى شيخوختك .. فإذا بك أنت الذى تحملنى » .

فقد كان يقول لها باعتبارها أصغر سنًّا منه : أنت العكاز الذى سأستند عليه فى شيخوختى .

فإذا به يكون « العكاز » الذى تستند هى عليه طيلة مرضها ، ويظهر لها إستعدادا لتحملها لم تكن تتوقعه ، مما كان أبلغ تعبير لها عن مودته وحبه لها .

ويسأله التلميذ : ألم تحاول التعبير عن نفسك لزوجتك بكلمات الحب ؟ فيقول : عودتها أن كلمات الحب توضع على الورق فقط ، ولاداعى لأن نتبادلها بالكلام لأن الحب يجب أن يظهر مجسدا فى مواقف تدل عليه ، وليس كلمات ينطقها المحبون كما فى الروايات » . لأن طبيعة الحكيم ذاته لم تكن تميل إلى إظهار المشاعر والعواطف ، ولكنها تظهر فى المواقف ، كما حدث وأشعر زوجته فى مرضها بتواجده معها ، فلم يشكو أو يتبرم وكان

مثالا للوفاء فى مثل هذه الظروف ، وهو بذلك يشبه والده الذى ظل مشغولاً بالعمل على شفاء زوجته وقت مرضها ، غير ملتفت لنصائح أقربائه ، بالزواج من أخرى صحيحة بدلا من زوجته المريضة، ولذلك فقد أدركت منه مبلغ تقديسه للواجب وحرصه على الزوجية ، وقد أخلصت له هى أيضا وأحبته كثيرا ، وكذلك كان الحكيم مع زوجته ، فتحملها فى مرضها بكل الرضى والتقدير ، وفى خطاب نادر جدا ومثير جداً ، ضبط توفيق الحكيم وهو يكتبه إلى زوجته وهى بالمستشفى ، يبثها فيه حبا وغزلا يغنى عن أى تقديم أو تعقيب عليه .

يقول الحكيم فى خطابه غير المؤرخ على ورقة من القطع المتوسط ، كاد أن يأتى عليها طول النسيان :

زوجتى العزيزة

صباح الخير . ولا أحرمنا الله من صباحك المضئ . فالبيت فى ظلام بدون وجودك فيه . فأنت فيه الشمس والقمر معا . الشمس فى نهاره والقمر فى ليله . نسأل الله أن لا تطول غيبتك عنا . وأن تعودى إلينا بتمام صحتك . ونحن فى غاية الاطمئنان إلى الأيدى التى ترعاك وتعمل على شفائك بإذن الله . فبلغى الشكر عنا إلى المتولين أمرك فى علاجك وعلى رأسهم الدكتور الشهم البارع محمود سامى عبد الجواد . ثم لمن وجدت منه العناية بك ممن فى المستشفى . ولك منى ومن الجميع هنا التحيات التى لاعدد لها .

توفيق

وخلال فترة مرضها الطويل الذى مكثته بالبيت لم يضجر الحكيم أو يتأفف بل كان مثالا للزوج الكريم حتى جاء يوم وفاتها ، فرفضت تناول الغداء حتى يعود من مكتبه فى الساعة الثالثة لكى تتناول الطعام معه ، وبعدها همست فى أذنه :

أنت حاتحزن علىَّ ؟ ! ثم شهقت مرتين : آه .. آه . وماتت .

وقد كتب توفيق الحكيم ساعة وتاريخ وفاة شريكة حياته ، فى برواز أسود بمفكرته الخاصة :

يوم الوفاة ٢٩ إبريل ١٩٧٧ الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر .

ورافقها الحكيم فى عربة الإسعاف حتى مثواها الأخير .

وانطفأ بذلك المصباح المضئ فى حياة شيخ الكتاب .

وعندما سأله تلميذه عما إذا كان يفكر فى إضاءة مصباح زوجى جديد ؟ قال :

لا يمكن أن أتصور ذلك أبدا ، فقد أخذت حظى من الزواج ، وليس هناك ما يدعونى إلى ذلك مرة أخرى ، وسأظل وفيا لزوجتى لعل ذلك يغفر لى الاهتمام الزائد بعملى الأدبى ، مما عزلنى كثيراً عنها وعن الأولاد .

الفصل الثالث

إبنى بثلاث شخصيات

إسماعيل

أنا لا أتعامل بمؤثرات انفعالية صبيانية بل لأسباب أهم من ذلك وأعمق .

- هذه مسائل خطيرة ولابد أن توضع على أساس قانونى سليم .
- أرجو ألا تطلع أمك على هذا الخطاب .

عندما حاول الحكيم أن يلتفت إلى ابنه اسماعيل ويسدى إليه النصيحة ، جاء ذلك متأخراً ، ولم تعد أى نصيحة منه مجدية .

وسأل التلميذ ، الحكيم : ألم تحاول الاشتراك مع أم اسماعيل فى توجيهه وإرشاده ؟

فيقول : لم تكن تريد أن تزعجنى عن عالمى ، لذلك فوجئت بأن ابنى قد اتجه إلى الموسيقى دون أن أعرف ، وحاولت أن أعمل على توجيهه ، واتفقت ووالدته على تخصيص يوم فى الأسبوع نجتمع فيه لمناقشة كل ما يتعلق بأمور الأسرة ، ولكن الحقيقة أن زوجتى يرحمها الله لم تكن تريد أن تشغلنى بأى شىء عن فنى إحتراما لشروط زواجنا ، وفهمت أن الحرص على راحتى معناه أن أبتعد عما يخص الأولاد وحياتهم ، وكان طبعى وجفاف عاطفتى مشجعا لها على الابتعاد بالأولاد عنى ، وكانت علاقتهم بها هى وحدها ، لم يشركونى فى حل مشاكلهم ، الأمر ليس خطيراً فيما يتعلق بالبنات فهن سيتزوجن ويذهبن لبيوتهن ، أما فيما يتعلق بالولد فالأمر يصبح على قدر كبير من الأهمية ، كانت تجلس مع إسماعيل تحل مشاكله وتتبادل معه الرأى وتعطيه المال ، لم تضع فى الاعتبار أنه فنان مثلى وربما يستفيد من خبراتى ، ولارتباطه بها كان يجبر أمه على حضور الحفل الافتتاحى يلقى عليها نظراته الأولى كما لو كان يستمد منها القوة ، وإذا لم تحضر الحفل الافتتاحى يعتذر هو عنه ، كان الارتباط بينه وبين أمه قويا للغاية ، وبينى وبينه ضعيفا للغاية » .

ولذلك كانت العلاقة بين توفيق الحكيم وابنه إسماعيل تمثل التصادم بين الأجيال .

الحكيم يرى أن جيل إسماعيل أقل من الجيل الذى سبقه ، صبراً وجلداً ، وأقوى منه رغبة فى كل تغيير وأعنف ثورة على كل ثابت مستقر ، فما بالك والحكيم يفصله عن ابنه ثلاثة أجيال ، فلازال الأب الكهل يعيش بأفكار أهل الكهف ويتردد فى سمعه ما كان يقوله له كل صديق لوالده :

أبوك يشكو لطوب الأرض فزعا من أن ابنه قد أدركته حرفة الأدب !

ولكن الحكيم هو نفسه قد تمرد على دراسة القانون التى اختارها له أبوه ، واشتغل بالأدب فى شارع الفن ، وها هو ابنه إسماعيل يختار الموسيقى حرفة من حرف الفن .. فهل تغير الموقف ؟ لكأن تاريخ حياة الحكيم يعيد نفسه مرة أخرى فى شخص ابنه إسماعيل ، الذى بدت عليه أعراض الفن منذ طفولته ، تشجعه والدته وتهديه فى عيد ميلاده « جيتارا » ، ولم ير الحكيم فى الأمر خطورة وظنها هواية عابرة لا تلبث إلا أن تتوارى أمام هواية أخرى جديدة ، ولكنها كانت موهبة كامنة تعبر عن نفسها يوما بعد يوم ، فالموسيقى تجرى فى إسماعيل مجرى الدم ، ولا أمل فى أن تفارقه أو يفارقها ، ومضى يشق طريقه بنفسه وسط ضباب من الفتور يحول بين الحكيم ، وبينه ، وفى الأحيان التى كان يجرى فيها إسماعيل تدريباته بالمنزل ويعلو صوت آلاته وأنغامه ، كان الحكيم يغلق على نفسه حجرته ، بينما كانت والدة إسماعيل تشجعه وتتحمس له ، ولكن هل يغلق الحكيم نفسه ويسد أذنيه عما يراه من صخب ابنه ، أو يحاول أن يفتحها ويفهم ماذا يفعل لعله يلتقى به ولو فى منتصف الطريق ؟ . وجرب أن يذهب مرة لحضور إحدى حفلات ابنه الموسيقية باقتراح من هيكل ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لكى يغير الحكيم نظرته تماما رغم نجاح ابنه وفرقته الموسيقية ، فقد كانت عاطفة القلق عند أب كالحكيم تغلب عاطفة الرضا ، بل قد وجد فيما بعد ما يعزز قلقه حين رأى تدهور أحوال الفرقة واستغلال البعض لابنه ، وانصراف الناس إلى عصر

جديد تغيرت فيه نوعية الجماهير التى كانت تسمع موسيقى إسماعيل ، فقد طغت جماهير شارع الهرم وملاهيه على كل شىء فى كل مكان ، مما جعل إسماعيل يترك فرقته تعمل بدونه وتأخذ هى الأجر وتترك له القليل الذى تسمح به ، فقد اعتزل إسماعيل الموسيقى حزنا على ما آل إليه حال الجمهور ، فلا يسمح لنفسه أن يعزف لجمهور لا يهمه الموسيقى بقدر ما يهمه السهر والهزر .

وقد وجد الحكيم فى ذلك مدعاة لكى يقرر لنفسه أنه كان محقا فى تخوفه من اشتغال ابنه بالفن ، ذلك الطريق الشائك غير المأمون ولا المضمون ، وحاول الحكيم أن ينبه ابنه وينصحه لكى يكون له موقف مع فرقته ، ونفسه وشخصيته ، ولكن النصيحة فى الغالب تكون ثقيلة ، وأحيانا تورث الخصومة ، ووجد الحكيم البديل عن الكلام ، بكتابة رسالة إلى ابنه ، خطها بالقلم الرصاص على ورق متوسط الحجم ضارب إلى الاصفرار ، وتركه دون توقيع ، ليقرؤه إسماعيل دون أن يواجهه ، لأنه كان يتوقع أن يكون رد الفعل سلبيا ، فتركه ليقرر لنفسه ما يراه صائبا ، ويكفى الحكيم أنه سجل موقفا ، فكتب رسالة يسدى فيها النصح إلى ابنه ، على الأقل إرضاء لنفسه ، أو إشعارا لها أنه قد فعل ما يجب عليه أن يفعله أب تجاه ابنه ، وفى رسالته يحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، ولكن هيهات فقد قضى الأمر ، ومع ذلك لا بأس من المحاولة مع حرص الحكيم أن يتم ذلك بعيدا عن أم إسماعيل ، وألا يعرف بسر الخطاب إلا زوجة ابنه « زيزى » ، زوجته الأولى ، فلم تكن معينة له على السير فى طريق الفن ، بل كانت تعوقه عنه بتشجيع من أسرتها التى لم تكن مرحبة بارتباطها بفنان ، بينما هى خريجة تجارة وأرادت أن تفتح مشروعا لهذا الغرض ، ودار الصراع بين الفن والتجارة ، فحدث الانفصال الذى أضطر إليه إسماعيل ، مما ترك أثرا فى نفسه وقلبه ، فقد كان يحبها ،

ولكن حبه لفنه كان أقوى ، وتشاء مفارقات القدر أن تموت « زيزى » بعد وفاة إسماعيل بسنة واحدة بعد أن كانا قد افترقا فى الحياة ، ليجمعهما الموت .

وقد وجد الحكيم فى زوجة إسماعيل « زيزى » عونا له لنصح ابنه ، فقد كان رأيها من رأيه ، وفى رسالته إليه يحلل شخصيته ويحاول أن يفيده بخبرته .

يقول توفيق الحكيم :

اسماعيل

أنا لا أخاصمك لأسباب انفعالية صبيانية بل لأسباب أهم من ذلك وأعمق . لأنها تتعلق بما أعتقد أنك أنت نفسك تعانى منه وتقلق فى أعماقك بشعورك الواعى أو غير الواعى . ذلك هو شخصيتك التى تتصادم فيها ثلاث شخصيات مختلفة فى وقت واحد وهى :

١ - شخصية الرجل الذى يفكر تفكيرا سليما ويفهم كل شىء فهما جيدا . ولكن إرادته أضعف من أن تقرر ما ينفعه وتتجنب ما يضره .

٢ - شخصية الفنان الموهوب المتراخى التارك لعصابة فرقته أن تأكل نتيجة عرقه وهو عاجز عن حماية نفسه ومستقبله .

٣ - شخصية الطفل فى حجر أمه الذى يلقى عليها كل مسئولياته وديونه وطلباته .

ومن مجموع هذه الشخصيات تقوم شخصية واحدة غامضة المصير فى نظر صاحبها . وهى تعذبه أحيانا وتقلق نومه وأحلامه وهو يحاول إبعادها بإغراقها فى (....) أو السهر أو النوم ..

هل لهذه الحالة من حل أو علاج ؟

أعتقد أن الحل أو العلاج بسيط . ولا يحتاج إلا إلى شىء من التنظيم .

وخاصة فى البند الثانى والثالث ، فإذا استطعت أن تواجه مسئولياتك شعرت فى الحال أنك رجل ولم تعد طفلا ولا طالبا . وهذا سيريحك نفسيا . لأن من أسباب قلقك النفسى هو أنك تعرف أنك بلغت مبلغ الرجال وتتصرف بدون شعور تصرف الطفل والطالب الصغير . وهذا التنظيم الذى يعالج نفسيتك هذه ويجعلك طبيعيا فى نظر نفسك وجديرا باحترامها لن يكلفك أكثر من أربعة جنيهات من دخلك اليومى (فى أوقات شغلك) وذلك لمواجهة ديونك (التى تتحملها عنها والدتك خصما من مصروف الشهر ولا تنام الليل بسببها) وليس فى مواجهتك لديونك هكذا إراحة لوالدتك فقط بل لك عندما تشعر أنت براحة الرجل الذى لم يعد عالة على أهله . ولكن هذا يقتضى الكسب المعقول الذى ينتج لا من عملك الفنى فقط الذى تتفوق فيه على أفراد فرقتك بل من حاصل استغلال الآلات الضخمة التى دفعت أنت فيها وحدك آلاف الجنيهات . وإذا كنت غير قدير على إقناع فرقتك بذلك فما عليك إلا أن تتخذ لك محاميا تحيل عليه هو كل الشئون المالية للفرقة . وهو يفحص الوضع من الوجهة القانونية ويضع كشوف توزيع الإيراد طبقا لما تقضى به القوانين . ذلك لأن فرقتك وأنت نفسك لم تزل تعالج أمر الفرقة كما لو كانت فرقة هواة من طلبة المدارس . فى حين أنك أصبحت رجلا محترفا برأس مال يقرب من العشرين ألف جنيه ، وعليه أقساط ديون . وهو وضع لا يمكن أن يعالج كما تريد الفرقة معالجة صبيانية .

يتكالبون فيه على العقد ينهشون أرباحه ويتركون لك مسئولياته وديونه . هذه مسائل خطيرة ولابد أن توضع على أساس قانونى سليم مع محاميك . والمحامى لن يكلفك شيئا ولكنه سيحميك من الوقوع فى أخطار الارتجال أو التسرع . وخاصة عند الارتباط بعقود مع الغير من أصحاب الأعمال والملاهى الماكرين المخادعين . حياتك كلها ستتغير تغيرا مدهشا

إذا نظمتها هذا التنظيم ووضعتها على هذا الأساس السليم . وستتحسن نفسيتك وتشعر بصحة شخصيتك ولقد كانت لك رجولة وإحساس بالمسئولية فى يوم من الأيام . يوم كان عقد الفرقة كله فى الكوكيت نحو ١٥ جنيه وكنت تدفع لى منها كل يوم ٧ جنيهات لسداد كمبيالات(*) . وكنت أمامنا جميعا مثال الشخصية المحترمة المقدرة لمسئولياتها . وإياك أن تفهم من ذلك أن المقصود هو مطالبتك بشىء لنا . فالبيت بيتك أنت وزيزى . ولكن المقصود هو إشعارك بأنك تنهض بمسئولية رجل يتحمل ديونه وحده ويفكر فيها بمفرده . كما أرجو ألا تطلع أمك على هذا الخطاب أو تحدثها بما جاء فيه . مراعاة لصحتها . وأنا لم أتحدث فى ذلك إلا مع زيزى وحدها وهى متفهمة تماما لكل ذلك بل إن آراءها كانت تسبق آرائى وتطابقها تماما . وعلاجها يهمنا جميعا . فكر فى ذلك جيدا وناقشنا فيه أنا وزيزى عند اللزوم .. ونرجو لك التوفيق .

* * *

ولكن كما يقولون فقد سبق السيف العزل ، فقد سارت الأمور إلى نهايتها المحتومة ، فقد تدهورت صحة إسماعيل الذى كان يشعر بالغربة عن عصره ، حتى لكأنه تنبأ بمصيره ، فقد كان يرسم جمجمة وتحتها يكتب « أنا » ، واقتطفت روحه وهو فى عز الزهور ، وكانت صدمة للحكيم لم يصدقها أحد ، ولكن خطاباته إلى أرملة ابنه ، زوجته الثانية كانت مليئة بالأسى والحزن(**) ، ولم يكن الحكيم نفسه مصدقا أنه لن يعد يرى إسماعيل مرة أخرى ، ولذلك حرص على إلقاء النظرة الأخيرة عليه وهم

(*) كان إسماعيل إذا أراد مبلغًا من المال أعطاه والده ما يريده مسجلاً فى كمبيالات مستحقة السداد .

(**) القصة كلها فى كتاب اليوم « رسائل خاصة جدًا » للمؤلف .

يضعونه فى مقبرته ، ولم يكن بقدرة أحد أن يحتمل الصورة إلا صديقه المستشار محمد سعيد العشماوى بينما ظل نجيب محفوظ بعيدا ، واعتذر عن عدم تجاوزه لمقامه بأن الحكيم والعشماوى وكلاء نيابة تعودوا لطبيعة عملهم أن يروا الجثث ، أما هو فيصعب عليه أن يحتمل رؤيتها . وكل من رأى الحكيم فى هذا الوقت وجده صلبا متماسكا ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بتماسكه طويلا ، فراح يؤنب نفسه ويلومها بأنه كان السبب فى قتل إبنه وطلب منه السماح والغفران .

البـابُ الثـانى

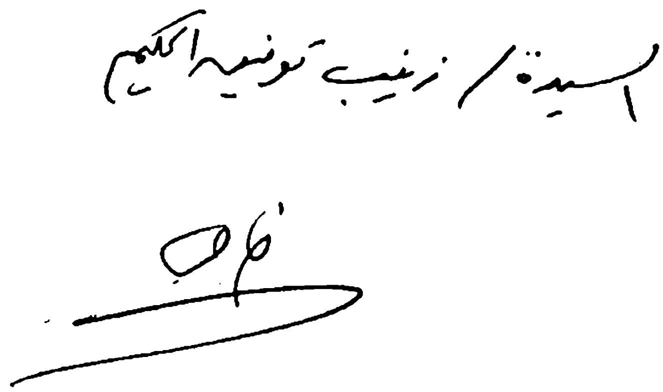
ثورة الشباب
والأحفاد

بنتي الوحيدة العزيزة سوزان
انا مشتاقة لك جدا جدا جدا ودائما في فكري كلما ذهبت الى اي مكان. وطبعا مشتاقة
الى احفادي الصغار حبايبي الاعزاء.

الفصل الأول

حفيدة إيزيس

(*)



- وتظنى أنه يجب أن تموتى لا سمح الله حتى أعرف قيمتك ؟!
- مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه !
- وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم !
- فذلك لكى أبرر للمسئولين عدم حضورى مجالس .. الثقافة !

(*) غلاف ظرف أحد الخطابات التى كتبها الحكيم لابنته .

كانت زينب كأخيها تتخذ قراراتها مع أمها ، وتنفذها بعيدة عن والدها ، فضلا عن أنها انسانة تعتز جداً بنفسها وآرائها ، وتثق فى قدرتها على اتخاذ القرار السليم ، فكانت تحسم أمورها بنفسها وتشكل حياتها كما تريد ، وحينماتزوجت لأول مرة وصفها ذات يوم فى تصميمها(*) بأنها مثل « إيزيس » ، بطلة أحد كتبه الذى أهداه لها قائلا :

إلى ابنتى زينب حفيدة إيزيس فى عيد ميلادها

١٧ أكتوبر ٨٦

توفيق الحكيم

* * *

وحينما تعارض استكمالها لدراساتها العليا مع تفرغها لبيتها وأولادها « مريم ، واسماعيل » ، احتكم زوجها « نبيل حسين » فى خلافه معها إلى والدها الحكيم الذى انحاز إلى وجهة نظره فى أن تتفرغ زوجته للبيت والأولاد .

(*) تنبأ توفيق الحكيم قبل زواجه فى مقال بأهرام ٢١ يناير ١٩٤٥ ، ببعض الصفات التى ستكون عليها ابنته بعد إنجابها إذا حدث وتزوج يومًا ، وقد صدق الواقع بعض هذه الصفات حين يقول « تجمح أحيانًا وتنفر وتحيد عما رسمته لها من إتجاهات ، وتحاورنى وتداورنى بمنطق عجيب يعجز عن تقديره تفكيرى العتيق ، إنها رفضت كل من تخيرت لها من أزواج أكفاء ، ووقعت فى غرام (........) وإنها لترجو أن أوافق على هذا الزواج ، إنها تتحدث عن الحب كأنه الأساس الوحيد لكل حياة زوجية فى عصرنا الحديث ، وأنها تزعم أن ذلك دليل نضوج الشخصية فى الإنسان ، وأن الزواج المبنى على الحب هو وحده الجدير بفرد فى مجتمع راق » .

ولكن الزوج شعر بخطئه الكبير عندما جعل زينب تمكث فى البيت ، واعترف للحكيم بأنه لو لم يفعل لاستمر زواجهما أكثر مما استمر .

وكان ما يهم الحكيم فى هذه المرحلة الحرجة من حياة ابنته هو الترتيب لحياتها فيما بعد وقوع الانفصال ، فطلب منها أن تنزل بشقته بالاسكندرية ، ولكن زينب أساءت فهم والدها الذى كانت تنتظر منه أن يطلب منها أن تكون معه بالقاهرة ليكون عونا لها وسندا فى مثل هذه الظروف ، ولذلك ظنت أن والدها أبعدها عنه فى وقت هى فى أشد ما تكون حاجة إليه ، ولكنها لم تستوعب وجهة نظر والدها الذى أرادها أن تتحمل مسئولية قراراها بنفسها ، وأن تواجه متطلبات حياتها الجديدة بما يناسبها ، فربما شعرت برغبتها فى العودة عن قرارها ، وبذلك يعفيها من الحرج فيما لو واتتها مثل هذه الرغبة وهى معه بالقاهرة ، فهى الآن لم تعد صغيرة ، وعليها أن تعتمد على نفسها ، لأن والدها لو عاش لها اليوم فقد يختفى عنها غداً ، والظروف مواتية للقدر ، وهو فى مثل هذه السن المتقدمة .

هذا هو تفكير الحكيم لابنته وهو يطلب منهاالانتقال لشقته بالاسكندرية ، فى وقت هى لم تفكر فيه كيف ستعيش بعد طلاقها .

ولما جاءت زينب فى زيارة والدهابعد أن هدأت واستقرت ، أوضاعها الجديدة ، لم يسألهاعماحدث . كيف ، ولماذا ؟ .

وإن كانت هى رغم ذلك قد أبقت على صداقة زوجها السابق من أجل أن تظل علاقته بأولادها موصولة غير مقطوعة ، يزورهم ويزورونه ، وتتشاور معه فى أى قرار يخصهم ويتعلق بحاضرهم ومستقبلهم ، مما جعل الحكيم يتعجب من هذه الطريقة التى تربى بها زينب أبناءها بالاشتراك مع زوجها الذى انفصلت عنه برغبتها ، ولذلك قال لها : إن طلاقها عجيب لم ير له مثيلا من قبل فقد تحول إلى فائدة للطرفين .

وإن كانت زينب لم تغلق الباب تماما أمام رغبة « نبيل » من أجل إعادة مياه الحياة الزوجية إلى مجاريها إذا ما ضمنت قدراً أكبر من التفاهم وتقارب الأمزجة وتوافق الطباع .

* * *

ورغم أن زينب كانت قد تزوجت مرة أخرى إلا أن زوجها قد فارقهاعلى غير رغبته ورغبتها ، فقد مات بعد سنة واحدة من دخوله بها ، رغم تمنيات الحكيم لهما بالسعادة الدائمة كما يقول اهداؤه له على كتابه « بجماليو ن » :

إلى ابنى محمد على حسن تهنئة بعيد ميلاده مع دوام السعادة له مع بنتى زوجته المخلصة وكل عام وأنتم بخير .

١٨ / ١١ / ١٩٨٤ والدكم

توفيق الحكيم

وفى عيد زواجهما الأول يهديهما « سجن العمر » قائلا :

إلى محمد على حسن وزوجته بنتى زينب حسين توفيق الحكيم تهنئة لهما بمرور عام على دخولهما سجن العمر المؤبد بإذن الله

١٥ مايو ١٩٨٥ والدهما

توفيق الحكيم

وكأنه يتنبأ بأنه لن يفرقهما إلا الموت ولكن الحياة جمعتهما مرة أخرى فى ابنهما « محمد » الذى ولد يتيما .

وبينما كانت الزوجة التكلى غارقة فى حزنها تتلقى العزاء ، كان والدها كعادته مشغولا بالترتيب لاستقرار ابنته بعد أن تجف الدموع ، فتحدث إلى إحدى شقيقاتها لكى تواسيها ، وتطمئنها ألا تشغل بالها بتدبير أمور

حياتها فقد أعد لها كل شئ . والتقطت زينب من حديث والدها ، وهى تودع المعزين :

هل فهمت ماستقولينه لها ؟

وشقيقتها ترد عليه : حاضر يابابا ، فتوقعت زينب أن والدها يتحدث فى شأنها بما لا يتعلق بما هى فيه من أحزان ، ولذلك عندما تحدثت إليها شقيقتها بما يريد أن يقوله لها أباها ، أخذتها العصبية بالغضب وهى تظن أن والدها لا يشعر بما هى فيه من آلام اليوم ، بينما هو مشغول بالغد ، فهل هى فى إيه واللا إيه ؟! ولكنها اعترفت بعد ذلك بأنه كان على صواب ، فلم يهمه وقتها المشاركة فى سرادق الأحزان ، بقدر ما كان يهمه ما بعد الأحزان ، وبعد أن اطمأن على الترتيب لحياة ابنته وأولادها ، راح يواسيها بما كانت تود سماعه منه وقت أن تفجر كيانها بمصابها .

وبعد أن أفاقت زينب من عواطفها لتفكر بعقلها اكتشفت أنها أساءت فهم والدها لأنها لم تعرفه كما يجب أن تعرف ابنة أباها ، وكيف تعرفه وتفهمه ، وهى لم تبدأ تلتصق به إلا فى سنواته الأخيرة ، خاصة بعد أن تزوجت أرملة ابنه اسماعيل ، فكان بحاجة إلى من يؤنس وحدته ، ولم يكن هناك سواها ، زينب ، التى بدأ يرسل إليها مجموعة من خطاباته ، التى يبثها فيها شوقه وحبه باعتبارها الوحيدة التى بقيت له من الدنيا ، ولم يعد يشعر إلا برغبته فى أن تكون معه دائما كما تدل على ذلك رسائله إليها .

فى خطابه إليها المؤرخ بغير ذكر السنه يحكى لإبنته عن موقفه من زواج أرملة ابنه وتظهر عليه روح الأب الذى لا ير جو لها إلا السعادة ، وهذا الخطاب يمثل مرحلة الانتقال بين مرحلتين .

يقول توفيق الحكيم :
باريس فى ٣ سبتمبر

بنتى العزيزة الحبيبة سوزى أكتب إليك هذا الخطاب السريع من باريس بعد أن ذهبت إلى مكتب ال **Air France** لأحجز مكان بالطائرة للعودة يوم السبت ١٥ سبتمبر فى الطائرة التى تصل مطار القاهرة حوالى الساعة تسعة ونصف مساء . واخترت يوم السبت وهو اليوم الذى تحضرون فيه عادة إلى القاهرة على أساس أن أجازة (٠٠٠٠٠) يوم الأحد .

هذا أما بقية المشوار فهى حكاية طويلة لابد أن أحكيهالك بنفسى بالتفصيل .

ولكن ملخصها انى عدت مع فوزى(**) من اليونان إلى باريس فى منتصف شهر أغسطس تقريبا واتصلت بهيدى فى التليفون فقالت لى إنها محتاجة ضرورى لحضورى لأقابل بكر وأحادثه لأنها أهم شئ عندها أن أوافق على الشخص . وفعلا وجدته فى غاية الأدب والتهذيب ووافقت ورأيت أن الأحسن الارتباط بالزواج فى أسرع وقت ، لأن أهلها كما فهمت موافقين ولا شئ يؤخرهم غير حرجهم منا نحن أسرة اسماعيل أن يتم شئ قبل السنوية . وهذا سر الدبلوماسية والتحفظ فى كلامهم معنا . فلما عرفوا أنى أقترح التعجيل بالزواج لأن مسألة السنوية لا تهمنا ونحن لسنا دقة قديمة .

(**) صديقه د . حسين فوزى .

فرحوا جدا وكان مونى فى لندن وكذلك أشرف ، وخصوصا أن أشرف أيضا سيتزوج الانجليزية صاحبته ولن يستطيع أن يبقى معه فى شقته الصغيرة أخته هيدى ولذلك ترك بكر شقته لهيدى ونام هو فى حجرة عند أصحاب الشقة فكان من الضرورى معالجة هذا الوضع بسرعة ليرتاح الجميع ولا نكون نحن أهل اسماعيل العقبة فى سبيل هذا الحل . ولذلك فرح الجميع بوقفى وعقدنا الزواج فى القنصلية وأنا أول الشهود باعتبارى فى مقام والدها . وبعد ذلك أى فى اليوم التالى تركت العروسين ورجعت أنا إلى باريس حيث صمم حسين فوزى أن أقيم معه فى شقته بدل الفندق لأنه وحده فيها بعد أن ذهبت زوجته المريضة إلى المصحة جنوب باريس . وهكذا سأبقى مع فوزى لحين قيام الطائرة **Air France** فى يوم ١٥ سبتمبر : وأراكم فى خير وعافية وسلامى وقبلاتى لك و(.........) وكذلك قبلاتى الكثيرة لسوسو (* * *) ومريم أعز الأحفاد .

والسلام لبقية الأسرة وبالأخص منصورة[1] وإلى اللقاء قريبا بإذن الله

أبوك الذى يحبك جداً

توفيق

* * *

وفى خطاب يرسله الحكيم إلى زينب مع « بشير » – الطباخ – يحدد لها فيه الموعد الذى يمكنها الحضور فيه لاصطحابه للاصطياف بجوارها فى الاسكندرية .

وعلى ورقة متوسطة الحجم يميل لونها إلى الصفرة ، ولا ندرى من أى نوعية من الورق كان يختارها الحكيم ليكتب عليهاخطاباته .

(***) حفيده إسماعيل

(١) مديرة بيته ولها فصل خاص بعنوان « الكيك لفطور العصافير » .

يقول فى خطابه غير المؤرخ بسنة وإن كان قد حدد بداخله اليوم والتاريخ :

بنتى الوحيدة العزيزة

أرسل هذا الخطاب مع بشير وأرجو أن يكون فيه البركة لك ويقوم بشغلك على أحسن وجه خصوصا وأنت الآن ضيوفك وشغلك فى البيت أصبح كثير وأصبح ضرورى من طباخ لكل ذلك .

وهذا واعملى ترتيبك على أن حضورنا أنا ومنصورة ان شاء الله يكون فى ميعاد يناسبكم وأظن أن الذى يناسبكم للحضور لأخذنا يوم أحد . وربما كان المناسب لكم ولناهو يوم الأحد ٢٧ يونية . فأخبرونا على كل حال أن هذا اليوم تحضرون فيه لأخذنا حتى نجهز كل شئ للحضور عندكم ونكون مع بعض فى أحسن صحة وعافية وخير وسرور .

وقبلاتى لك وللأولاد والجميع والسلام ، والدك

* * *

وكلما سافر الحكيم إلى الخارج يشعر بشوق أكثر إلى ابنته زينب التى يناديها بـ « سوزى » بطلته فى « عصفور من الشرق » ويبدى شعوره بالوحشة لها وللعفاريت أحفاده ويحكى لها عما فعله فى العاصمة الأسبانية والفرنسية ، ويأخذ منه حديث الغلاء جانبا مهمًا ولكنه يواسى نفسه بأنه « لابد من الصبر واحتمال هذا الكرب » .

وفى خطابه المكون من صفحتين كبيرتين على ورق أبيض هذه المرة إذ يبدو أن باريس ليس بها ذلك النوع الذى يستعمله فى مصر ، وكعادته فى أغلب الأحيان يسجل تاريخ اليوم والشهر ولا يهتم بالتأريخ بالسنة .

يقول توفيق الحكيم : ٩ يوليو

بنتى الوحيدة العزيزة سوزى

أنا مشتاق لك جدا جدا جدا ودائما فى فكرى كلما ذهبت إلى أى مكان .

وطبعا مشتاق إلى أحفادى العفاريت الكتاكيت الأعزاء (........) أنا سافرت من مصر مع الوفد لحضور مؤتمر فى مدريد بأسبانيا وقد استقبلنا السفير المصرى هناك أحسن استقبال وعمل باسمى حفلة حضرتها كل الوفود فى أفخر لوكاندة بمدريد . جزاه الله خيرا . وهو من أسرة عبد الغفار وابن أخ شمس الدين باشا عبد الغفار صديقى الحميم رحمة الله عليه . وقد رأينا فى أسبانيا أشياء عظيمة أخبرك بها عند حضورى إن شاء الله . حتى مصارعة الثيران المشهورة فى أسبانيا حضرنا حفلتها وشاهدنا كيف يصارع الفارس على ظهر حصانه الثور الهائج وينتهى بقتله . منظر مثير . أما المتاحف التى تعرض أهم آثار الفن الخالد مثل متحف البرادو المشهور فطبعا زرناه .. وزرنا مدينة توليدو أو بالعربى طليطلة وهى مرتفعة على جبل ... ونحو ذلك كثير . ثم ذهبنا إلى باريس وطبعا أنا نزلت حتى الآن فى شقة صديق العمر الدكتور حسين فوزى . وفى باريس لى نشاط ثقافى مستمر فقد أخذوا منى هنا فى أهم برنامج راديو وهو **France Culture** حديثا طويلا سيذاع هنا بإذن الله فى يوم ١٧ يوليه . وكذلك خلال هذا الأسبوع سيكون لى حديث آخر فى التليفزيون الفرنسى لم يحدد بعد ميعاده . هذا بخلاف حضورى تمثيل مسرحيتى « شهر زاد » .. وكان تمثيلها وإخراجها لا بأس به وقد أعجب الكثير من الحاضرين .

وهنا كثير من المشروعات الثقافية والفنية معروضة علىَّ .. ولذلك أظن

حضورى إلى مصر يمكن أن يتحدد قبل آخر الشهر . وفى الغالب أوائل أغسطس بإذن الله .

وبالطبع سأخطركم تلغرافيا عند تحديد أى موعد للحضور (.................)

بالطبع . هذا وقد أخبرنى أحد كبار المسئولين فى السفارة المصرية بباريس أن سيدة تريد مقابلتى لأنها صديقة بنتى سوزى وقال ان اسمها « دينا » ففهمت أنها صاحبتك وزميلتك فى الدراسة بالكلية فى اسكندرية وانت وهى دائما معا فى المذاكرة . ولم يتحدد بعد موعد المقابلة . وهى كما علمت جاءت باريس فى بعثة فى السوربون وجاء معها زوجها بعد أن نقلوه إلى باريس فى وظيفة لم أفهم جيدا ماهى ؟ وجاء بالطبع معها أطفالها . يعنى هى الآن مع عائلتها بالكامل فى باريس أى مع زوجها وأولادها . أما باريس فهى غالية نار ولا يمكن تناول أى غداء بأى مطعم بأقل من خمسة جنيه مصرى . وأنا وحسين فوزى إذا أردنا أن نأكل أكلة معقولة شوية لا يمكن بأقل من عشرين جنيه مصرى لشخصين فقط . والحمد لله أن السكن فى باريس مجانا لأن شقة حسين فوزى نعمه من الله . والبركة للمرحومة زوجته التى كانت اشترت هذه الشقة . ألف رحمة عليها . ولولا الشقة المجانية لما أمكن المعيشة فى باريس بأقل من خمسين أو ستين جنيه مصرى فى اليوم الواحد للشخص الواحد . وكل الناس من المصريين هنا الزائرين ساخطين على هذا الغلاء الشنيع . ولولا بعض مشروعاتى الأدبية لكنت حضرت بسرعة وجلست كالعادة فى قهوة الكورنيش فى ندوتى مع الأصدقاء مثل كل صيف . ولكن لابد من الصبر هذا الشهر كله واحتمال هذا الكرب . والآن أنا فى الغربة أشعر بأنى لم يبق لى فى الدنيا عائلة سواك أنت فقط ياسوزى (وطبعا ومعك أولادك أحفادى وزوجك الكريم (...) وهذا الشعور جعلنى أندم كيف جعلتك تشكين فى حقيقة ضرورتك

لى وتظنى أنه يجب أن تموتى لاسمح الله حتى أعرف قيمتك !.. أنا الآن أعرف قيمتك وضرورتك لى لا فقط بالعواطف والكلام الرقيق الفارغ بل بالواقع الحى والحقيقة الواقعة . وهذه الحقيقة هى أنك باختصار كل شئ أملكه وبقى لى فى الدنيا . وهل توجد حقيقة أخرى غير هذه : إنك بنتى الوحيدة العزيزة والباقى كله كلام فى كلام . ولك وحدك كل ما فى قلبى وفكرى من حب وحنان يمكن أن يعطيه أب لبنته الوحيدة فى الدنيا . أرجو أن تكونى مجتهدة (.....) . لأنها فى الحقيقة كل مستقبلك . وأنا واثق بإذن الله تعالى من نجاحك فيها .

وسلامى لمنصورة ولعبد المجيد[1] .

وقبلاتى لك ولأحفادى ولزوجك (.....) وإلى اللقاء فى أوائل الشهر القادم بإذن الله وسأخبركم تلغرافيا والسلام ،

والدك

توفيق

* * *

ويستمر الحكيم فى اقترابه من ابنته الوحيدة ، متخذا فى ذلك عدة خطوات عملية ، حددها فى بندين ، الأول يمنحها شيك بخمسة آلاف جنيه لكى تشترى سيارة تساعدها فى تنقلاتها ، والبند الثانى هو نصيحتها وأولادها بعدم الإسراف وإلا (فالويل لهم فى المستقبل)

---

(١) هو مدير الأرض التى ورثها الحكيم عن والدته وسوف يأتى الحديث عنه فى فصل « فلاح عودة الوعى » .

يقول توفيق الحكيم :

بنتى العزيزة

١ - مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه هو ما استطعت جمعه لك - ولم يبق فى رصيدى بالبنك بعد الضرائب شئ يذكر - لشراء سيارة صغيرة لتنقلاتك . على أن تكونى شجاعة وتسوقيها بنفسك ولا تحتاجى إلى الالتجاء إلى أى شخص ليسوقها لك . فإنى أرى فى الشوارع بنات فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة يسقن سياراتهن بمفردهن فى شجاعة وعدم خوف مادام القيادة فى حدود العقل والأصول وعدم التهور .

وإياك أن يسوق لك أى شخص آخر . اعتمدى على نفسك وعلى الله تعالى

٢ - أرجوك رجاء ملحا شديدا هو أن تنصحى أولادك بعدم الاسراف وأن تصرحى لهم بكل شئ .. وأن الدنيا ارتفاع وانخفاض . وغنى وإفلاس ... (....) ولذلك يجب أن يلموا نفسهم من الطلبات فالمستقبل غير مضمون ..

ولذلك شطب « الفيديو » كلية من بيتكم وكفاية التليفزيون مثلى أنا ... ولذلك عدم المطالبة بالملابس الغالية والمصروف الزائد . يجب أن تفهميهم الحقيقة (.......) والدنيا دائما متغيرة وعليهم أن يفهموا ذلك ويستعدوا له لأن الحياة لن تكون دائما كما تعودوا من بحبحة وإسراف ... وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم فى المستقبل والخطأ سيكون أنت المسئولة لعدم إفهام الأولاد حقيقة الموقف ... وأدعو لكم بالصبر ورحمة الله بكم ، والدك

* * *

● وفى نفس الخطاب يحرص الحكيم على أن يكتب فى الهامش الأعلى بخط رأسى مائل بلون آخر غير لون القلم الذى كتب به رسالته لابنته ، موجها الحديث إلى حفيدته مريم ليشركها مع أمها فى المسئولية فيقول :

حفيدتى مريم العزيزة اقرئى هذا الجواب وخدى بالك كويس من أمك الوحيدة وساعديها فى البيت .

جدك الذى يحبك

توفيق

* * *

وفى خطاب يبدو أساسا أنه متعلق بشئون الأحفاد وصحتهم ، إلا أنه فى جوهره يبدو مثيرا للغاية ، ففيه يكشف الحكيم عن سر بعض كتاباته التى تحمل روح اليأس والتشاؤم ، لكى يبرر للمسئولين فى المجالس التى هو عضو فيها ، عدم حضوره ومشاركته فى نشاطاتها ،

يقول توفيق الحكيم :

٣٠ شهر ابريل

بنتى الوحيدة العزيزة سوزى

انت وحشيتنى جداً جداً جداً .. وكذلك الأولاد (....) وأرجو أن يكون سوسو(١) فى صحة جيدة . وكذلك مريم واللوز عندها تكون عادية . وأرسل لك قصاصة جرنال عن مرض الأطفال باللوز .

وعدم الاستعجال فى ازالتها إلا بعد استشارة خبير اختصاصى واحد أو اثنين أو أكثر فإذا اتفقوا كلهم بدون تردد ممكن ولكن إذا تردد واحد منهم فلا لزوم والمهم معالجة الالتهاب بسرعة .. لأننا كلنا ونحن صغار

---

(١) اسم الدلع لحفيده إسماعيل .

كانت اللوز تتعبنا دايما لغاية ما كبرنا .. واسماعيل كان كده . هذا واظنك انزعجتى للمنشور فى أخبار اليوم عن الموت والرغبة فى العزلة وعدم ازعاج راحتى فذلك لكى أبرر للمسئولين عدم حضورى فى المجالس .

فأنا لا أحضر أبداً مجلس الشورى ولا مجالس الثقافة أو المجالس المتخصصة مع أنى عضو فيها كلها . ولذلك أحتج لهم بحالتى الصحية والنفسية وموت الزوجة والولد حتى لا يفتكروا إنى متباعد عنهم بدون سبب . كل ما عندى هو القرف العمومى . فأنا قرفان من كل شئ . حتى السفر إلى الخارج . فأنا غير مشتاق له ولذلك أفضل كثيرا أن أكون معك أنت ومع الأولاد فى الصيف . وكلها شهر أو أكثر أى فى يونيه إن شاء الله أكون عندكم بإذن الله وامشى كل يوم على الكورنيش . أحسن رياضة المشى أمام البحر . وانت خدى بالك من نفسك . وأنا بخير وكذلك منصورة . ونحن فى انتظار اللقاء القريب بإذن الله . ولك قبلاتى بالألوف وأنا ليس لى الآن غيرك انت وحدك فحافظى على نفسك ،

والدك توفيق

* * *

وفى ملحق للخطاب السابق يبدى الحكيم فرحه لنجاح حفيديه ، ولكنه يتساءل عن أسباب التطور الذى لحق بابنته ، وذلك تعليقا على الأخبار التى وصلته عن عزمها على صيام شهر رمضان .

يقول توفيق الحكيم :

٢٥ مايو

بنتى الوحيدة سوزى

كنت كتبت هذا الخطاب فى الشهر الماضى ابريل وكان شقيق منصورة موجود وكتبت الخطاب إليك ليحمله معه ولكنه سافر من بره بره وبقى

الخطاب (شهر ابريل) موجود عندى لغاية ما حضرت أخت منصورة وابنها أمس فكتبت هذا الملحق (مايو) مع الخطاب السابق (ابريل) . وأكرر إنك وحشتينى جداً جداً جداً . والحمد لله إن الشهر القادم (يونيه) قريب وأحضر لكم إن شاء الله . وسأخبركم طبعا بالميعاد المضبوط لتحضروا وتأخذونا أنا ومنصورة وفى ال غالب فى أواخر يونيه إن شاء الله أى بعد شهر واحد بالضبط بإذن الله تعالى . وأخبرتنا أخت منصورة بأخباركم وفرحنا لنجاح مريم وسوسو ... أما أنت فقد سرنى أنك أصبحت مستشيخة وناوية تصومى رمضان ولكنى مش عارف أسباب هذا التطور . المهم إنه حاجة كويسة . وأملى كله أن تكونى أنت وأولادك (.....) فى أحسن صحة وعافية وأن نجتمع كلنا مع بعض فى سرور وهناء بإذن الله تعالى .

والدك الذى ليس له
غيرك انت فقط فى هذه الحياة
مع ملايين القبلات

* * *

وبدأت عجلة الاقتراب والالتقاء بين الأب وابنته تدور بسرعة ، فبدأت زينب تزوره ثلاث أيام كل أسبوع ، ولكنها لم تكن تحدثه عن شيء من حياتها الخاصة ولا تشركه فى حل مشاكلها ولا تدعوه لمعرفة أى شيء عنها ، رغم أنها تعرف أن أمرها يهمه ، وأمره يهمها ، ومع ذلك لم يحدث الافضاء بينهما إلا حينما بدأت مسيرته مع المرض ، فكان وجود زينب بجواره أمرا ضروريا يحتاج إليه شيخ فى مثل عمره ، صحيح أنه اعتاد الوحدة ولم يعد يخشاها ، ولكن من الذى يستطيع أن يسعفه بالطبيب إذا

حدث له مكروه ، ومع ذلك لم يشأ الحكيم مع رغبته فى أن تعيش ابنته وأولادها معه ، بعد رحيل زوجها ، أن يفرض عليها هذه الرغبة ، فتلك حريتها ، وما يريحها تفعله ، ولذلك أراد أن يأتى استقرارها معه بإرادتها وقرارها ، وفضلا عن حاجة الحكيم إليها ، فقد كان قلقا على معيشتها وحدها وأحفاده بدون رجل يستندون إليه ، بل إنه كان يخشى عليها من مشقة السفر من الاسكندرية إلى القاهرة حينما كانت تقوم بالتردد عليه ، وإذا أخبرته بموعد حضورها فى يوم معين يظل مؤرقا حتى تجىء ، ورغم أنها فى بعض الأحيان لا تكون واثقة من أمر سفرها فتقول له إنها يمكن تأتى فى اليوم الفلانى ، فإنه يظل مشغول البال والخاطر لا يعرف طعما للنوم طوال الليل ، ويشكو فى الصباح إلى مديرة بيته وعلامات الضيق بادية عليه : هل رأيت يا منصورة ما فعلته سوزى مما جعلنى لا أنام طوال الليل ؟

فتطمئنه وتهدى خاطره : معلهش يمكن الست سوزى لها ظروف منعتها إنها تحضر وهى ضرورى ستتصل بك لتطمئنك .

وتهاتفه زينب تليفونيا بالفعل وتخبره بعذرها الذى حال بينها وبين زيارتها .

ورغم هذا القلق من الحكيم على ابنته فى ابتعادها عنه ببلد آخر تطول المسافة إليه ، فإنها ذات مرة وكانت تزوره وأحفاده ، قال لها : لم أعد أريدكم .. سافرى أنت والأولاد » .

بل إنه أهداها كتابه (ثورة الشباب .. قضية القرن الواحد والعشرين) فكتب إليها يقول :

إلى بنتى المتعبة المزعجة لكى تتلهى فى قراءة هذا الكتاب وتتركنى فى هدوء وعقبال كل كتاب آخر يقوم بهذه المهمة ،

١٢ / ٣ / ١٩٨٤ والدك

وبعد أن تسافر يأتيها من يقول لها :

باباكى حالته الصحية غير مطمئنة . فتعود إليه ، ولما تذكره بأنه هو الذى طلب منها أن تتركه وتسافر ، يقول لها مستنكرا :

أنا قلت لك كلام بهذا الشكل ؟ وكيف أقوله ؟.. البيت بيتك وأنا ضيف عندك ، ويوم أن أغضبك وأقول لك كلاما كهذا قولى لى : خذ شنطتك وروح اقعد فى بنسيون .. إذا كان الحال لا يعجبك امشى . ويضيف مؤكدا : إن هذا هو بيتك أنت . لأننى إذا عشت اليوم فلن أعيش غدا .

وينكر الحكيم ويستنكر أنه قال لابنته « سافرى » ، فهو يريدها معه ، ولكنه فى نفس الوقت لا يريد أن يفرض رغبته عليها ، إنه يقدر حريتها ، فهذه مسألة تهم الحكيم كثيرا ، وهى أن يشعره الطرف الآخر أنه لا يفعل شيئا من أجله إلا باقتناع ، وأنه لا يفعله لمصلحة الحكيم ، بل لمصلحة الشخص نفسه ، لأن الحكيم لا يريد أن يشعر يوما أنه يمثل عبئا على أحد حتى لو كان ابنته ، لذلك جاء ارتياحه عندما وجد زينب تبدى رغبتها باختيارها أن تعيش مع والدها بشقته فى القاهرة ، لتتحول حياته بعد ذلك عن مسارها المعتاد بفارق مائة وثمانون درجة .

الفصل الثانى

أحاديث المائدة

- لو كنت وزيرا للمالية
لشطبت نصف ميزانية الدولة .
- فقال له الشيخ الشعراوى أنه لم يقرأ أحاديثه
مع الله !
- مكافأة ألف جنيه للتوقف عن التدخين !
- ابنتى راقصة ؟ وسمعتى ؟
- شغالة بمرتب أكثر من معاش شيخ الكتاب !
- إنت عايزة تبيعى بلدك ؟!

مع وجود زينب بجوار الحكيم بصفة نهائية بدأ يمارس معها مسئوليات الأبوة التى لم يحس بها ، أولم يعطها الاحساس بها فى طفولتها رغم أنه صاحب تسميتها تيمنا بحفيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان رافضا لوجودها أساسا فى الحياة قبل أن تولد ، مكتفيا بابنتى زوجته ، وابنه اسماعيل الذى جاء على غير رغبة منه ، وعندما حملت زوجته مرة أخرى طلب منها أن تجهض نفسها ، وحينما استعدت لتنفيذ رغبته والذهاب إلى الطبيب ، قام بإغلاق الباب ليحول دون نزولها ، ووقف يمنعها معلنا تراجعه ، فقد تذكر أنه لم يكن يريد أن ينجب إلا أبطاله على الورق ، واطمئن فى ذلك إلى اعوجاج رحم الزوجة ، ولكن إرادة الله شاءت أن يعتدل الرحم وتحمل الزوجة وتنجب اسماعيل الذى لم يكن والده مرحبا بوجوده ، وهو لا يريد أن يقف هذه المرة موقفا جديدا فاشلا أمام المشيئة الإلهية التى هو أضعف من أن يتحداها بمشيئته البشرية ، ولذلك استسلم راضيا بقدر الله ، وطلب من زوجته أن تبقى على حملها ، فأتت زينب ، وكأنها الجزاء الذى ادخره الله لمكافأة الحكيم لاستسلامه لإرادته لتكون سنده وركنه الأمين فى سنواته الأخيرة بعد أن رحلت الزوجة ولحق بها الابن ، فكانت زينب هى ملاذه فى مرضه تطببه وتسهر على رعايته ، وتتابع مواعيد تناوله الأدوية بانتظام .

ولم تفارقه طوال فترة وجوده بالمستشفى ، التى كان مديرها يداعبها ويقول لها :

أنت لك أربعة أولاد .. مريم واسماعيل ومحمد وتوفيق الحكيم . واعتبرها الطبيب واحدة من الممرضات ، لدرجة أنه قبل حصوله على

أجازته الأسبوعية كان يوصيها مداعبا : سأترك المستشفى أمانة فى عنقك !

وصارت زينب وأبيها جزءا من مستشفى المقاولون العرب ، وكان الأطباء يتسامرون مع الحكيم ويتناقشون معه فى كافة الموضوعات ، وأراد الحكيم أن يمارس حياته الطبيعية فحاول التمرد على تعليمات الأطباء الذين منعوه من وضع الملح على الطعام ، فيشكو لابنته أن تحضر له ملحاً من البيت ، ولكنها محافظة على صحته كانت تتحجج له فى كل مرة أنها نسيت ، حتى كف عن الشكوى ، واكتشفت أنه غافلها ذات مرة عندما تناولت معه الطعام بالمستشفى وأحضروا لها « الملاحة » على صينيتها ، فأخفاها الحكيم داخل ملابسه ، وظل يضع منها على طعامه الخالى من الملح ، دون أن يدرى أحد ، حتى ضبطته ابنته متلبسا فانتزعتها منه ، وقد تكرر مثل هذا الموقف أكثر من مرة ، حينما كان يأخذ الملاحة من على صينيتها ويشغلها بالكلام ، إلى أن استطاعت أن تنهى هذه اللعبة ، فكان يترك طعامه ويأكل طعامها ، ولما بدأت تعترض ، بدأ هو يطلب طعاما من خارج المستشفى ، ولما أحس الأطباء بتحسن صحته سمحوا له بممارسة حياته الطبيعية ، وتخليدا لذكرى وجود الحكيم بمستشفى المقاولون ، وضع اسمه على الجناح الذى كان يعالج به ، كما علقت صورته بجوار اسم « الجلالة » ، ورغم أن الحكيم خلال فترات مرضه المتقطعة قد دخل أكثر من مستشفى ، إلا أن حنينه إلى المستشفى الأول جعله يطلب أن يعود إليه ، ولكنه انزعج أشد الانزعاج عندما لم يجد اللوحة المشرفة باسم الجلالة ، فأتوا له بها ، صحيح أنها لم تكن نفس اللوحة ، ولكن الحكيم شعر بارتياح عند عودة اسم « الله » إلى حجرته بالمستشفى ، وظلت عينه معلقة عليه لمدة نصف ساعة ، وكأنه يناجى ربه فى صمت هذه المرة ، فقد تعلم الدرس من مناجاته المنشورة فى أحاديثه مع الله ، والتى أثارت عليه

ضجة بدأها الشيخ الشعراوى متهما إياه بالضلالة ، إلى أن دخل الحكيم المستشفى وأعلن رغبته فى أن يزوره الشيخ الشعراوى معللا ذلك بأنه رآه فى منامه ، ولما زاره الشيخ أخبره الحكيم أنه فى مناجاة دائمة مع الله فلم يعد له إلا هو .

فقال له الشيخ الشعراوى إنه لم يقرأ مقالاته فى الأهرام حرفيا لكن بعض الصحفيين الذين يثق فيهم نقل مضمونها إليه . وتصالح الشيخ والحكيم ، وصلى الشعراوى عنده وقتا فاجأه موعده ، وأهداه سجادة للصلاة ، وقالب طوب ليتيمم عليه حين لا يستطيع صحيا أن يتوضأ بالماء ، وخرج الحكيم من المستشفى ، ولكنه ظل على موعد معها بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن تنشغل به ابنته طوال الوقت ، إلى درجة أن أبناءها حاولوا أن يلفتوها إليهم صراحة حينما قالوا لها : نحن أولادك » .

فتقول لهم :

أنا ممكن أنجب مريم أخرى واسماعيل جديد ومحمداً آخر ، لكننى لا يمكن أن أصنع أبا جديدا .. وغداً عندما تكبرون سوف تحسون بنفس الاحساس وهو أنكم لا يمكن أن تعوضونى كأم لكنكم يمكنكم أن تعوضوا أولادكم .. وما لم أعطه لكم اليوم سأعطيه لكم غدا أو بعد غد .. فالحياة أما مكم ممتدة .. لكن جدكم إن لم أعطه اليوم فقد لا أجده غدا .. إنه الآن مكسبى فى الحياة .. لقد أعطانا ولم نعطه شيئا .. لقد تحملنا كثيرا بمشاكلنا ورغم ذلك فقد جعل نفسه المذنب فى النهاية » !

تحاول زينب أن تشعر أبناءها أن ما تقوم به نحو جدهم هو أقل واجب من الابنة نحو أبيها ، وأن ذلك لا يجعلهم يحسون إلا بكل الرضى فله ديون فى رقبتها كإبنته ، ومهما فعلت فلن ترد شيئا مما له عليها ، وهى محاولة من الأم لأن ترسم صورة مثالية لجدهم ليكونوا فى المستقبل على مثال تلك الصورة مع أبنائهم حينما يكبرون ويكون هم أبناء ، فلا بأس

من محاولة تجميل صورة « الجد » من أجل هدف تربوى ، فليس مطلوباً التحدث عن رب الأسرة بمساوئه فذلك شيء غير مرغوب فيه ولا ضرورة له إلا تكريس الكراهية والأحقاد مما ليس له داع ، ثم إن الأم لا تجمل صورة أبيها أمام أحفاده بغير ظل من الحقيقة فقد تنبه إلى حقوق أبنائه ، صحيح أن ذلك جاء متأخراً ولكن يكفى أنه تنبه ، يكفى أنه اعترف بخطئه وأقر بذنبه ، ولكن ألم يكن يبدى رأيه فى أمور حياتها ولكنها كانت تتصرف برأيها هى ، فحينما كان الحكيم منعزلاً عن أبنائه كان يعاب ، وحين رفع جدران العزلة كان جزاؤه التمرد عليه فهل كان يعرف بذلك حينما عزل نفسه عن أولاده ؟ لقد كان رغم تحرره الفكرى والعقلى غير متحرر معهم ، فلم يداعب أحداً منهم أو يأخذه إلى فسحة فى حديقة ، أو يصحبه للترفيه بمشاهدة مسرحية أو فيلم ، بل حتى حينما كانت الأسرة تنتقل إلى المصيف فى الإسكندرية كان سجين طباعه ، فمن الصباح إلى ما بعد الظهر حتى الساعة الثانية كان يقضى الوقت مع أصحابه بقهوة « بترو » ثم يعود ليتناول غداءه ثم ينام بعض الوقت ليقوم وليتناول الشاى وحده فى شرفة المنزل « بالبلكونة » ويغرق فى تأملاته .

ورغم دخول التليفزيون فى مصر فى أوائل الستينات وكان من المنتظر أن يلتف أمامه الأبناء حول أبيهم ، كما يحدث فى كل البيوت التى فيها تليفزيون ، إلا أن الحكيم كان يفضل العزلة فى أغلب الأحيان جالساً أمام جهاز تليفزيون آخر غير الذى تشاهده الأسرة ، ولم يكن يجتمع معهم إلا إلى طعام أو حينما يجتمع الأبناء والأزواج والزوجات والأحفاد فكان وجوده بينهم رمزاً لسيد البيت الكبير ولكنه لم يشرك أحداً معه فى شيء من أموره خاصة أبناءه لأنه كان كتوماً ، ولأن فارق السن بينه وبينهم كان كبيراً لدخوله دنيا الزواج متأخراً ، فكان يرى أبناءه أقل مستوى من أن يجلس معهم أو يناقشهم ، كما أن الحاجز الذى نشأ بينه وبينهم بحكم عزلته مع

فنه لم يكن يشجعهم على أن يتحدثوا معه إلا فى القليل النادر ، فقد كانت أمهم تتكفل بكل شىء ، فأشعرتهم بالأمومة والأبوة فى وقت واحد ، مع فقدهم الشعور بأبوة الحكيم لهم ، وكذلك كان هو أيضا يشعر بذلك الشعور ، ولم يحاول أن يشعر نفسه أو يشعرهم بأبوته إلا فى مرحلة متأخرة بعد أن فات أوان حاجتهم إلى الأبوة ، وكانت العزلة التى فرضها الحكيم على نفسه قد انعكست على أبنائه فلا أحد يزورهم ولا هم يزورون أحداً فعاشوا فى عزلة اجتماعية عن الناس والمجتمع حتى عندما تجرأت ابنته زينب فى طفولتها وخرجت مع بنات خالتها إلى السينما غضب عليها والدها وضربها ، ورغم أن ضربه من النوع الخفيف الذى لا يسبب ألماً ، إلا أنه مجرد رمز لإشعارها بخطئها لأنها لم تصحب معها المربية ، ولكن الطفلة خاصمت والدها لمدة عشرة أيام ولم يتنبه لذلك إلا بعد أن لاحظ انزواءها عنه وعدم ظهورها أمامه كلما أراد أن يطمئن على تواجد جميع أفراد الأسرة . وأن لا أحداً قد غاب هنا أو هناك ، مجرد اطمئنان على من يرتبطون به وأنه لم يشرد فرد منهم من قلعة أسرته المنعزلة ، وكان عجيباً أن يصالح الحكيم بنفسه طفلته التى خاصمته ، ويبدو أنها تعودت على ذلك حتى بعدما كبرت وصار لها أولاد .

ورغم حاجز الرهبة الذى كان بين الحكيم وأبنائه إلا أنه فى تلك المرات القليلة التى يدخل فيها طرفاً فى حوار أو مناقشة تتعلق بأمر من أمور أولاده كان يتبع معهم أسلوب ديمقراطية الحوار بلا يخيفهم أو يرهبهم أو يفرض عليهم رأياً بل يدع متحدثه يقول كل ما عنده ثم يدلى بنصيحته له ويترك له حرية الاختيار دون ضغط كما فعل مع ابنه اسماعيل الذى اختار طريق الموسيقى رغم رغبة والده ليكون مهندساً ، وكما فعلت ابنته زينب فى حياتها ، ومع ذلك فهو لم يعطها الإحساس بأنها أخطأت ، ويجب أن تتحمل مسئوليتها وحدها ، بل إنه تحمل معها مسئولية فشل زواجها ، وما

ترتب على وفاة زوجها الآخر ، من مشاكل ، ومع ذلك لم يكن يجب أن يجبرها على شئ يراه هو صحيحا وأنسب لها من أى شيء آخر ، حدث مثل ذلك بعد حصول زينب على الثانوية العامة بتفوق ورأت أمها أن تقدم ابنتها أوراقها إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رغم رغبة زينب فى دخول كلية الآداب ، ولكنها أطاعت أمها ، وعندما علم أباها بالمجموع الكبير الذى حصلت عليه فى الثانوية العامة قال لها : لم أكن أعرف إنك شاطرة إلى هذا الحد .. أصل انت دحيحة » ! ولم ينصحها بدخول الآداب ، ولكن زينب لم تستطع الاستمرار بكلية الاقتصاد التى لم تكن مقنعة بها ، فتقدمت إلى كلية الآداب قسم فرنساوى ، ووجد ذلك الاختيار ، ارتياحاً لدى والدها الذى بشرها بأنها سوف تنجح وتتفوق ماد امت قد اختارت الدراسة التى توافق رغبتها ، وشجعها إلى درجة أنه كان يأتى لها بالكتب الفرنسية من باريس ، وكان يأخذ أبحاثها ليعرضها على المختصين ، وكانت لديه رغبته فى أن تستكمل دراساتها العليا ، ولكن حينها تعارض ذلك مع حاجة بيتها وأسرتها - وكانت قد تزوجت - وقف إلى جانب زوجها فى أن البيت أولى وأحق بالرعاية .

ومن الغريب أن الحكيم هو نفسه الذى كان يحث ابنته على العمل وكان يقول لها بعد أن استقر بها المقام بجواره فى القاهرة : إنه لا توجد سيدة مثلهاتجلس فى البيت مضيعة حياتها بين جدرانه ، وإلا فما فائدة الشهادات التى حصلت عليها .. هل كان ذلك من أجل وضعها فى الدولاب ؟!. ويضرب لها مثالاً بمن حولها ، ويقول لها أنها أفضل منهن بكثير ، وأنها بعملها ستكون شيئا ذا قيمة .

ولكن عندما تأتى زينب لتضع النقط فوق الحروف ، وتستعرض مع والدها أنواع العمل الذى يصلح لها ، يتردد الحكيم ويتراجع ويأتى لها بقصاصات عمود « مجرد رأى » بصحيفة الأهرام ، والذى قاد فيه كاتبه

الصحفى صلاح منتصر حملة يرجح فيها أسباب عودة المرأة إلى البيت ، فتسأل زينب والدها: إذن ولماذا يشجعها على العمل؟، ومن غير أن يجيب تفهم أنه يريد ألا تأتى يوماً له تطلب العمل خارج البيت ، إنه يحثها على العمل رغم أنه يعلم تماماً أنها فى هذه الفترة بالذات من حياتها لا تستطيع أن تترك أولادها ، ولكنها تجارى والدها فتبدى استعدادها للعمل .. وهنا يسقط فى يده فيضع أمامها مائة سبب وسبب يرجح وجودها فى البيت على عملها خارجه ، فهى لو خرجت للعمل فستحتاج إلى مربية ، والمربية إن أعطت الأولاد طعاماً وشراباً فإنها لن تعطيهم الاهتمام والحب والحنان الذى لا تعطيه إلا الأم التى إن انشغلت بعملها فلن يكون لديها وقت تعطيه لأولادها ، فستعود بعد الظهر منهكة القوى .. فمن يتابع الأولاد فى مذاكرتهم ويوجههم فى حياتهم ؟. ويتابع الحكيم نصائحه لابنته مبينا لها أضرار خروجها إلى العمل : فستغيب ابنتك عنك وستقع فى أخطاء لبعدك عنها .. والولد ربما يقع مع أولاد السوء فيشرب سجائر .. ثم من يذاكر للأولاد ويتابع تقدمهم أو تأخرهم فى الدراسة .. إنهم بحاجة إلى تواجدك المستمر معهم خاصة أن لديك فتاة فى سن المراهقة وولداً على أبواب الدخول فى هذه السن .. ولديك طفل يحتاج إلى رعايتك وحنانك .. فلمن تتركينهم » ؟

كانت معارضة الحكيم إذن لابنته زينب فى أن تعمل ليست معارضة لفكرة العمل فى حد ذاتها وإنما لفكرة أن العمل لا يتناسب مع كونها أماً ، فما يحتاجه العمل من جهدها ووقتها يحتاجه أولادها ، أما حينما لم تكن زينب مشغولة سوى بنفسها فإنه لم يمانع فى عملها وإن كان قد تردد فى البداية ، مثلما حدث عندما كانت طالبة فى كلية الاقتصاد قبل أن تتركها إلى الآداب ، حيث كانت تعمل فى أجازة نصف السنة بأحد أجنحة معرض القاهرة الدولى للكتاب ، صحيح أن الحكيم اعترض فى أول الأمر لأنه

فوجئ بابنته تعود فى الساعة التاسعة مساء فقال لها عندما اكتشف تأخرها فى العودة إلى البيت : « الله .. الله .. راجعة الآن فقط فى هذا الوقت .. كنت فين ؟ » ، فتقول له : إنها تعمل بمعرض الكتاب » ، فيقول لها مستنكراً : معارض إيه التى تجعلك تغيبين عن البيت طول النهار وتختلطين مع الجمهور وناس لا تعرفينهم »

وتحاول الأم التى كانت تقرر كل شئ مع أولادها ، أن تقنعه بأن عمل ابنتهما فى المعرض هو عمل محترم لا يسبب لها أى إحراج أو متاعب وهى مجرد أيام ينتهى بعدها المعرض » ، ولا يطمئن الحكيم إلا أن يتأكد بنفسه ، فيذهب إلى معرض الكتاب مصطحباً معه صديقه د . حسين فوزى ، فتفاجأ زينب بأنهم يرحبون من خلال المكروفونات بالكاتب الكبير توفيق الحكيم ، وينوهون من وقت لآخر بوجوده ، ولم يكن الحكيم يقصد زيارة المعرض ولكنه كان يريد الاطمئنان على طبيعة عمل ابنته فزارها فى الجناح الذى تقف فيه وهى تتعامل مع الكتب ويتعامل معها الجمهور بما يليق بالمتعاملين مع الكتب من أخلاق ، ولم يجد الحكيم بأساً من استمرار ابنته فى عملها بالمعرض ، ونظر إلى صديقه د . حسين فوزى ليلفته إلى زينب مشيرا إليها قائلا « هذه إبنتى » .

ولم يكن قلق الحكيم علي عمل ابنته إلا لأنه كان يعرف طبيعة شطحاتها ، فهى لا تختار أعمالاً تقليدية أو هوايات تقليدية ، أو كما يقول لها « أنت لا تخطين ولكنك تقفزين ، لأنها فى بداية دخولها الجامعة أرادت أن تتعلم « فن الرقص ، وكانت تذهب للفرجة بمسرح البالون ، وتسعى للعمل بفرقة رضا للفنون الشعبية ، مما أصاب الحكيم بحالة من الرعب والفزع جعلته يقول « ابنتى تطلع راقصة ؟ وسمعتى »! » ، ويطلب من أمها لقربها منها أن تلفت نظرها إلى أن هذا عبث ، ويجب أن تلتفت لدروسها بدلاً من هذا الكلام الفارغ الذى سوف يجعلها تزوغ من

محاضراتها .. ألا يكفى أن الولد إسماعيل سكتنا له على المزيكا .. البنت أيضا .. وإيه راقصة » ؟!

ولذلك كان الحكيم متعجلاً لإتمام زواج ابنته ، ولم يعن هذا أن يوافق على زواجها أى زيجة والسلام تخلصاً من شطحاتها المزعجة له ، فجاء زواجها - إلى جانب دراستها التى لم تكن قد انتهت منها بعد - لتنشغل بأولادها ، ومع وجودهم الذى أضاف إلى حياتها أعباء جديدة ، لم يعد هناك مايدعوها للتفكير فى العمل لغيرهم ، وقد شعر الحكيم بأهمية وجود المرأة فى البيت ، مع وجود إبنته مع أبنائها ، وزمان كان من أنصار المرأة للبيت والبيت للمرأة لأنه كما يقول : « الأم هى الحقيقة الكبرى فى تركيب المرأة ، وبهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات » ، كانت القضية نظرية بالنسبة للحكيم ، أما الآن وهو يرى أهمية ابنته فى الحفاظ على كيان أسرتها وبيتها (ومن قبلها أمها التى حملت عنه عبء البيت والأولاد وإن لم يكن متنبها ليدرك ذلك لانشغاله) فقد انتقل اقتناعه النظرى إلى اقتناع عملى بعد أن رأى وشاهد وعاين ، باندماجه مع إبنته وأولادها ، إنهم لا يستطيعون أن يتناولوا طعاماً إلا فى وجودها ، وكان الحكيم يرى أنهم فى حاجة إلى تجربتها وتوجيهاتها حتى لا يقعوا فى أخطاء فى حياتهم ، فالولد إسماعيل يأتى من مدرسته متلهفاً على أمه يأتيها صوته من الأسانسير « مامى » ، والبنت مريم فى بحاجة لإرشادات أمها وهى فى هذه السن الحرجة .. سن المراهقة .. حيث تسأل الإبنة ، وأمها تجيبها وتحدثها بالساعات عن حياتها وما بها من أخطاء كى تتجنبها ولا تقع فيها .

لقد رأى الحكيم بالتجربة .. الأهمية الحيوية لوجود الأم فى بيتها مع أولادها ذلك الوجود الذى لا تغنى عنه جدة أو شغالة ، لم يكن الحكيم قد مر بهذه التجربة من قبل لانشغاله فى عالمه الخاص أما الآن فإنه يعيش

التجربة كاملة مع إبنته وهو فى أخريات عمره بعد أن تخفف كثيرا من أعباء أوراقه وقلمه .

* * *

وإذا كان الحكيم كالحاضر الغائب غالبا ، فى أمور أسرته التى انفرط عقدها بوفاة الزوجة والإبن ، إلا أنه كان حاضراً دائما فى أمور أسرته الجديدة المكونة من إبنته وأولادها ، وكان حضوره سببا فى حدوث احتكاكات وخلافات ، فقد راح يتدخل فى شئون إبنته بصورة متزايدة ، فله وجهة نظر فى نوع ولون ملابسها ، وطريقة تصفيفها لشعرها ، بل وطريقة صلاتها ، وإن كان الأخطر عنده هو استمرارها فى التدخين ، فهو لا يمل ينصحها بالامتناع عن السيجارة لأن نتيجتها إصابتها بالسل الرئوى وسرطان الرئة ، ويدلل على صحة كلامه بقصاصات الصحف التى تتحدث عن أضرار التدخين ، ويحثها على قراءة ما تضمنته الحملة الجديدةالتى يقودها الكاتب الصحفى صلاح منتصر ضد التدخين .. الخ ، فقد خشى الحكيم أن يسوء مصير إبنته بغرقها فى التدخين ، كما ساء مصير إبنه عندما غرق فى الخمر ، ولكن محاولاته مع إبنته كانت كالحرث فى الماء ، فأراد أن يحاول مرة أخرى ولكن بشكل عملى قوامه الحافز والإغراء ، فوعدها إن امتنعت عن التدخين فسيكافئها مكافأة كبرى ، وطمعا فى المكافأة وشوقا إليها تظاهرت زينب بالامتناع عن التدخين أمام والدها ، وإن لم تمتنع من ورائه ، واستمرت على هذا الحال شهرين وثلاثة إلى أن اطمأن الحكيم بأنه لم يعد يراها تدخن ، فأعطاها ألفا من الجنيهات ، وحتى تظل محافظة على ثقة الحكيم لم تعد تدخن على الأقل أمامه ، ولكنها كانت تشعر بقيد يمنعها من حريتها فى التدخين ، لأن والدها معها أغلب الوقت جالسا فى البيت ، وإن كانت تحاول أن تختلى بنفسها فى

حجرتها بعض الوقت لكى يمكنها أن تشعل سيجارة ، وكان ذلك غالبا ما يكون فى وقت تتظاهر فيه بالرغبة فى الراحة أو الاسترخاء على سريرها ، حتى فوجئت ذات يوم بخطوات الحكيم ودقات عصاه تتجه نحو حجرتها ، والسيجارة فى يدها ، فقامت بإخفائها بسرعة تحت اللحاف ، حتى لا يكتشف أمرها ، وكان عادة ما يأتى إليها كلما دخلت إلى حجرتها ليطمئن عليها وهو واقف على الباب ، ليتبادل معها كلمة أو كلمتين ثم يمضى ، ولكنه هذه المرة دخل وجلس ، فاضطرت لاستخدام سلاح العطس الذى يخشاه الحكيم ويخافه ، فافتعلت ، « العطس » ، ليقوم الحكيم على إثره موليا وجهه خارج حجرة زينب حتى لا تصيبه العدوى ، ولكن الحكيم كان قد أحس بسر زينب مع سيجارتها ، فقد كان يلاحظ قلقها ويراقب عدم ارتياحها بعد فراغها من الطعام بينما هى محرجة من ترك والدها أثناء اشتباكه معها فى أحاديث مختلفة لم يكن يحلو له إثارتها إلا حين الجلوس على مائدة الطعام حيث يمكن للحوار أن يمتد إلى ثلاث وأربع ساعات ، وتكاد زينب أن تموت أمام رغبتها الجارفة لإشعال سيجارة بعد تناولها الطعام ، فاستأذنته ذات مرة لقضاء حاجتها بعد أن استطال الحديث وحمى وطيسه ولم يعد هناك أمل قريب لزينب فى إنهائه ، ففوجئت بوالدها يطلب منها الجلوس ، وقال لها : لا داعى للانصراف .. اجلسى ودخنى .. ألم تحصلى على الألف جنيه ؟!

* * *

وعندما يرى الحكيم ابنته كاشفة شعر رأسها يقول لها : ألم تكونى متحجبة .. خلعت الحجاب ليه ؟ فتقول له : من كثرة سخرية حضرتك من المحجبات » ، فينفى ذلك ويقول : لا . لا .. أنا لم أقل لك اخلعى الحجاب ، فتقول له : أنا أنوى ارتداءه حينما أقتنع تماماً لأننى مترددة ،

فيقول لها : ارتدى الحجاب ولا داعى للتردد . ، وحين تستعد للصلاة يجدها ترتدى فستاناً وتحته بنطلون ، فيقول لها : ولماذا البنطلون مادام الفستان طويلًا ؟ فتقول له : لأن فى الفستان فتحة فى أسفله تبين قدمى .، فيقول لها ساخراً : هو يعنى ربنا سيترك الكون كله ولا يشغله غير فتحة فستانك ؟! وعندما تلبس البيجاما لتخفى بها كل جسدها أثناء الصلاة ، يلاحظ الحكيم أن البيجاما تكاد تتفتق لضيقها مما يحدد ملامح جسد زينب فيقول لها : ما هذا .. ترتدين بيجاما ضيقة لإغراء من ؟!.....؟!

وحين تدخل فى صلاتها ويقبل عليها طفلها « محمد » يداعبها ، فتتضايق لأنه يعطلها عن مواصلة صلاتها ، فيقول لها الحكيم : دعيه يلعب .. إنه يفعل معك كما كان يفعل الحسن والحسين مع جدهما الرسول ﷺ حينما كانا يمتطيان ظهره فلا يتحرك من سجوده قبل أن يتركانه حتى لا يزعجهما .

ومن هذا الفهم والحرص على مشاعر الأطفال استسلم الحكيم لحفيديه إسماعيل ومريم لعله يعوض معهما ما حرم منه أبناءه فى طفولتهما ، فقد طلبت مريم من جدها أن تصفف له شعره بمعاونة أخيها إسماعيل ، وراحت تصنع له مفرقا فى رأسه يقسم شعره قسمين عن يمين وعن شمال ، وراحت تضفر ما استطاعت من خصلات شعر جدها وتضع فيه « توكات » كانت تخبئها ، ولم تكتف بذلك ، بل قامت بتصفيف شاربه إلى أعلى !. ولم يعترض الحكيم بل طاوعها لتمسكه من يده هى وأخيها ليقتاد انه إلى حجرة والدتهما التى فوجئت مذهولة بهذا المشهد العجيب .

لذلك كان الحكيم ينصح إبنته ألا تزعج طفلها محمداً وهو يداعبها أثناء صلاتها .

وهكذا كان فراغ الحكيم لإبنته وأحفاده ، يجعله يتدخل دائماً فى

شئونهم ، مرة بالسخرية ، ومرة أخرى بالنصيحة ، ومرة ثالثة بالثورة عليها ، حتى قالت له ذات مرة :

يابابا حتى لو كنت زوجى لم تكن ستعاملنى هذه المعاملة .

فقال لها : أنا أكثر من زوجك فلى السلطة الكاملة عليك » .

ورغم ضيق زينب بتدخلات والدها فى تفاصيل حياتها إلى درجة الثورة عليها فى بعض الأحيان ، ألا أنها كانت تلتزم الصمت إلى أن ينتهى من إعطائها دروساً يؤنبها فيها أو يلومها على ما يرى أنها أخطأت فيه ، فتتحمل كاظمة غيظها ، حتى ينتهى من كلامه ، فتخرج بعيداً عن المكان الذى هو فيه ، لتعبر عن غضبها من والدها دون أن تسميه وإنما تُكنى عنه بلفظة « أنتم » ، فهى لا تستطيع أبدا أن ترفع صوتها أمامه ، أو تواجهه صراحة وهى تتحدث بغضب وانفعال .

منتهى الاحترام .

ولا يستطيع الحكيم أن يجعل ابنته تظل غاضبة منه لأكثر من عشر دقائق ، فيذهب إليها بحجة أنه يريد شيئا من حجرتها ، بينما هو لا يريد شيئا سوى مصالحتها ، فيسألها عما تفعل ، ثم يجلس بجوارها على سريرها ، الذى كان كلما جلس عليه لمشاهدة التليفزيون ، وقع لعدم وجود مسند له ، فتسارع إلى انقاذه وشده إليها بعصاه ، رغم تحذيرها له فى كل مرة أن السرير لا ظهر له ، ويفتح الحكيم حواراً مع إبنته ، وإذا لم يذهب إليها يناديها وكأن شيئا لم يحدث ، أو يحاول إقناعها بوجهة نظره فيما أثار غضبها ، وفى النهاية تجد زينب أنها كانت مخطئة ، وتقتنع بصواب رأى أبيها فى أغلب الأحوال ، وإن أتى ذلك متأخرا .

ولا يريد الحكيم أن ينتهى حواره مع ابنته حتى عندما يأوى كلاهما إلى سريره ، فالحجرتين متقابلتين ، ومن تحت اللحاف ينادى الحكيم ابنته ، بينما هى مستدفئة على سريرها تشاهد التليفزيون ، فتطلب منه أن يجىء

هو ، فيقول لها إنه يريدها فى شئ مهم . فتسأله ما هو ؟ فيخبرها أنه لن يقول لها عليه إلا حينما تأتيه ، فتقول له بل إنها هى التى تريده فى شئ أهم ، ويتبادلان الحوار عبر الحجرتين من خلال سريريهما ويحاول كل منهما أن يجذب الآخر إليه للجلوس والحوار معه .

وقد أدرك الحكيم طبيعة إبنته واعتدادها بنفسها ، فلم يعد يلجأ للأسلوب المباشر لتنبيهها لخطأ يراه ، أو توجيه نصيحة بشأنها أوبشأن أولادها مما يمكن أن يحدث احتكاكاً يؤدى إلى إثارتها وغضبها ، وإنما كان يستخدم موهبته القصصية فى تأليف قصة من خياله ينتهى منها إلى العبرة أو الغرض الذى يريد أن يصل إليه ، فتفهم إبنته مقصده سواء كان نصيحة أو نقداً أو توجيهاً .

وكم كان الحكيم يسعد حينما يدخل على زينب ويجد كتباً بجوارها ، وكم كان يصدم حينما يعرف أن وجود هذه الكتب لا يعنى فى كل الأحوال أنها كانت تقرأ ، ولكنه اكتشف أن لها اهتمامات أدبية أكبر مما كان يظن ، فهى تناقشه بل وتنتقد مؤلفاته ، وهو يستمع ولا يضيق بالنقد ، فصدره رحب لتقبل الرأى الآخر ، فتقول له مثلاً إن بعض أفكاره فى بعض كتبه معادة وهذه الفكرة أو تلك نقلها عن الكاتب الأجنبى الفلانى ، وذات مرة قالت زينب لوالدها : إنها ستعد دراسة عن الزمن عند « سارتر » ، فيطلب منها أن تعد دراستها عن الزمن عنده لأنه سبق « سارتر » ، ولكنهاتكون مقتنعة بأن سارتر هو الأسبق عن الحكيم ، ورغم أنها لن تعد دراسة ولا شيئاً إلاأنه حوار يدور بينها وبين والدها كأنها تريد أن تؤكد له أن نشأتها فى بيت « المفكر الكبير » لم تضع سدى وأنه قد أثمر ثماره فى قدرتها على مناقشته ، بل ومعارضته ونقده ، ورغم أن هذه المناقشات الأدبية كانت تحدث مرة كل أسبوع تقريباً إلا أن المناسبات كانت تفرض

نفسها من طبيعة الحياة ذاتها وتفجر مناقشات بين الحكيم وابنته حول قضايا سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية .

* * *

فعلى مائدة الطعام تأتى سيرة الأسعار النارية الملتهبة .. فهذه « البامية » التى يأكل منها الحكيم تقول له زينب « تصدق يابابا الكيلو منها بسبعة جنيهات » ! فيذهل وتتوقف اللقمة ، فى يده أو فى حلقه حسبما يكون موضعها ويسأل فى دهشة عن السبب « ليه يعنى ؟ » فتخبره ابنته : لأن البامية فى بداية ظهورها .، فيقول الحكيم : ولو ...، ويكون حديث « البامية » غالية الثمن ذات الجنيهات السبعة مدخلا لمناقشة اقتصادية يحلل فيها اقتصاد البلد ويقارن بين زمان والآن وكيف أن هذه الجنيهات السبعة كانت تفتح لصاحبها بيتاً وتكفل معيشة أسرة شهراً .. فما الذى أوصلنا الآن إلى هذا الوضع الذى كان سبباً فى جنون الأسعار التى لا ضابط لها ولا رابط ؟. إنه سوء التخطيط فى التعليم وفى توزيع الخريجين ، فالجامعات كل عام تخرج آلافا ينتظرون خطابات القوى العاملة لتعيينهم موظفين ، ومع كثرتهم لا يجدون لهم مكاتب ، ثم إنهم لا ينتجون لأن عمل الواحد منهم يؤديه عشرة .. إذن فكان يجب على الدولة أن تعرف احتياجاتها ، وتخطط لنظام التعليم على أساس هذه الاحتياجات .. وأن تتجه بالخريجين لها لا إلى المكاتب ولكن إلى الصحراء لاستصلاحها .. ولكن مادامت الجامعات تقوم بتخريج موظفين يتقاضون مرتبات على أعمال لا يقومون بها فسوف تزداد ديون الدولة .. فتضطر لرفع الأسعار ..

وبالتالى تزداد ديون الموظفين أيضاً لأن مرتباتهم لا تتوازى مع الغلاء .. فلم تعد الوظيفة الميرى مغرية مثل زمان حينما كان يقال « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ، فقد صارت أجرة الشغالة أكبر من مرتب

الموظف وأستاذ الجامعة بل أكبر من معاش الحكيم نفسه الذى هو أكبر مفكر فى مصر والوطن العربى ، وقد جرب الحكيم أن يأتى بشغالة فراحت تفرض عليه شروطها ، إنها تريد أن تحضر يومين فى الأسبوع وأن تأخذ أجرها مقدما حتى تستطيع أن تذهب إلى الفيوم لتدفع لإبنها الذى يعيش هناك ثمن الدروس الخصوصية التى يأخذها ، حيث أنه فى الثانوية العامة ويريد الحصول على مجموع يؤهله لدخول الجامعة ، ويرى الحكيم « أن الحكومة قد أفسدت التعليم ووقعت فى تناقض مع نفسها حينماتطلب من الطالب أن يحصل على ٧٠ و ٨٠ و ٩٠ ٪ ليدخل الكلية التى يريدها دون اعتبار للقدرات والمواهب والميول ، مما يجعل الطالب يلجأ للدروس الخصوصية وبذلك لم يعد التعليم مجانيا كما يقول شعار الدولة الذى ترفعه ، إنه شعار كاذب ، فلا توجد مجانية .. يجب على الدولة أن تعترف بهذا .. وألا تخدع نفسها بمبدأ كاذب ينقضه الواقع ، ولكنه الكذب الذى أصبح عملة سائدة فى السوق فلم نعد نقول شيئاً صادقاً أبداً ، وعلى الدولة إن أرادت إصلاحاً للتعليم أن تعترف بشجاعة أنه لم تعد توجد مجانية وأن تعود بالتعليم كماكان من قبل بمصروفات ، ولكنه كان تعليما مضبوطاً .. أخرجت لنا المرحلة الابتدائية منه .. العقاد ، أما التعليم الآن فلم أعد أثق فيه ولا فى كلياته أو معاهده .. التى تلقى بخريجيها للقوى العاملة لتوزعهم دون خطة أو تقدير لاحتياجات البلد .. ومن يوم ما أصبح عندنا كلية اسمها كلية الإعلام لم يتخرج منها إعلامى ناجح .. كان زمان يكفى لمن يريد العمل فى مجال الإعلام أن يكون موهوباً ويعمل مع إعلامى قديم « يشرب منه الصنعة » كما يقولون .

والتعليم المجانى الذى ينتقده الحكيم لتحوله عن هدفه ومضمونه بانتشار الدروس الخصوصية هو الذى دعا الشغالة التى أتت للحكيم أن تطلب منه مائتى جنيه مقدما فى الشهر ليومين فقط فى الأسبوع تقضيها

لخدمته ، كى تتمكن من السفر لابنها وتسديد ثمن دروسه الخصوصية ، ولكنها مجاملة للحكيم لن تأخذ منه سوى مائة وخمسون جنيها فقط لأن المحروس ابنها رآه فى التليفزيون ، هكذا قالت الشغالة لتوفيق الحكيم الذى دهش لهذا التطور العجيب الذى حدث فى المجتمع ، وراح يتحدث إلى صديقه ثروت أباظه .. فى التليفون : تخيل الشغالة النهاردة تتقاضى ١٥٠ و ٢٠٠ جنيه !، يتعجب الحكيم لأن مثل هذا المبلغ أكبر من معاشه وهو شيخ المفكرين ، ولكن لماذا العجب ؟ لقد تغير الزمن وانقلب المجتمع الذى أصبحت فيه الشغالات يعلون مكانا ماديا متقدما فى سلمه الهرمى ، وجاء الزمن الذى أصبحت فيه الشغالات موضوعا لنقاش بين كبير الكتاب العرب وصديقه الروائى الأديب يوسف جوهر ، حينما جلسا ذات يوم أمام شاشة التليفزيون ، فشاهدا ، « مذيعة » تجرى حواراً فى الطريق مع فتاة (لمضة) تجيد التعبير بالعين والحاجب (توقعا) أن تكون ممثلة صاعدة .. اتضح أنهاشغالة (فقال يوسف جوهر) أتوقع أن تصل هذه الفتاة الفصيحة إلى مقاعد مجلس الشعب .. هناك نسبة خمسين فى المائة للعمال والفلاحين !

(قال الحكيم) لا يبدو عليها أنها عبيطة لتفعل ذلك .. ستقارن بين مكافأة المجلس ومكافأة الخدمة فى البيوت ..

(وأضاف الحكيم ضاحكاً) لا تنسى أن المجلس لن يقدم لها طعاماً أو بدل طعام .. أما فى البيت فإن ربة البيت تحرص على رضاها وتسألها متوددة .. ماذا تفضل فى فطورها ، وهل تحب البيض مقلياً أم مسلوقاً .. أم برشت .. أم عجة بالخضروات .

(قال يوسف جوهر جادا) : آخر شغالة وفدت علينا اشترطت أن تجرب العمل بضعة أيام .. وتأففت عندما رأت سخان البيت معطلاً .. وتبين أنها موسوعية ومغرمة بالدراسات المقارنة .. تعرف أن الفلبينية

تتقاضى نصف مرتبها بالدولا ر ، ونصفه بالعملة التعبانة ، وأن الخادمة فى بلاد برة تجلس إلى المائدة مع الأسرة وأن غرفتها مزودة بتليفزيون خاص ، وتستطيع أن تدعو خطيبها فى وقت راحتها ليلعب معها الكوتشينة ، ولم تعد الموسوعية فى اليوم التالى .. الأمر الذى يقطع أننا – أنا وزوجتى والعيال – لم نعجبها ولم ننجح فى كشف الهيئة .

(قال الحكيم) : احمد ربك أنها لم تعرف ما نتقاضاه عن مقالاتنا .. لو عرفت لسقطنا من عينيها .. وربما وضعت مبلغاً فى مظروف وتركته على حافة حوض الغسيل على سبيل المساعدة ، (قال يوسف جوهر) قيادة الرأى العام صارت أقل ثمناً وجدوى من قيادة المطبخ .. زمان كانت تعتبر فضيحة اجتماعية أن يتزوج شاب وابن ناس .. شغالة ، الآن حسب نظرية النشوء والارتقاء سيكون عادياً أن يتزوج المثقف شغالة للمحافظة على مظهره الاجتماعى .. وستنظر فى أمر صعوده إلى طبقتها .. ربما تقبل وربما ترفض . (قال الحكيم ضاحكاً) : وربما تكثر حالات تعدد الزوجات .. يتزوج حامل الدكتوراه الذى تمنحه الدكتوراة علاوة عشر جنيهات ، من اثنتين .. واحدة للضروريات المادية وواحدة للحياة الزوجية ، وأنا نائب فى الأرياف كان القاضى يتزوج من بنت العمدة وهى لا تعرف الألف من كوز الذرة ، لأن دخل الأطيان يساعده على إقامة المآدب للمدير والحمكدار والحكيمباشى » .

ويعجب الحكيم أيضاً من أن الشغالة لا تحب من يسميها « خادمة » – ويقول – مع أن فى الشرع يقال « سيد القوم خادمهم » ، وأن النبى ﷺ كان يذكر كلمة « الخادم » موصياً به خيراً ، كذلك فالموظف فى البلاد الأجنبية يسمى « خادم الدولة » ، ولكن « الخدم » عندنا لا تعجبهم الكلمة فيغيرونها من باب المدنية والتطور إلى « شغال » أو شغالة .

ورغم أن الحكيم فى الثمانينات من عمره إلا أن مستقبل بلاده يشغله حتى فى طعامه وشرابه حتى عندما يرى أى شوائب فى السكر .

يقول : ما الذى جرى لمصر ؟ وتهزه المفارقات العجيبة فى المجتمع واختلال الهرم الاجتماعى فيتساءل : كيف تسير البلد وإلى أى شىء سوف تصل ؟

فتسمع ابنته زينب تساؤلاته ، وتحاول أن تخفف من همومه وانشغاله بالغد الذى لن يكون موجوداً فيه ، فتقول له : يابابا انت مزعل نفسك ليه بالمستقبل الذى أنت مشغول به .. إنه ليس مشكلتك ولا حتى مشكلتى وإنما هو مشكلة أولادى .. أحفادك .. وعليهم أن يواجهوه ويحلوا مشاكله .. فما شأنك أنت ولماذا تشغل نفسك بمستقبل هو لغيرك ؟

فيقول الحكيم ولم يعجبه كلام ابنته : هذه هى المشكلة .. كل واحد يعيش لنفسه فقط .. كل واحد يفكر لنفسه فقط ولا يفكر مع غيره أو لغيره ، لأن الذى يحدث عندنا حتى الآن هو أنه إذا اجتهدت فى بناء الطابق الأول وانتظرت أن يأتى آخر فيضيف إليه طابقاً آخر وجدت الذى جاء قد ترك طابقك كما هو إن لم يكن يهدمه ويبنى هو بناء آخر مستقلاً فى مكان آخر باسم آخر .. وذلك لأننا لا نعرف غير النظرة الشخصية الانفرادية ، ولهذا فإن طبيعتنا تشبه طبيعة الصراصير التى تسير وتعمل كل منها على انفراد ، أما النمل فيعمل بطريقة جماعية فى طوابير وجماعات وبذلك يستطيع أن يحمل حشرة أو غذاء أكبر منه حجما وقوة ، أما الصرصار فلا يستطيع أن يحمل شيئا لأنه منفرد بنفسه . هكذا مجتمعنا اليوم « مجتمع صراصير » .. كل فرد يعتبر نفسه لا شئ قبله ولا شئ بعده .. كل فرد يعتبر نفسه مجتمعاً قائماً بذاته .. لذلك انتشرت السلبية واللامبالاة .. كل واحد يقول « وأنا مالى » .. مليش دعوة .. « هو أنا

الذى سأصلح الكون » .. ومادامت هذه الروح الأنانية تركبنا فلن نحل مشكلة واحدة من مشاكلنا .. يعنى يبقى انتهينا .

ورغم أن الحكيم يشعر بأنه كمن يؤذن فى « مالطة » التى تبنى فيها المساجد ويرفع الآذان دون أن يوجد بها مسلمون يلبون ، أو كمن « ينفخ فى قربة مقطوعة » يذهب كل جهد فيها هباء ، أو كما يشبه الحكيم نفسه « بالبوسطجى » .. ساعى البريد .. الذى يحمل رسالة ويدق على الأبواب ويصيح « بوستة » .. فيسمع من يقول له : اللى فى البيت عزلوا ولا نعرف عنوانهم .. رح لحالك من فضلك وكفاية دق على الأبواب وجعت لنا دماغنا !

ورغم أن الحكيم يشعر زمنيا على الأقل أنه أشبه بأبطال مسرحية « أهل الكهف » الذين وجدوا عالماً غريباً عليهم لا يستطيعون مجاراته أو التواؤم معه أو العيش فيه ، فقد انتهى عصرهم وليس أمامهم من اختيار سوى العودة إلى « المتحف » .. فإن الحكيم يعتبر نفسه طالما أنه محسوب على الأحياء ، فهو مكلف أن يعيش لمجتمعه حتى آخر نفس من أنفاس حياته ، فتشغله هموم الوطن والمواطن .. لأنه كشخص .. كإنسان .. لم يعد له مطمع أو مطمح فى الحياة فقد أعطاها وأعطته ولكنه كمفكر عظيم لا يمكن له أن يبخل بفكره على بلده حتى يتوقف فكره عن النبض .. ليس المهم أن يقطف ثمار فكرة يزرعها .. يكفيه أن يقطفها أبناؤه أو أحفاده .. وهو يرى أن مشكلة الأبناء والأحفاد التى تؤرقه هى « الديون » .

تداعبه إبنته زينب وتسأله : وكيف نسدد ديوننا يابابا ؟

ولم يشأ الحكيم أن يجيب فى البداية وراح يختبر فكر جيل ابنته .. أليس هو الجيل الذى عليه أن يفكر ويتحمل مسئوليته ؟ .. فأعاد الحكيم عليها

نفس سؤالها ، فأرادت استفزازه فقالت له ساخرة وقد ظهرت على ملامحها ما يظهر على وجه المرأة حين تمكر : إيه رأيك يابابا لو نسمح بقاعدة « أمريكانى » مقابل ما نحصل عليه لنسدد ديوننا !

فقال الحكيم منزعجاً : انت عايزة تبيعى بلدك ؟

قالت زينب متخابثة : أصل المسألة تكون « دكاكينى » فى السر يعنى .

فقال الحكيم وقد علت نبرته : كيف تفكرين وبأى منطق تتكلمين .. أتريدين للاستعمار أن يعود من جديد مثل زمان ؟

قالت زينب : هل تظن أن استعمار اليوم مثل استعمار الأمس يأتى ليقعد لنا .

فغضب الحكيم من هذا الفكر المدمر وانزعج من أن يوجد فى المجتمع بل فى بيته من يفكر فى هذا الجيل بهذا اليأس والضياع ، وقال لابنته منهيا المناقشة : يبدو أنه قد أصابك مس من الجنون . والتزم الصمت ، ولكن زينب عادت لمعاكسته من جديد وقد اطمأنت إلى أن عقل شيخ المفكرين لم يمسه الوهن أو الضعف أو يعتل كجسده ،

فقالت : مادام لا يعجبك رأيبى فقل لى أنت كيف نسدد ديوننا ؟

قال الحكيم : بالانتاج

قالت الابنة وقد عادت لسابق مكرها : الانتاج ؟ هه موت ياحمار !

فيقول الحكيم ولم يفقد الأمل : وإيه يعنى .. موت ياحمار حتى نسدد ديوننا .. ننتج ونتوسع فى الصحراء ونفعل مثلما فعل السلطان قابوس فى سلطنة « عمان » .. تقوم شركات أجنبية باستثمار أموالها فى استصلاح الأرض والبناء وتستفيد من عائدات مشروعاتها لوقت محدد ومعلوم يتم الاتفاق عليه ثم بعد ذلك نقول لها « بالسلامة » .. ويصبح كل شئ بعد ذلك ملكا خالصا لنا .. ولكن فى البداية والنهاية لن يسدد ديوننا إلا إنتاج عقول وسواعد أبناء مصر .

وحينما تعود زينب لتسأل والدها : ولكن لا أحد اليوم ينتج ؟

يقول الحكيم : لأن الدولة تركز اهتمامها على التعليم الجامعى دون أن تهتم بالتعليم الفنى ، وتكون النتيجة هى امتلاء دواوين الحكومة بالموظفين غير المنتجين .. فكيف يأتى إنتاج من موظفين قاعدين على مكاتب ، وكثيرين منهم لا توجد لهم مكاتب .. وسنجد فى كل مصلحة حكومية عمالة زائدة وبطالة مقنعة .. والجميع يقبضون مرتباتهم من الدولة ولا يهتمون إلا بالحوافز التى يحصل عليها العامل والخامل ثم بعد ذلك نشكو من الديون .. هذه هى النتيجة الطبيعية لمجتمع يستهلك ولا ينتج ويأخذ دون أن يعطى .. فتتراكم الديون ولا نستطيع حتى سداد فوائدها .. بل حتى القروض التى تقترضها كل وزارة لا تحسن استثمارها .. بل إن بعضها لا يتذكر القرض إلا بعد فوات المدة المطلوبة لاستخدامه .. وميزانيات لوزارات لا ترشد استعمالها .. والله .. يقسم الحكيم منفعلاً - لو كنت وزيرا للمالية لفعلت ما يجب أن يفعله أى وزير مالية عنده شئ من الفكر .. يضيف الحكيم متصوراً نفسه وقد أصبح وزيراً للمالية .. سأطلب ميزانية الدولة لا لكى أقرؤها ولكن لأشطب نصفها بالقلم الأحمر .. فبدلاً من إنفاق مائة ألف فى بند من البنود يُكتفى فقط بإنفاق خمسين ألفاً .. سيقولون لى هذا غير ممكن لأن عندنا مشروعات كذا وكذا .. سأقول لهم نصف ما عندكم يكفى وزيادة إذا أنفقتموه بضمير وإخلاص .. لأن الذى يحدث أن أى مشروع ينفق عليه أضعاف تكلفته الحقيقية لأن « اللى طالع واللى نازل عايز فلوس .. لم يعد الناس يتحركون أو ينامون إلا بالفلوس .. لازم هذه الفوضى تنتهى وكل واحد لا يأخذ أكثر من حقه ، ومن يريد أن ينام ولا يعمل فلينم مجاناً والمكاتب مليئة بالنائمين ولابد من إيقاظهم بأنه لا يوجد فلوس ولا حوافز إلا لمن يعمل وينتج .. لازم يكون هناك شئ ضاغط ليفيق النائمون والكسالى ..

ولكننى الاحظ أنه فى بلدنا وكل البلاد الديمقراطية أن صاحب الصوت العالى ويقدر « يزعق » فى الصحافة أو فى الشارع .. الحكومة تسجد له .. حدث هذا فى فرنسا عندما شرعت الحكومة فى إصلاح التعليم بإحداث بعض التغييرات فيه ، فقام الطلبة يصرخون وفرضوا بصوتهم العالى على الحكومة أن تتراجع .. وهذاالصراخ هو أيضاً الذى يجعل حكومتنا تخشى طرح مسألة إعادة النظر فى مجانية التعليم .. ولكننا نحتاج إلى نموذج الحكومة الإنجليزية فيما تراه لازماً لمصلحة المجتمع .. فعندما أراد عمال المناجم أن يفرضوا شروطهم على الحكومة وأن يظهر رئيسهم زعيماً فى الشارع البريطانى .. تصدت لهم المرأة الحديدية - تاتشر - ولم تخضع لصراخهم ، ولكن أغلب النماذج فى البلاد الديمقراطية هو أن الحكم للصوت العالى والصراخ ، فأصبح بإمكان أى واحد انه يجمع بعض الناس من الشوارع أو يعملوا اضراب فتهتز الحكومة وتستجيب لمطالبهم .

وتسأل زينب : ولكن ماذا تفعل الدولة .. ألا توجد ديمقراطية .. ويجب على الحكومة أن تستمع للرأى الآخر ؟

يقول الحكيم : الحكومة تستمع للرأى الآخر لو كان فيه مصلحة لغالبية المجتمع .. لأن الديمقراطية لا تعنى أن الحكم للصارخين والزاعقين .. والديمقراطية لا تعنى المجانية للراسبين .. والديمقراطية لا تعنى حوافز للنائمين .. الديمقراطية هى ما يحقق مصلحة الجميع .. ولا أدرى حتى الآن لماذا تتمسك الدولة بتعيين الخريجين عن طريق القوى العاملة .. ويبدو أن ذلك لأنها عودتهم على أن تعلمهم مجاناً وتوظفهم مجاناً دون أن تأخذ منهم مقابل من عمل أو إنتاج فأصبحت الدولة تطعم الناس وتنيمهم وتعطيهم حوافز أيضاً .. يضيف الحكيم ضاحكا - ويبدو أن الدولة لها مصلحة فى نوم الشعب تفوق مصلحتها فى الحصول على إنتاج منه ، وهو أن تشغله لكى لا يشارك فى أمور الدولة بما يراه من لخبطة فى سياستها .. برأى قد

يخالفها ، فهى تعمل بالمثل القائل « اطعم الفن تستحى العين » .. وإذا كان هذا يصلح فى ظل حكم ديكتاتورى فإنه لا يصلح فى ظل حكم ديمقراطى .. فالشعب الآن يرى ويسمع ويتكلم .. خلاص الشعب كبر ويجب على الحكومة أن تشركه فى سياستها وتقول لمن يريد أن يتعلم مجانا أن يتفوق .. ولمن يريد أن يأكل أن يعمل ، والذى ليس له مكان فى الوادى الضيق تعطيه الأرض فى الصحراء ليستصلحها ويزرعها ويبنيها .. وليفعل الشباب مثلما نرى فى بعض الأفلام الامريكية كيف بنوا أمريكا .. فنجد رجلاً وزوجته وأولاده أقاموا فى مكان كصحراء « نيفادا » وبنوا « كشكين » خشب كمنزل مؤقت يأويهم ، ودقوا « ترمبة » ماء ، والزوجة تطبخ وتساعد زوجها فى الاستصلاح والبناء ، ومعها بندقية لتدافع عن نفسها أمام الهنود الحمر حينما يغيب عنها زوجها .. فنرى أن هذه البلاد صارت دولة كبيرة مكتفية ذاتياً .. وهى أصلا صحراء .. كل هذا بجهود أبنائها .. فلماذا لا نقلد غيرنا فيما يفيدنا ؟ إننى أرى أشياء عجيبة .. ذهبت مرة إلى باريس منذ حوالى ثلاث سنوات وجاءنى شاب مصرى ومعه زميل له .. وكنت جالساً على قهوة فأقبل علىَّ وقال : إنه يقرأ لى ، ثم دخل فى الموضوع وهو أن لديه مشكلة ، وهى أنه يحصل على ما يساوى ١٠٠ أو ٢٠٠ جنيه بينما الفرنساوى يحصل على أكثر منه فى نفس مهنته ، فقلت له : يا أخى خللى فى عينك نظر .. بقى انت فى بلد الفرنساوى وتعمل بمهنته وتريد أن تتساوى به ؟.. وسألته « انت خريج إيه » قال : أنه خريج كلية الزراعة .. قلت له : افرض ان كلية الزراعة بالاتفاق مع الدولة أعطتكم قطعة أرض .. خمسين أو عشرين فدان وقالت لكم ازرعوها وابنوها وخذوها .. أليس هذا أفضل من جلوسكم على مكاتب أو مجيئكم إلى هنا فى باريس تشتغلوا « جرسونات » ؟ فقال لى الشاب المصرى : ياريت .. ولكن اللوائح والقوانين الحكومية من القرن الماضى

والبيروقراطية والروتين من أيام الفراعنة ، تعقدنا وتنفرنا مما يجعلنا نهرب ونختصر الطريق بالعمل « فى بلاد برة » - فقلت له : لذلك يجب أن يكون لدينا عقل عام يدير الدولة ويقول ياناس نحن لدينا صحراء تعالوا نعمرها لكى يتنفس الوادى ولا يختنق ، وتقوم حملة فى وسائل الإعلام لتشجيع الناس على الاتجاه إلى الصحراء .

وتستدرك زينب لتقطع استرسال والدها : يابابا لمن تقول هذا الكلام ، هل حافظنا على أرض الوادى لنستصلح الصحراء .. إن المليون فدان التى استصلحتها الثورة ضاعت مع تجريف الأرض وبناء المساكن ؟

فيوافق الحكيم ابنته ويؤكد كلامها بوقائع حدثت فيقول :

ساعات يأتى لى ناس من الفلاحين يقولون لى : غداً لن نجد الفلاح .. لأنه إما هجر أرضه وسافر للبلاد العربية يعمل له قرشين ويشترى سيارة يعمل عليها بالليل والنهار ، أو يعود فيبيع طين أرضه الخصب لمصانع الطوب الأحمر ، ويبنى بيوتا يؤجرها للاستفادة من أزمة الإسكان ، وحتى الذين لم يهجروا الأرض تخلى عنهم أبناؤهم وتركوا الريف إلى البندر بحثاً عن وظيفة ومكتب .

وتجد زينب أن تحليل والدها لمجرى الأحوال يدل على ألا فائدة فتحاول التسلل إلى منطقة يأس بداخله فتقول له : إذن لم يعد هناك أمل ؟

فيقول الحكيم مصمما : الأمل موجود لكن المهم أن نبدأ العمل .. وأنا أجد بعض الإنجازات التى يفتتحها الرئيس مبارك أو يقوم بزيارتها تشعرنى بالفرح وتدل على أن لدينا إمكانيات كثيرة وكبيرة ولكننا لا نستغلها وإذا استثمرناها لا نحسن استغلالها .. وهذاما يحزننى ..

تسأله زينب :

وكأنها تريد أن تنهى الحوار الذى بدأ ولا تبدو له فى الأفق نهاية ولا زالا جالسين أمام مائدة الطعام : والحل إيه يابابا ؟

فيقول الحكيم : الحل يبدأ بمواجهة جريئة من الدولة لكل مشاكلها دون خوف من صراخ الزاعقين .. وأولى المشاكل التى تحتاج إلى مواجهة هى مشكلة نظام التعليم .. لابد من إحداث ثورة فى التعليم .

وتنبهت زينب إلى أن حوارها مع والدها قد امتد بما أجهدها وهى الشابة ، بينما والدها الشيخ لا يكل ولا يمل ، فما أيسر أن يلتقط الحكيم أى ملاحظة أو كلمة عابرة يجعلها مفتاحاً لنقاش طويل يمتد بالساعات على مائدة الطعام ، وكان يحدث هذا حينما تجمعه المائدة مع بنات زوجته وأزواجهن فيمتد الحديث بالثلاث والأربع ساعات إلى درجة قد ينسى معها الجالسون أنفسهم وينسون من أى بداية كان النقاش ، ثم بمهارة يجدون الحكيم يلملم أطراف الحديث ليصل فى نهايته إلى النتيجة التى يربطها ببدايته ، والجميع مستمتعون بتحليله للموضوعات التى يتناولها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية أو فنية .. الخ ، لقدرته على جذب مستمعه إليه مدعماً كلامه بالحكاية والطرفة والقصة والذكريات ، وغالباً ما كان الحكيم يجد فى زينب ضالته فى الفترة الأخيرة من حياته فيمارس معها رياضته الفكرية فى الحوار والنقاش .. الذى لا يعى منه أحفاده شيئاً فينسحبون من على المائدة بعد أن يكونوا قد تناولوا طعامهم ، دون أن تتنبه أمهم لقيامهم ، إلا بعد وقت طويل ، فما لهم وهذه المناقشات التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل رغم أنها فى كثير من الأحيان تتناول مستقبل جيلهم .

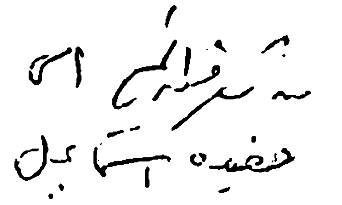
وكما أتاح وجود زينب مع الحكيم الفرصة أمامه ليمارس دور الأب الذى غاب عنه كثيراً ، فإن وجود أحفاده قد جعله يمارس دور الجد ورب الأسرة ، كما كشف له كمفكر عن الفروق بين تفكير واهتمامات ثلاثة أجيال تعيش معه فى بيت واحد ، فضلاً عن كسر روتين الحياة الهادئة المملة التى كان يعيشها وحيداً مع مديرة بيته « منصورة » التى تقدمت بها السن

هى الأخرى ، وقد صارت الأيام أمام الحكيم مثل بعضها ، إما أن يقرأ كتاباً أو يشاهد تليفزيوناً يزعجه ما فيه أكثر مما يعجبه ، أو يجلس مع نفسه يستعيد ذكريات زوجة رحلت ولن تعود ، وابن غاب ولن يكون له ظهور .. حياة رتيبة ، خاصة وأن الحكيم ليست له هواية تعينه على ملء الفراغ الذى يعيش فيه ، حتى جاءت زينب وأولادها « مريم .. إسماعيل .. محمد » والذين حولوا حياة الهدوء التى يعيشها إلى ضجيج مما حول بيته الصومعة إلى بيت آخر لم يعد يعرفه ، حتى شعر الحكيم نتيجة للتغيير الذى أحدثوه فى بيته وحياته كأن هؤلاء الأحفاد أشبه بغرائب الطبيعة أو غزو قادم عليه من الفضاء ، عليه أن يتعامل معهم بالشكل المناسب ، ودار بينهم وبينه صراع ، إما أن يروضهم لطبيعته أو يروضوه هم لطبيعتهم ..

فهل يستطيع الحكيم أن يدخلهم فى كهفه أو يستطيعون هم أن يجعلوه يعيش معهم عصرهم ؟..

الفصل الثالث

المشاغب

 (*)

● أربعة من عشرين لموضوع إنشاء كتبه الحكيم !

● رسالة إلى وزير التعليم .

● مطلوب تليفزيون تديره الوزارة .

● الجد يلعب الكاراتيه مع حفيده .

● أخشى ما أخشاه إدخال الدين كمادة أساسية .

(*) إهداء من الحكيم إلى حفيده كتبه له على صفحة من أجندته دون أن يضيف إليه شيئًا .

إنقلبت حياة توفيق الحكيم رأسا على عقب بعد أن استقر أحفاده فى منزله ومعهم أمهم ، فقد تغير النظام إلى شىء آخر تماماً غير ما تعود عليه الحكيم فى حياته الطبيعية ، إنه يجد التليفزيون فى إحدى الحجرات مفتوحاً على آخره ، وفى حجرة أخرى ، « الكاسيت » تنبعث منه موسيقى مجنونه ، وفى صالة البيت كرة ، تضرب فى الأبواب ، وكتب وكراسات ملقاة يمينا وشمالاً ، وتليفون مشغول بالساعات .. مريم تتحدث إلى صويحباتها .. وهو يريد أن يتكلم فى التليفون فينتظر بحجرته حتى تنتهى حفيدته من مكالماتها ثم يخرج ليجد حفيده إسماعيل قد استلم التليفون من أخته ليتحدث هو الآخر إلى أصحابه ، أما المذاكرة فهى على الأرض بدلاً من المكتب ، والطعام بلا مواعيد ، فى أى وقت « أكل » بين الوجبات الثلاثة ، وأثناء مشاهدة التليفزيون ، وياليت الأحفاد يأكلون بهدوء بل بطريقة تستفز الحكيم فتجعله يقول لهم : مالكم تأكلون فى بوهيمية شكلكم يضايقنى .. الأكل له نظام) ولكن من يسمع له أو يستجيب ، مما يسبب له متاعب نفسية ، فشعرت به ابنته « زينب » وأحست بحرجه من أن يقول لها « خذى أولادك واجلوا عن هذا البيت الذى غيرتم معالمه .. خلاص لا أريدكم) . فهذا آخر ما سيقوله الحكيم خلاصا من هذه الفوضى التى شكا منها إلى ابنته معبراً عن قلة حيلته أمام ما يفعله أحفاده فقال لها « أنا حاسس أنى غير قادر أن أعيش فى هذا الجو الملخبط ، ولكنها حين تسأله « تقدر يا بابا .. تستغنى عنا » ؟ فيقول لها مستسلماً : أنا ؟. لا طبعاً لا أستطيع أن أستغنى عنكم » .

وبدأ الحكيم مع الوقت يتعلم قلة النظام من أحفاده بدلاً من أن يعلمهم هو النظام .. جيلهم هو غلب جيله .. كل جيل يظن نفسه هو البداية وأنه

على صواب وأن ما سبقه كان على خطأ .. ولذلك فإن الجيل الذى يأتى إن لم يلغ ما سبقه فإنه لا يأخذ به ولا يحاول أن يستفيد منه .. وهكذا لا تتواصل الأجيال .. كل جيل مقطوع الصلة بمن سبقه .. ولذلك يقول جيل كهذا الجيل إنه بلا أساتذة .. بلا آباء .. تغير الزمن وهذا صحيح .. وتغيرت ظروف كل جيل عن الآخر .. وهذه سنة الحياة .. ولكن هذا الجيل جمع من المتناقضات والسلبيات أكثر مما جمع جيل آخر .. فهو جيل متمرد ، أكثر جرأة .. أكثر رفضاً .. أكثر اهتماماً بما قد لا ينفع وإن كان يضر .. فأين هذا الجيل من جيل الحكيم .. جيل عقله فى رأسه ، وجيل عقله فى قدميه .. جيل كانت نظرة الأب فيه إلى الابن كفيلة بسحقه ، وجيل أصبح فيه عادياً أن يعلو صوت الابن على أبيه .. يشعل له سيجارته ويدخن معه .. ، فرق بين جيلين كالفرق بين سماء وأرض .. أو شرق وغرب .. شعر الحكيم بذلك بقوة إلى حد الصدمة بعد أن عاش أحفاده معه .. وبدلا من أن ينجح هو فى أن يعودهم على عاداته وتقاليده ، ويقودهم بفكره وخبرته ، وجدهم يقودونه ويتركون تأثيرهم عليه ، فلم يجد هو مفراً من أن يتعود على طباعهم وعاداتهم .. فليس لقادم من كهف الزمن الماضى أن يفرض زمنه على الزمن الحاضر ، تلك هى الحكمة التى حاول الحكيم أن يحفرها على جبين كل عصر ويعلمها لنا فى مسرحيته « أهل الكهف » وآن له أن يطبقها فى تعامله مع أحفاده .. فإن لم يكن بقدرته أن يعود كأهل كهفه بعيدا عن الجيل الجديد ، فلا مفر له من أن يتعايش معه بنفس روحه ويجاريه حتى وإن لم يكن موافقاً على ما يجرى أو يحدث فيه .

لقد حدث نوع من التطبيع بين الحكيم وأحفاده ، أو الكائنات الغريبة الفضائية كما كان يسمهيم بسبب سلوكهم وتصرفاتهم .. فعندما يجدهم يأكلون فى غير وقت الطعام يسألهم عما يأكلون ؟ ويأكل معهم وهو الذى

كان لا يتناول طعاماً إلا فى مواعيد وتوقيتات محددة .. ثم وهو الذى لم يتعود على تناول الأكلات « الحريفة » ، تعود عليها إلى درجة أنه إذا جلس على الطعام وافتقدها يقول لابنته « عندك إيه حاجة « حراقة » آكلها ؟!

لقد أصبح الحكيم مثل أحفاده إلى درجة لم تكن تتخيلها إبنته زينب فى يوم من الأيام .. لقد فوجئت به يمشى فى حجرته « حافى القدمين » .. فوقفت تنظر إليه فى دهشة وكأن قدميها قد ثبتت بمسامير فى الأرض للمفاجأة التى استولت عليها .. ولكنها حاولت أن تجد مبرراً للمفكر الكبير .. ظنت أنه ربما كان ناسياً نتيجة سرحة من سرحاته التى ينسى فيها نفسه وما حوله ومن حوله ، أو قد يكون نسيانه بفعل الشيخوخة فلها أحكامها التى تبيح العذر لصاحبها .. ونبهته قائلة « بابا .. انت ماشى حافى ؟! فقال لها بلا أدنى حرج أو تردد « ما خلاص بقى » !.. يعنى فات وقت التعجب لقد صار مثل أحفاده أو قد صيروه مثلهم .

ولكن كله يهون أمام ما يلاحظه الحكيم فى مقررات أحفاده الدراسية .. مريم بالمرحلة الإعدادية .. « وإسماعيل » بالمرحلة الابتدائية .. يفتح كتبهم أثناء وجودهم بالمدرسة أو أثناء جلوسهم فى البيت للمذاكرة .. فمنهج اللغة العربية ليس مما يجيده التلاميذ فى لغتهم ناهيك عن طريقة تدريسها .. وهذه الرياضيات الحديثة .. المعقدة .. يحمد الحكيم ربه أنها لم تكن موجودة على أيامه وإلا ما كان قد نجح أبداً .. ورغم أن أمريكا قد عدلت عن تدريسها إلا أنها لا تزال تدرس عندنا .. يتساءل الحكيم : لماذا الإصرار على التعقيد وتنفير أبنائنا من التعليم ؟ ولكن كله كوم والتربية الدينية كوم آخر لدرجة أن أخوف ما يخافه الحكيم هو إدخال « الدين » فى المدارس (كمادة أساسية بدلاً مما هى عليه الآن كمادة غير داخلة فى المجموع) . يسأله التلميذ : لماذا ؟ ويجيبه إننى أسمع من أولياء الأمور

أنهم يجدون أولادهم فى حالة خوف شديد ومشقة شديدة من إدخال الدين فى المدارس كمادة أساسية لأن المسئولين عن التعليم لا يختارون فى المقرر الدينى إلا أصعب الآيات لغة ومضموناً وهذا مما ينفر من الدين أكثر مما يحبب فيه ، بينما فى جيلنا نحن كنا نقبل على حصة الدين لأن الدين كان يصور لنا بصورة مبدعة .. فكانت الآيات المقررة قصيرة وبسيطة تتدرج بعد ذلك مع مداركنا وأفهامنا كلما صعدنا درجة من درجات الدراسة .. كما كان الأستاذ أو الشيخ الذى يدرس لنا يروى قصص الأنبياء بطريقة تستهوينا .. لهذا لم نكن نشعر أبداً أن «الدين » شىء صعب مثلما يحدث اليوم مع أن الدين بسيط فى تعاليمه ، ويجب أن يكون كذلك بسيطا فى طريقة تناوله للطلبة ، وهذه هى البداية لتربية سلوك يتمشى مع طبيعة الإسلام وبساطته .. وبهذا يكون الدين أداة للرقى ، وبذلك تتخرج لدينا أجيال تتفهم المعنى الحقيقى للإسلام .. ولكن ما يحدث عكس ذلك تماماً .. فليس فى برنامج المدرسة ما يدل على مباشرة هذا السلوك » .

فسور القرآن بوجه خاص ومنهج الدين المقرر ليس فى مستوى تلميذ فى مرحلة إبتدائية .، ولذلك كان الحكيم يقول لحفيده إسماعيل متعجباً : هذه السور مقررة عليكم ؟.. أنتم تتعبون جداً » . بل حتى الموجهين للفكر الدينى من شيوخ المساجد .. بعضهم يميل إلى التعصب .

يستأذن الحفيد ، « جده » فى النزول يوم ا لجمعة لأداء الصلاة .. فيبدو السرور على الحكيم ويسأله : هل تصلى يا إسماعيل ؟ ، ويشجعه ، ويوصيه أن يحذر السيارات وينظر يميناً وشمالاً قبل أن يعبر الشارع تجنباً للحوادث التى أصابت « زيداً وعمراً » ، .. ويعود إسماعيل ليسأله جده عما قاله خطيب المسجد فى خطبته للمصلين ، فيخبره بأنه تناول ادعاءات المسيحيين ببنوة المسيح لله. ، فيتعجب الحكيم ويتساءل : هل هذه قضايا تطرح على الناس فى المسجد .. إنهم يؤججون نار التعصب والفتنة .. إن

رجال الدين أولاً وأخيراً هم المسئولون فى الأغلب فى أن الشباب الغيور على دينه لجأ إلى العنف لأنه وجدهم لا حول لهم ولا قوة وقد أهملوا مسئولياتهم فى توجيه الشباب والتفتوا إلى الدين من حيث هو شعائر ونصوص وحلال وحرام .. وكلام ليس له دخل فى المهمة الحقيقية التى يجب على رجال الدين القيام بها لأنهم الورثة الحقيقيون للنبى صلى الله عليه وسلم فى أن يحتفظوا بالأمة الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس بعد أن ارتفع بها الرسول من محيط الجاهلية .. ولكنهم نظروا إلى مظهر الدين وليس إلى جوهره وتركوا الشباب حائراً لايجد من يقوده فقاد نفسه، وكانت النتيجة التى يعرفها الجميع.

ويحاول الحكيم أن يصلح فى عقل حفيده ما أفسده فيه خطيب المسجد من بذر بذور التعصب مفهما إياه فكرة الدين الصحيحة وأنه دين يسر وسماحة .. وليس دين عسر وتعصب، ولكن الحفيد لا يستطيع أن يفهم أو يعى كثيراً ما يقوله له « جده » الذى رغم ذلك يحاول أن ينزع من رأسه أى أفكار قد تترسب فى عقله الباطن تكون لها مردوداتها كلما نما وكبر، ولذلك كان الحكيم يسأل حفيده كلما عاد من صلاة الجمعة عن موضوع خطبة إمام المسجد ليطرد له منها بالشرح والتحليل ما يكون قد علق بذهنه من مفاهيم خاطئة لأمور الدين، لأن إمام المسجد يكون أكثر تأثيرًا فى الفتية والشباب من المدرسة التى تنفرهم بمناهجها ومقرراتها الدينية من فهم الدين فهما صحيحا، رغم أن المدرسة والمسجد يلعبان دوراً هاماً بجانب وسائل الإعلام فى التربية والنهوض والرقى، وإذا كان الحكيم يستطيع إيجاد التوازن لحفيده مع ما يسمعه من خطيب المسجد، فما الذى يستطيع أن يفعله مع منهج المدرسة .. لا شىء يملكه كمفكر سوى أن يطالب بإحداث « ثورة فى التعليم » ونظامه الذى أدى إلى انتشار الدروس الخصوصية ووصل إلى درجة الغش الجماعى فى الامتحانات العامة .. فقد

كان الحكيم يغضب عندما يرى « معلمة » تخرج وأخرى « تدخل » لإعطاء حفيدته « مريم » دروساً خصوصية مما جعله يقول لأمها زينب « لا داعى لأن تذهب مريم إلى المدرسة وهاتوا لها مدرسين فى البيت وتذهب آخر السنة للامتحان » .. ولكن الحكيم يفاجأ بأخبار المهزلة التى وقعت فى لجان الامتحانات فى بعض المدارس الإعدادية بمدينة الحسينية بمحافظة الشرقية وبعض البلاد التابعة لها عندما اقتحم بعض أولياء أمور التلاميذ ، لجان الامتحانات وخطفوا أوراق الأسئلة وخرجوا بها ، ثم عادوا بعد دقائق إلى اللجان مرة أخرى وقد كتبوا الإجابات على أوراق الأسئلة ، بل إن « ميكروفونا » قد تم وضعه فوق أحد المساجد القريبة من إحدى اللجان وكانت تذاع منه الإجابات علانية على أسئلة الطلبة فى الامتحانات .. مما جعل الحكيم يقول ساخراً معلقاً بمرارة « دروس خصوصية وأيضا غش ؟!. المفروض أن يجعلوها غشًا ولا داعى أن ندفع فلوساً للدروس الخصوصية » .. على أنه رغم الدروس الخصوصية التى كان يتكبد الحكيم مصاريفها لحفيدته « مريم » بالمرحلة الإعدادية إلا أنها لا تستطيع حتى أن تجيد كتابة موضوع إنشاء » ، ولذلك جاءته يوماً بدلا لها عليه قائلة « يا جدو .. فى المدرسة طالبين موضوع إنشا عن « أضرار المخدرات » .. كيف أبتديه ؟ » .. فراح يعطيها أفكاراً للموضوع الذى طلبته ولكنها طمعت فيما هو أكثر متكاسلة عن كتابة موضوع الإنشاء وطلبت من جدها أن يريحها ويكتبه لها ، وظنت أنها بذلك ستحصل على أكبر درجة فى حياتها الدراسية عن موضوع إنشاء ، ولكن كانت تنتظرها مفاجأة لم تكن أبداً تخطر على بالها ولا بال أمها ، فقد جاءتها من مدرستها وهى تقول لها « هل رأيت أبيك الذى أنت فخورة به .. لقد حصلت على أربعة من عشرين على موضوع الانشا الذى كتبه لى .. يعنى « يا مامى » لو كنت أنا كتبته على الأقل كنت أخذت ١٢ أو ١٣ درجة وليس

أربعة » ! وتضحك مريم ، وتضحك معها أمها التى تقول لابنتها : وهل عرفت « المعلمة » أن جدك هو الذى كتب الموضوع ؟ ، قالت مريم « خجلت أن أقول لها » ، فتقول لها « زينب » وهى لا تزال تضحك على المهزلة « نفسى إنك تقولى لها » .

وكان العذر الذى هو أقبح من الذنب ، وساقته معلمة « مريم » عندما أخبرتها أن موضوع الإنشاء الذى كتبته واستحقت عليه الأربع درجات من عشرين ، كان بقلم جدها المفكر الكبير ، بررت ذلك بأن الموضوع لم يستكمل كل جوانبه وعناصره !

لقد كان توفيق الحكيم فى طفولته بالمرحلة الابتدائية يحصل على أعلى الدرجات فى موضوعات الإنشاء ، فما باله وقد صار شيخ الكتاب يحصل على أضعف الدرجات ؟! ، وهو لم يعرف حتى رحيله بالأربع درجات التى حصل عليها ، ولاشك أنه لو علم بذلك لتأكدت له وجهة نظره عن فشل نظام التعليم الذى لا يستحق فيه مفكر كتوفيق الحكيم سوى الرسوب فى موضوع إنشاء يكتبه لحفيدته .

* * *

وكانت ملاحظة توفيق الحكيم لتدهور التعليم ، قد جعلته يطالب بثورة فى التعليم ، وخاطب أحد وزراء التعليم* يقترح عليه قائلا :

« وحبذا لو أنفق، حتى المليار فى إنشاء تليفزيون خاص بالتعليم ، تديره وزارة التربية والتعليم وتضع برامجه طبقاً لمراحل العمر ، ومقتضيات المراحل الدراسية وتجعل من هذه البرامج نموذجاً للمنفعة والمتعة معاً .. وتستعير الأفلام الملائمة لهذا الهدف العظيم من مختلف البلاد المتقدمة .. إن

(*) د . عبد السلام عبد الغفار الذى دخل فى حوار مع توفيق الحكيم اداره المؤلف حول معنى الثورة والتطوير ، وملحق فى الباب الخاص بالوثائق ، صورة بخط الحكيم للاقتراح الذى يرى فى تحقيقه إحداثا للثورة التى دعا إليها .

وزارة التعليم بهذا التليفزيون وإدارته الخاصة الملحقة بوزارة التربية والتعليم .. سيكون هو التطوير بل هو « الثورة التعليمية » النافعة المحببة ، التى ستحدث الأثر العظيم فى المجتمع كله والمستقبل كله ، وتكون مثلاً وقدوة يتبعها العالم كله فى دهشة وإعجاب ....) .

* * *

وإذا كان الحكيم يدعو لثورة فى التعليم ، من أجل مستقبل جيل أحفاده والأجيال التالية ، ويقارن بين التعليم الجيد فى عصره ، وبين التعليم المتدهور فى عصر أحفاده ، إلا أنه يغبط جيل الأحفاد على ما أتيح لهم من وسائل الثقافة والترفيه :

لعب ، تليفزيون ، فيديو ، نوادى ، حرية فى القراءة لأى لون من ألوان الثقافة والمعرفة والتسلية دون حسيب ولا رقيب ، وهو ما لم يكن متوفرًا لجيله ، فهو لم يكن حرًّا فى اختيار ما يقرؤه من روايات وقصص ، لأن والده كان يفرض عليه نوعية معينة من القراءة التى لا يحبها ، فكان يقرؤها إرضاء لأبيه ، وكان يختفى بما يريد قراءته بعيدًا عن عيون أهله كما لو كان يرتكب ذنبًا ، فكان يتسلل حاملاً الكتب ليقرأها تحت السرير على ضوء شمعة ، نسيها ذات يوم ، فكادت تشعل حريقًا فى البيت لولا لطف الله .

أما اليوم فى هذا الجيل فباستطاعة « مريم » حفيدة الحكيم أن تقرأ روايات « عبير » العاطفية دون أدنى خوف أو حرج ، وباستطاعة حفيده « إسماعيل » أن يقرأ الروايات البوليسية التى يحبها ، بدون أن يجبره أحد على قراءة شئ غيرها ، بل كان باستطاعة أحفاد الحكيم أن يعرضوا عن قراءة ما يهديهم به جدهم من كتب لينمى فيهم حب الاطلاع والمعرفة والثقافة ، مما يناسب أعمارهم ، فكانوا يأخذونها فرحين بشكلها وصورها

الملونة شاكرين جدهم ، دون أن يقرءوها ، فالحفيد يهوى لعب الكرة ومشاهدة أفلام الكاراتيه فى الفيديو ، وقراءة الألغاز والقصص البوليسية .

أما الحفيدة فتهوى مشاهدة المسلسلات والأفلام ، وسماع الأغانى ، وقراءة الروايات العاطفية . لا شئ مما يحضره لهم جدهم يستهويهم ولا شئ من حواره مع أمهم على مائدة الطعام يعنيهم ، فيظل الحوار بين طرفين :

الأب وابنته ، أما إذا شارك الحفيدان فى الحوار ، فلكى يحدثا جدهما عما شاهداه فى أفلام الفيديو ، أو يحكيا له عن أصحابهما وأساتذتهما فى المدرسة ، فيقلد حفيده إسماعيل ، مدرسيه فى كلامهم وحركاتهم بطريقة كاريكاتورية تثير الضحك ، ولكن الحكيم يظل صامتا يعود بذاكرته حينما كان فى مثل سن حفيده ، وكأنه يذكره باثنين من زملاء الدراسة الأولى ، وكانا يفعلان شيئًا مع أساتذتهم يشبه بعض ما يفعله حفيده اليوم ، وقد مرت الأيام وأوقعهما سوء حظهما فى يده عندما كان وكيلاً للنيابة بمدينة طنطا ، حيث قدما إليه فى « محضر تلبس » فى عملية نصب على الطريقة الأمريكانى حينما طلبا من « دخاخنى » علبتى سجائر ، « وفكة » عشرة جنيهات ، فأعطاها لهما البائع دون أن يأخذ العشرة جنيهات ، وأسرعا إلى سيارتهما الفخمة ، لولا أن توقف محركها ، فتم القبض عليهما ، ليقعا فى يد زميلهما فى الدراسة ، توفيق الحكيم الذى صار وكيلاً للنيابة ، وتذكر لحظتها ماذا كان يفعل أحدهم ، بأحد الأساتذة الذين أطلقوا عليه اسم الشيخ « بنجر » الذى كان يقذف التلاميذ المشاغبين « ببلغته » ، حتى فكر هذا التلميذ الذى كان يجلس بجوار النافذة ، فى إضحاك زملائه على أستاذهم ، حينما قذفه الأستاذ بهذه « البلغة » فتفاداها بسرعة لتسقط خارج النافذة ، ليظل الأستاذ حافيا يلعن ويسب !

وأفاق توفيق الحكيم من ذكرياته على ضحكات حفيده وهو يقلد

مدرسيه ، وراح الجد يتجاوب معه وإن لم يوافق على ما يفعله ، فهو يحبه لأنه يحمل اسم وحيده الراحل « إسماعيل » ، صاحب تسمية الحفيد بهذا الاسم على غير رغبة من أمه التى كانت لا تستسيغ أن يوجد اثنان فى أسرة واحدة باسم واحد ، ولكن إسماعيل خال ابنها ، كان كمن يتنبأ لنفسه بأنه لن يعيش طويلاً ، فقد أبدى رغبته لأخته زينب أن تسمى مولودها القادم إن كان ولدًا ، على اسمه ، فوافقته على غير إقتناع وساعتها يحلها ربنا ، حتى كانت ساعة مجئ وليدها ، فتم إبلاغ إسماعيل تليفونيًا وكان خارج البيت ، فقال : مبروك إسماعيل .. أسموه إسماعيل .

مما أحرج زينب ، وهاهو إسماعيل الحفيد يعوض الحكيم عن إبنه ولو بمجرد حمله لاسمه ، ولذلك كان الحكيم يهتم بحفيده ويعمل على إعداده ليكون رجلاً مؤهلاً لخوض غمار الحياة مسلحًا فيها بالعلم والثقافة والهوايات أيضًا ، لذلك حاول الحكيم أن يقرب المسافة بينه وبين حفيده ، عله يعوض معه فى طفولته ما لم يتح له أن يفعله مع إبنه عندما كان فى مثل سنه .

فكان يهتم بدراسته ، ونتائج إمتحاناته ، فيقول له :

تعال يا اسماعيل فرحنى ، فيسعده الحفيد بتفوقه ، معتمدًا على نفسه ، دون حاجته كأخته إلى دروس خصوصية وهذا مما يجعل الحكيم أكثر بهجة بحفيده الذى يحصل على درجات عالية بمجهوده .. حتى فى العام الدراسى الأخير (الذى توفى فيه الحكيم) حينما انشغلت زينب بوالدها المريض مما أخذ منها الوقت الذى كانت تمنحه لإبنها لمتابعة دراسته ، فشعرت تجاهه بالتقصير ، لذلك كانت تسأله : هل أنت محتاجنى يا إسماعيل » ، فيدرك هو حاجة والدها إليها فيقول لها بذكاء الجيل دون

أن يصرح باستغنائه عن أمه ، فهو لا يستغنى عنها أبدًا : « أنا غير مهم .. ابق مع جدو فهو محتاجك أكثر منى » .. ولذلك كان الحكيم كلما رأى حفيده يقول له مشجعًا « أقعد ذاكر .. أنا مبسوط منك لأنك تذاكر وتعتمد على نفسك بعكس أختك التى تعتمد على الدروس الخصوصية .. دعك منها إنها خائبة .. أما أنت يا إسماعيل براڤو عليك أنت مجتهد وشاطر .. وحذار أن تأخذ دروسًا خصوصية فهى ستضيع وقتك » ورغم أن الحكيم معجب جدًا بحفيده لتقدمه الدراسى إلا أنه كان يتأثر نفسيًّا جدًّا عندما يراه عديم النظام يجلس على الأرض ويذاكر .. فكانت أمه تدافع عنه بعدم وجود مكتب ليذاكر عليه إسماعيل ، فيقول الحكيم لها : لكن فيه « ترابيزات » وهى مثل المكاتب ، فتقول له زينب : الترابيزات ماتنفعش يابابا .. لازم يكون فيه مكاتب له ولأخته .. وتحاول الأم أن تبرر للحكيم عدم نظام ابنها بأنه ليس نابعًا منه ولكن المشكلة فى عدم وجود مكتب .. غير أن زينب اكتشفت أنها قد جانبت الصواب .. فبعد ما اشترت مكتبًا لإسماعيل لم يتغير الوضع .. إنه يلقى بكتبه على طاولة ذراعه على السرير بمجرد عودته من المدرسة ، ويفضل كما تعود أن يجلس على الأرض ويذاكر ، ومما يتعب الحكيم نفسيًّا أيضًا أن يرى حفيده يستعمل « التكنولوجيا » فى « الحساب » ولا يستخدم عقله ، فحين يبعثه ليشترى له « أدوية العلاج » من الصيدلية يطير الحفيد فرحًا لأنه سيتقاضى « عمولة » عندما يقضى لجده بعض حاجياته ، وعندما حاولت زينب أن تنبه والدها ألا يجعل مسألة « العمولة » عادة دائمة ، لأن ذلك لن يجعل حفيده يقضى له شيئًا ، حبًّا فى جده ولكن حبًّا فى العمولة ، فيكون رد الحكيم المعبر عن فهمه لطبيعة الجيل الجديد :

هذا جيل لا يتحرك إلا بالفلوس .. لن يسير أو يفعل شيئًا إلا بالفلوس » .

يقولها الحكيم جادًّا مع شعوره بالهزيمة أمام هذا الجيل ، ولكن ليس له حيلة إلا أن يجاريه ويتفاهم معه بلغته وأسلوبه . وكان الحفيد يترصد جده حينما يراه صامتاً أطول فترة ممكنة ، فلا يتكلم ولا يسمع من يكلمه ، مما يكون إرهاصًا بالاستعداد لكتابة شئ ما يديره فى رأسه ، فينتظر الحفيد حتى يدخل جده إلى عالم الكتابة وإنهماكه فيها ، وساعتها يطالبه بما يريد من نقود ، فهذا هو الوقت المناسب الذى لا يستطيع فيه جده إلا أن يجيبه إلى ما يريد تخلصًا من إزعاجه حتى لا يقطع حبل أفكاره .

ورغم صراخ الأم لابنها أن يبتعد عن حجرة جده ، إلا أنه لا يضيع فرصة جاءته من أجل مزيد من النقود . وكان الحفيد كلما أراد النزول إلى النادى أو زيارة أصحابه ، يقول لجده : ألا تريد أن أشترى لك شيئًا ياجدو ؟

فيدرك الحكيم مقصد حفيده الماكر فيقول له :
هل تريد أن تأخذ كل يوم عمولة ؟! وفى إحدى المرات التى عاد فيها الحفيد بعد شرائه أدوية لجده ، طلب منه الحكيم أن يحسب له ما هو المنصرف وما هو المتبقى لكى يتركه له ، فيسرع الحفيد إلى « الكلكليتور » أو الآلة الحاسبة ، فيتضايق الجد من هذا السلوك التكنولوجى الذى يمارسه الحفيد فى غير موضعه حيث لا يجب استخدام هذه الآلة إلا فى المسائل العويصة ، ولكن استخدامها فى المسائل البسيطة له خطره على العقول فتتعطل ملكة التفكير وتضمر ، ويصير الإنسان عبدا للآلة التى صنعها .. لذلك حين كان الحكيم يتوقف مفكرًا فى مستقبل الفكر الإنسانى أمام التقدم التكنولوجى ، لم يكن يستبشر خيرًا ، فإن القرن القادم سيكون هو قرن الحضارة الآلية بدلاً من الحضارة الإنسانية .
ينبه الحكيم كمفكر إلى خطر المغالاة فى استخدام الآلة أكثر من

العقل ، وكانت ابنته زينب ، تلمس انزعاجه ، فتحاول التقليل من استخدام ابنها للآلة .

ولم يكن الحكيم بذلك عدوًّا للتكنولوجيا والأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، ولكنه كان مرحبًا باستخدامها شرط ألا يعطل القدرات والطاقات والملكات البشرية ، وقد ظل الحكيم طوال حياته لا يستطيع استخدام آلة من الآلات ، حتى جهاز التسجيل لم يكن يستطيع أن يتعامل معه فى تلك المرات القليلة التى يستخدمه فيها ، إلا بواسطة ابنته ، وإذا قامت بتشغيله له فإنه لم يكن يستطيع أن يوقفه إذا أراد ، ولكنه ظل يستخدم يده لتحريكها فى الكتابة ، رياضته المفضلة ، بل عشقه المتيم به حتى آخر العمر ، كما كان يحرك قدميه بممارسة هواية المشى ، حين كان قادرًا على ذلك ، ولم يكن يفضل ركوب السيارات لأنها فى نظره تعجل بقدوم الشيخوخة والمرض ، أما السير على الأقدام فيحول دونها ، ويعيد الشباب ، ولم يتخل الحكيم عن هذه الرياضة حتى بعد أن وهنت عظامه ، فكان يتجول فى صالة البيت وبين حجراته ، بل إنه فى كل ما يخصه كان يحاول أن يقوم به بنفسه قدر استطاعته ، حتى فى فترة مرضه .

إنه يطهو الشاى لنفسه ، وينظف « بذلته » بمعرفته ، وأحيانًا ما كان يقوم بغسيل قمصانه ، وتلميع حذائه ، كما كان حريصًا على ترتيب فراشه بعد استيقاظه لأنه لم يكن يطيق أن يرى حجرة نومه « منكوشة » . ولقد حاول الحكيم مع حفيديه أن يستخدما مثله أدواته البشرية ، فيشجع مريم على أن تكون ست بيت ممتازة ، ويجارى إسماعيل حفيده فى هواياته بل ويشاركه فيها أحيانًا ، ولكن كله كوم ، والموسيقى كوم آخر ، إنه يصرخ فى حفيده كلما رآه أو سمعه يعزف على البيانو الموجود فى مدخل البيت ، فينهاه ويزجره ، ويقول لأمه :

أرجوك ابعديه عن المزيكا .. ربنا يخليك .. كفاية واحد » .

فهو يرى أنه لو ترك حفيده يسلك طريق الموسيقى الذى سلكه ابنه ، لتكررت نفس المأساة ، وما عدا الموسيقى فإن الحكيم يترك حفيده لممارسة أى هواية أخرى حتى لو لم يكن مرتاحًا لها أو راضيًا عنها ، وذلك حتى لا يحرمه منها كما حرم هو نفسه فى صغره من هوايات كان يحبها لولا أهله الذين أبعدوه عنها أو أساءوا توجيهه إليها ، مثلما فعلوا عندما انتزعت منه أمه « العود » بحجة أن ذلك يشغله عن دراسته . وعندما أراد أبوه أن يعلمه العوم ، جذبه من يده إلى حيث يسبح هو فى الأعماق دفعة واحدة ، فخاف من البحر وأمواجه ، وأقسم ألا يضع قدمه فى ماء بحر أبدًا منذ أن كان عمره عشر سنوات ، واستعاض الحكيم عن العوم فيه ، بالصيد منه عند ما كبر ، وحينما كان يزور قريته « أبو مسعود » فى ريف محافظة البحيرة ، لم يحدث أن وقعت سمكة فى سنارته ، فكان أقرانه يجاملونه بأن يضعوا له سمكة فيها ، ليدخلوا على نفسه البهجة والسرور ، ولكنه كان يعلم أنه لن يفلح فى هواية أحبها ، ولكنها نزعات ترتدى أزياء مختلفة بحسب الظروف والأحوال ، فقد كان يحب الرسم ويجتهد لكى يبرز فيه ، ولكنه لم يجد أحدًا يشجعه على الاستمرار فيه ، غير أن أجمل شىء كان يجذب الحكيم فى طفولته هو « الأراجوز » ، حيث أن فرح الدنيا لم يكن يثير فى مشاعره ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة ، وهو يقترب من الحى الذى كان يعيش فيه .

أما اليوم عندما يشاهد الحكيم ، هوايات حفيده ، يراها هوايات خالية من الفكر والفن والخيال ، إنها هوايات تتسم بطابع العصر المتسم بالعنف ، فقد نشر التليفزيون ثم الفيديو ، رياضات كالكرة التى لا تخلو من عنف ، والكاراتيه ، بما تبثه الشاشة الصغيرة من أفلام بوليسية تستهوى الأطفال والشباب ، فأضاعت أجهزة الإعلام وأخطرها التليفزيون ، الحياة فى « المعنى » ولم يعد الإنسان يستطيع أن يعيش إلا فى

« المادة » ، ولم يعد فى مقدوره أن ينفخ الروح فى شيء ، لذلك كان الحكيم يرى أنه لابد من فنانٍ يحتفظ ببعض قوى الطفولة ، فينسج من خياله صورًا توسع ولو قليلاً من أفق الحياة المادية الضيقة .

ولكن الحكيم الفنان لم يكن يستطيع أن يعيش مع خياله كثيرًا ، فقد كان حفيده يضطره إلى أن يظل مشدودًا إلى الواقع ، فكيف وأين للخيال أن ينمو ، والكرة التى يلعب بها حفيده تهز أبواب حجرات البيت ، وهو يصيح مع كل قذيفة « جول .. جول » .

مما جعل الحكيم يكاد يخرج من حجرته ليصرخ فيه ، أن يكف عن هذا الإزعاج ، ويذاكر له كلمتين ينفعوه . ولكن الحكيم يتراجع ، فقد تذكر أن حفيده متفوق فى دراسته ، ومن حقه أن يلعب ، وتذكر إلى جانب ذلك كيف أن من أكبر أخطاء حياته أنه لم يتعلق بلعبة أو هواية ، مما جعل حياته جافة ، فليلعب حفيده الكرة ما شاء له أن يلعب ،أليست هى تعبيراً عن أحد معالم العصر ؟. يسأله التلميذ عن رؤيته لمجتمعنا فى هذا العصر ؟ ، فيقول المجتمع تطور فصار فريقين :

مجتمع الكورة ، ومجتمع القهوة ، ناس يلعبون الكرة أو الطاولة ، ويقولون صائحين « جول » أو « شيش بيش » ، ويمر بهم بائع كتب يصيح « العقد الفريد .. لابن عبد ربه » ، الأيام « لطه حسين » ، العبقريات .. للعقاد » ، « الحمار .. للحكيم » ، فيطرده « الجرسون » قائلاً له : « امشى بره مفيش حمار هنا » !

يسأل التلميذ : وما تعليل ذلك ؟ يقول الحكيم : أنه قليل من يفهم أنه فى حاجة إلى عقل آخر غير عقله ، وهذا القليل إذا فهم أن المفكر قد نفعه فهو قلما يجهد كفيه فى التصفيق له ، وقد قيل إن مكتشف « البنسلين » ، والذى نفع الناس كثيرًا باكتشافه ، قد ذهب إلى وطنه ، فلما نزل من « القطار » وجد حشدًا من الناس على المحطة ، فحسبهم جاءوا

لاستقباله ، وإذا الناس يصفقون ويهتفون فى جهة أخرى ، وإذا بممثلة سينما مشهورة قد نزلت من القطار فتدافع الجمهور المحتشد نحوها ، فعرف « العالم المفكر المكتشف » أن حشد المستقبلين لم يكن له .. بل كان للممثلة المشهورة !.

* * *

وينشغل الحكيم بمستقبل حفيده وكل جيله وهو يرى ملامح المجتمع ورموزه تتمثل فى كورة ، وقهوة ، ومغنى ، وتمثيل ، ولذلك يرى أن الشباب معذور إذا راح يحسب المسائل ويقارن بين ما سوف يحصل عليه بعد تخرجه ، من الوظيفة حتى لو أخذ شهادات الدكتوراه ، وبين ما يحصل عليه لاعب كرة فى « جول » واحد ، أو مطربة فى أغنية واحدة ، أو راقصة فى هزة بطن واحدة . ولكن من هو المسئول ؟

يطرح الحكيم تساؤلاته وملاحظاته على إبنته أثناء تناول الطعام ، ويجيب :

الحكومة مسئولة عن وجود هذه التناقضات فى اتجاهات الشباب لأنها تشجع المجتمع على أن يكون مجتمعًا ماديًّا ، وتبالغ فى التقدير المادى لفئات فى المجتمع تصبح هى المثل العليا للشباب فى تحقيق طموحاتهم المادية ، والتقليل من شأن الطموحات الفكرية .. فتسأله ابنته : ولكن ألا يتحمل المثقفون جزءًا من المسئولية ؟

فيوافقها الحكيم ويقول لها : للأسف لا يوجد عقل للمجتمع من المثقفين ينبه إلى خطورة هذا الوضع أو يؤثر فى الدولة لكى يصبح للفكر قيمة .

ورغم عدم رضاء الحكيم عن لعب حفيده بالكرة إلا أنه من ناحية أخرى لا ينهاه عنها لكى لا يحرمه من هواية يحبها ، كما حرم وهو فى مثل سنه من التعلق بلعبة ، مما يندم عليه اليوم ، فليعش مع حفيده طفولته

بطريقته ، لذلك كان يفتح له الصحف والمجلات على الصفحات الرياضية ليقرأها حفيده بعد عودته من المدرسة ، وغير مسموح لأحد بمطالعتها قبله ، حتى أمه زينب لا يسمح لها والدها بذلك ، وإذا كان ولابد فعليها ألا تغادر الحجرة بتلك الصحف .

ولأن الحفيد إسماعيل يشجع فريق « الزمالك » ، فقد كان الحكيم يتخذ من ذلك مناسبات لمداعبته واستفزازه فى بعض الأحيان حتى لا يلحظ أنه يسخر منه أو يتضاحك عليه ، فيتخذ الحكيم جانب « الفريق الأهلى » ويتظاهر بتشجيعه ، وقد اتهم الحفيد ، كابتن الأهلى ، محمود الخطيب ، بأنه السبب فى إقناع جده بتشجيع « الأهلى » ، بعد أن قام بزيارته فى مكتبه !

وحين يهزم « الأهلى » ، « الزمالك » ، يتلقى الحفيد لوم وتقريع جده ، كلما رآه يمارس شقاوته ، أو يعلو صوته على أخته « مريم » عندما يطلب منها شيئًا فلا تجبه إليه ، بحجة أنها مشغولة فى المذاكرة ، فيسكته جده بمعايرته بهزيمة فريقه ، ويقول له :

هو انت لك عين تتكلم والزمالك خيبان وانت خيبان ؟ » .

أو يقول له حين يفوز « الأهلى » على « الزمالك » بالدورى : ابك على خيبتكم .. بقى لك سنة تقوللى زمالك .. زمالك .. وفى النهاية الأهلى هو الذى أخذ الدورى » . فيبرر الحفيد هزيمة فريقه بأن اللاعب الفلانى لم يشترك فى المباراة ، ولو كان موجودًا مع فريقه ما انهزم . أو أن الحكم لم يكن منصفًا ، أو أنه سوء حظ لازم اللعيبة .

ولكن الحكيم يقول لحفيده : الخلاصة إن فريقكم لا يعرف كيف يلعب لأنه لم يعرف كيف يتدرب .. وعندما يجد الجد حفيده يرتدى ملابس الرياضة الحمراء يقول له :

مادام انت زملكاوى .. فلماذا ترتدى ملابس الأهلى ؟

أما إذا فاز الزمالك ، فإن الحفيد يجد فرصته ليغيظ الحكيم ، متشفيا فيه اعتقادا منه أنه أهلاوى ، فيقول له :

هل رأيت ياجدو .. الزمالك فاز وغلبكم » .

فيصمت الحكيم مخفيًا ابتسامته ، متظاهرًا بالهزيمة وكأنه لا يستطيع تبريرها .

وأحيانًا كانت تحدث مثل هذه المناقشات الكروية بعد مشاركة الحكيم لحفيده فى مشاهدة ما تشات الكرة على شاشة التليفزيون خاصة تلك التى يتنافس فيها الزمالك مع فريق أجنبى ، ويرى كيف يهتف الجمهور ويصرخ ويقوم ويقعد ، ويرقص ويؤلف الأناشيد والأغانى ، عند إحراز أى « جون » ، وكيف يصبح اللاعب فلان ، أو اللاعب علان « بالجون » الذى سدده فى مرمى الخصم ، حديث الناس وتعليقات الصحف لأيام متوالية ، وكأن هذا اللاعب « بالجون » الذى أحرزه قد حل مشكلة من مشكلات مصر .

ويرى الحكيم فى حفيده وجيله ، نتاجا لهذه السياسة ..

وكان كثيرًا ما ينشغل بالفكر والتحليل والتأمل وهو يشاهد مع حفيده ما تشات الكرة التى يظل سارحًا عنها أغلب الوقت ولا يبدى أى انفعال من تلك الانفعالات الصاخبة التى يبديها الجمهور فى الملعب ، وتنتقل عدواها الهستيرية إلى حفيده الجالس بجواره ، ولا يفيق الحكيم من تأملاته ، أو يخرج منها إلا على نهاية المباراة ، فيداعب حفيده طبقًا لنتيجتها ، ويسعده أن يخسر الفريق الذى يشجعه الحفيد ، حتى يكون هناك مجال لمشاكسته ومعايرته بهزيمة فريقه ، فى محاولة منه لتهدئة انشغاله بالكرة إلى هذا الحد .

فها هو الفريق الذى يتعصب له قد نالته الهزيمة ، فلا داع لأن يشجعه ويشغل نفسه به طوال العام ، ثم تخيب آماله فيه .

هذه المعانى وغيرها مما يريد الحكيم أن يصل بها إلى عقل حفيده ، ولكن تأتى النتيجة عكسية ، فالحفيد يزداد تعصبًا لفويقه وتعاطفًا معه ، ومبررًا أخطاءه .

* * *

وإذا ما انفض « مولد » الكرة ، نصب الحفيد ، مولد « الكاراتيه » ، وكانت أيامها موضة أفلام « بروس لى » سائدة ، والحفيد معجب بهذا النموذج للإنسان البطل الذى يدافع عن نفسه وينتصر على الأشرار بقوته التى يظهرها بممارسة « الكاراتيه » كوسيلة لإثبات بطولته ، ولذلك كان الحفيد يحاول أن يقلده فى حركاته وصرخاته التى تملأ البيت وتزعج الحكيم وتقلق راحته ، فما يكون من الحكيم إلا أن يلعن « بروسلى » هذا أو يشتمه لأنه السبب فى هذا الازعاج الذى يسببه له حفيده ، وفى إحدى المرات التى كان يزور فيها الحكيم ابنته فى الاسكندرية حينما كانت لا تزال تقيم هناك أراد الحكيم أن يمارس مع حفيده لعبة الكاراتيه ليهزمه فيها عله بعد ذلك يخجل من نفسه ويتراجع عن هذه اللعبة العنيفة ، ولم يكن الحكيم يظن أن حفيده إسماعيل ذلك الطفل الذى فى المرحلة الابتدائية يستطيع أن يوقعه هو « ابن الثمانينات » و « يشنكله » ويكسبه من أول جولة فى « الكاراتيه » بل من قبل أن تبدأ بينهما جولة ، وكان من الممكن أن يصاب الحكيم فى هذه المغامرة التى قلبت نتيجتها كل حساباته عن قدراته وقدرات حفيده .

ونهض الحكيم سليمًا من وقعته التى كانت لحسن الحظ على « مرتبة السرير » التى كانت قد فرشتها ابنته زينب على الأرض لتنام عليها هى وابنتها مريم بعد أن تترك حجرتها لوالدها لينام على سريرها أثناء فترة

زيارته لها بالإسكندرية حينما يترك حرارة القاهرة إلى نسيم عروس البحر الأبيض ، ورغم ما حدث للحكيم مع الكاراتيه فقد كان يهتم بمجلات الكاراتيه التى يحب حفيده الاطلاع عليها ، ويحضرها له . وأذكر فى إحدى المرات حينما كنت بمكتب الحكيم فى « الأهرام » أنه أخرج ورقة مكتوبًا عليها تاريخ ورقم أحد أعداد مجلة « الكاراتيه » التى فاته الحصول عليها لحفيده ، وأعطى الورقة لأحد زواره الذى يعرف قدرته على الحصول على مثل هذه النوعية من المجلات ، وقال له مشجعًا سرعة إحضارها « سأعمل لك دعاية عند حفيدى » .

وبالرغم من ذلك الاهتمام من الحكيم بحفيده إسماعيل وبهواياته فإن الحفيد لا يسكت عن إفزاع جده شأن كل الاطفال الذين يجدون استمتاعًا حينما يشعرون أن ضجيجهم له رد فعل لدى الكبار سواء كان رد الفعل هذا بالسلب أو بالإيجاب . فرحًا وسعادة وتشجيعًا ، أو نهيًا وزجرًا وتقريعًا ، وكثيرًا ما يقوم الأب أو الأم بمداعبة الطفل حتى يبدو على أحدهما التظاهر بالخوف من حركة يبديها الطفل ، فيكررها سعيدًا منشرحًا ظنًا منه أنه بالفعل يخيف من يداعبه ، ولكن أحيانًا ما يقترن موقف المداعبة بذكرى مؤلمة فيصبح تكرارها ولو من باب اللعب .. مفزعًا فزعًا حقيقيًا ، كان مثل ذلك يحدث للحكيم عندما يمسك حفيده « بمسدسه اللعبة » ويخيف به جده الذى ينتابه الفزع ، كأن حفيده هذا عصابة تحوطه بمسدساتها ، ويقول له « يا إسماعيل أنزل مسدسك .. أنا لا أحب العنف » .. بل حتى مجرد أن يقوم الحفيد بحركة تهويش لجده يبدو على الحكيم الفزع ، لأن ذلك يعيد إلى ذهنه ذكرى شبيهة كانت أيضًا بسبب اللعب والتهويش وكادت تضيع حياة وحيده إسماعيل بسببها ، لولا أن أجله لم يكن قد حان بعد ، فقد كان لإسماعيل الابن « بندقية رش » أخذتها منه أخته زينب لتلعب بها معه وتقوم بتهويشه بإطلاقها بما يحدث

صوتًا يزعج ولا يصيب ، وفجأة تذكر إسماعيل أن البندقية محشوة « بالبارود » فقال لأخته مفزوعًا وقد أمسكت بالبندقية لتضبط فوهتها على وجهه « حاسبى .. حاسبى .. إوعى تضربى » ولكن « طلقة البارود » فى هذه اللحظة كانت قد انطلقت ، ولكن للطف الله مرت بجوار إحدى عينى إسماعيل الابن ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تنال « زينب » علقة ساخنة من والدتها ، إضافة إلى الرعب الذى أصابها نتيجة شعورها أن أخيها كانت ستحدث له وللأسرة مأساة بسببها .. ومنذ ذلك اليوم وهى ووالدها ينتابهما فزع حقيقى بالوهم من مسدسات اللعب لاقترانها بذكرى يوم كانت ستحدث فيه مأساة ، ولذلك يكره الحكيم العنف ويمقته سواء كان حقيقة أو لعبًا ، على أرض الواقع ، أو تمثيلاً على شاشة التليفزيون أو من خلال شرائط الفيديو التى يستأجرها حفيده من نوادى الفيديو .

وفى أحد الأيام التى جاء للحفيد زميلاه أحمد وحمادة يزورانه على غير موعد أراد أن يرحب بهما على طريقته ويستأجر لهما شرائط جديدة للكاراتيه ليتفرجوا عليها ، ولم يكن مع الحفيد فى ذلك اليوم « فلوس » ، ولم تكن أمه وأخته بالبيت فقد خرجتا لقضاء حاجة لهما ، وليس بالبيت سوى مديرته « منصورة » ، وليس معقولاً أن يطلب منها نقودًا ، فلم يجد أمامه سوى جده يطلب منه ستة جنيهات ، فانتهزها الحكيم فرصة ليعطى حفيده « موشحًا » ، أو درسًا ينهاه به عن ذلك العبث قائلاً له : يابنى ابحث لك عن حاجة تنفعك .. « الفيديو » سيفسدك .. هى البلد ناقصة « فيديو » .

والطفل يسمع ولا يعى مما يقوله جده شيئًا ، فما علاقة البلد بالفيديو ، وما علاقة كل ذلك بالستة جنيهات التى طلبها لاستئجار شر ائط فيديو ؟

أما علاقة توفيق الحكيم نفسه « بالفيديو » فليست بأفضل من رأيه

فيه ، فعندما حاولت ابنته أن تجعل له نوعًا من الاندماج بينه وبينهم لكى يشاهد معهم فيلمًا على الفيديو ، أغرته بفيلمه « عصفور الشرق » الذى يظهر هو نفسه فى بعض مشاهده ، باعتباره يعرض لمرحلة من حياته الباريسية وحياته كنائب فى الأرياف ، إلا أنه لم يستطع استكماله حتى النهاية .

ولكنه سأل حفيده عما إذا كان فيلم « غاندى » ، موجوداً بنادى « الفيديو » الذى يتردد عليه ، فنفى له أن « تكون مثل هذه النوعية من الأفلام موجودة ، فقال له :

ألا يوجد فى ناديكم سوى أفلام العنف والكاراتيه ؟!

ولما طلب من ابنته أن تأتى له بفيلم « غاندى » الذى كانت قد شاهدته بالإسكندرية ، فإنها لم تنجح فى الحصول عليه ، فلم يكن بهذا الفيلم الذى يحكى قصة الزعيم الهندى الكبير ، ما يغرى نوادى الفيديو باقتنائه ، وعندما شكا الحكيم ذلك ، لصديقه يوسف جوهر لم يتعجب وقال له :

مرآة الفن عندنا تعكس شخصيات لها العجب .. الزبال والفران ، والكناس والقشاش ، والقشاط والحشاش .. أفلام الغيبوبة .. ما أثقل الكوابيس الجاثمة على صدر الصحوة . ولكن مع ذلك فإن الحكيم لا يفقد الأمل ويقول لصديقه :

لا تحزن .. انظر إلى تمثال نهضة مصر لتعرف أن صدر مصر قوى .. تنفست عبر العصور برئة سليمة .

* * *

وإذا كان الفيديو ، لا يروق للحكيم ، فإن التليفزيون صديقه رغم أنه لا يعجبه ، فهو يفتحه فى حجرته لمجرد أن يكون معه « أنيساً » فيجد فى برامجه التى لا تسره شيئاً يجره إلى السرحان فى موضوع مختلف ، يكون فى بؤرة الشعور ، بينما برامج التليفزيون على هامش ذلك الشعور ، ولكن

عندما يعرض له مسلسل ، ويبدأ فى متابعته ، فإنه ينتقده بشدة ، فلا الحبكة القصصية التليفزيونية تعجبه ، ولا تسلسل الأحداث يرضيه ، ويروح بعقليته الروائية الفنية يبنى جسماً جديدا للرواية ، وأشد ما يضايقه هو ذلك التطويل لمسلسل لا تحتاج قصته ولا تحتمل ذلك المط ، فتقول له ابنته : معنى كلامك يا بابا إن المؤلف يعمل مسلسل على حلقة واحدة وينتهى ؟ وتضيف : إن المسلسلات نوع من قزقزة اللب .. تسلية يعنى .

ولكن الحكيم يرى أنه يجب أن يكون لكل شيء هدفا ومعنى .

وعندما عرضوا له يوميات نائب فى الأرياف مسلسلاً باسم « مكتوب على الجبين » ، غضب وقال :

لاشىء يفلح لى فى التليفزيون .. وأنا أفهمتهم أن من يريد أن يفشل فليقدم عملاً من أعمالى .. ولكنهم لا يصدقوننى .

ومن أمتع الأوقات التى يقضيها الحكيم أمام التليفزيون ، عندما يكون هناك فيلم لنجيب الريحانى ، ويقول إن هذا الفنان الميت ، يضحكه أكثر مما يضحكه الممثلون الأحياء ، لدرجة أنه يلعن المسئول عن إهمال تسجيل كل أعمال هذا الفنان الذى يضحك ويضحكنا ، ويبدع ويمتعنا وهو فى قبره عظام نخره ، ويرى أن هذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء . ولكن ضحكات الحكيم على فيلم للريحانى ، ينكمش أثرها حينما يرى إهمالاً فى البيت بعد أن ينام كل من فيه ، فتركوا صنبوراً مفتوحاً ، أو مصباحاً كهربياً مضاءً من غير لزوم ، أو إسرافاً فى أى ناحية من نواحى الحياة التى تمارسها أسرته .. إنه يغضب ويثور ، ويحاول أن يعلمهم كيف يكونوا اقتصاديين فى استهلاكهم .

فمثلاً عندما يجد بالحجرة التى يذاكر فيها حفيده أو حفيدته ، ثلاث مصادر للإضاءة :

المصباح العادى ، مصباح الأباجورة ، مصباح نيون .

فإن تعليماته لهما هى الاكتفاء بمصدر إضاءة واحد فقط من هذه المصادر الثلاثة ، ويقول : إن البلد مديونة .. والدولة تدعم الكهرباء .. ويجب أن نقدر ظروفها .. ونحارب مظاهر الإسراف فى حياتنا ونرشد الاستهلاك .

وإذا كانت ابنته تعى هذه التعليمات وتنفذها ، فإن حفيديه فى أغلب الأحيان يكونان فى واد آخر ، فما لهما والدولة وظروف البلد وترشيد الاستهلاك .. إن هذه أمور أبعد ما تكون عن عالمهما ومداركهما ،ولذلك يكتشف الحكيم كثيراً ، كأنه يحرث فى البحر ، فيجد حفيديه قد غلبهما النوم . وتركا التليفزيون والفيديو مفتوحين ، وغالباً ما تتلقى زينب اللوم والتأنيب ،ولكن الحكيم يحرص فى اليوم التالى بعد عودة حفيده إسماعيل من المدرسة أن يبلغه غضبه منه لأنه فى نظره يعتبر ، رجل البيت المسئول الذى يجب أن يتعود تحمل مسئولياته مهما كان صغيراً ، ويقول له « أنا زعلان منك يا إسماعيل » ، فيسأله الحفيد عن السبب فيخبره بنومه قبل أن يطفىء الفيديو والتليفزيون وهذا غير معقول وغير مقبول ، فيعده الحفيد أن ذلك خطأ لن يتكرر ، ولكن الحكيم لا يثق إلا أن يتأكد بنفسه فيظل ساهراً بحجرته أمام التليفزيون حتى نهاية الإرسال ثم يغلقه ويقوم بالتفتيش على البيت كله ليطمئن إلى أنه ليست هناك « حنفية » يتسرب ماؤها ، أو « لمبة » يضيع ضوؤها ، أو « بوتاجاز » لم يحكم غلقه ، ثم يمر على حجرة حفيديه ليتأكد من أنهما لم يتركا التليفزيون والفيديو دون إغلاقهما ، كما لا ينسى أن يمر على إبنته ، وإذا اكتشف أن أحداً لم ينم بعد ، يقول له « تصبح (أو تصبحين) على خير » ، ثم يأوى هو إلى فراشه بعد أن يكون قد اطمأن على البيت ومن فيه .

وفى الصباح يوقظ حفيديه للذهاب إلى المدرسة : « قم يا إسماعيل الساعة سته .. سيارة المدرسة زمانها فى الطريق » .. فالحكيم حريص على انضباط حفيده فى ذهابه إلى مدرسته ، فهو يراه مجتهداً ويعجب لذلك

منه ، وقد أعجبه كذلك ما فوجىء به من حفيده حينما أضاف إلى هواياته المزعجة هواية أخرى لكنها هادئة ، إنها هواية جمع طوابع البريد ، وراح ينفق على هذه الهواية بسخاء فيشترى الألبومات والطوابع ، فرأى الجد أن يشجع هذا الاتجاه الجديد لدى حفيده فكان يجلس لينزع طوابع البريد من الخطابات التى تصله من قرائه من مختلف البلاد العربية والأجنبية ، ويعطيها لحفيده مشجعاً إياه على الاستمرار فى هذه الهواية قائلاً له : إنها هواية الملوك » ، وكانت الأم تشجع إبنها هى الأخرى وتقطع له قصاصات الصحف أو المجلات التى تتحدث عن قصة طوابع البريد ، إلى درجة أنها كانت ترسلها له فى حكايات حين يكون بالإسكندرية مكانه المفضل الذى يحلو له أن يقضى أجازاته فيه ، ولكن يبدو أن هذه الهواية - جمع الطوابع - لم تكن إلا نزوة عابرة من نزوات الأطفال لم يستمر فيها الحفيد أكثر من ثلاثة شهور ، بينما جده لايدرى بذلك ، وظل حتى وفاته يجمع له الطوابع ، فتأخذها أمه وتحتفظ بها دون أن تخبر والدها بإهمال حفيده لهوايته الجديدة حتى لا تجعله يشعر بضيق أو غضب .

وكانت الإبنة تحاول تعليم والدها هواية لعب « الكوتشينة » لكنه لم يستطع أن يستوعبها لاعتمادها على الأرقام التى لا يجيد قراءاتها ، وكذلك لم تفلح زوجته من قبل أن تجعله يتعلم لعبة « الطاولة » ، رغم تعمدها أن تخسر له .

ولم يفلح الحكيم فى تعلم أى هواية ، فرياضته هى العقل ، والمشى ، فعقله متحرك دائما بالتأملات والأفكار ، وقدميه متحركتان كلما أمكنه أن يحركهما ، لأنه لم يكن يطيق الجلوس كثيراً ، وإن كان قد اضطر إليه لظروف صحية ، ولذلك كان يتعجب كثيراً عندما يتذكر صديقه مصطفى أمين ويتساءل كيف قضى سنوات سجنه بغير حركة .

فلم يكن الحكيم يتحمل السكون حتى أنه فى بعض الأحيان يقوم

لإحضار الأشياء التى طلبها قبل أن يحضروها له ، كما حدث ذات يوم من شهر رمضان بعد أن خرج من المستشفى فى بداية مرضه ، حيث كان ينام بعض الوقت وهو جالس على كرسيه كنصيحة الأطباء له كبديل للسرير ، حفاظاً على سلامة تنفسه ، لذلك كان الحكيم يفضل أن يغمض عينيه بعد العصر وهو بين اليقظة والنوم فى شبه إغفاءه ، حتى ينطلق مدفع الإفطار ، وهو لم يكن مسموحاً له بالصوم فى مثل هذه السن المتقدمة وما يصاحبها من أمراض تقتضى تناول الأدوية فى مواعيد دقيقة ، ومع ذلك كان لا يأكل كثيراً .. كان يكتفى بقطعة « كيك » وكوب من الشاى ، أو بعض السوائل التى تعينه للحصول على الطاقة التى تحفظ له تماسكه الجسمانى ويقظته الصحية ، فكانت إبنته زينب عندما يحين موعد الإفطار تحضر له زجاجة مشروب بارد من الثلاجة الموجودة بحجرته ، ولكن الحكيم فى أحد تلك الأيام الرمضانية وقد ضرب المدفع وأذن المغرب لم ينتظر حضور ابنته فحاول القيام بنفسه نحو الثلاجة لتمشية قدميه ، ولا تزال عينيه نصف مغمضتين والحجرة غير مضاءة بعد ، فكانت النتيجة هى وقوع الحكيم بين كرسيه ومكتبه ، فى نفس الوقت الذى كانت زينب قد حضرت لتفتح الثلاجة ، فتركتها ، صارخة لوقوع والدها على الأرض ، وسارعت لتعاونه على النهوض ، واتضح بعد أن استدعت له الطبيب « حسين عبد الفتاح » كبير مستشارى العظام بقصر العينى وأجرى له الأشعة اللازمة ، أن الحكيم قد أصيب بكسر فى أعلى الذراع اليسرى ، وتم تحديد مكان الكسر وأمكن على إثرها إعادة العظمة المنقولة إلى مكانها .

ورغم ما قد تكون قد سببته تلك الوقعة للحكيم من آلام إلا أنه لم يشكو أو يتأوه أو يظهر تألمه حتى لا يزعج أحداً من أفراد أسرته ، وقد ورث منه ابنه الراحل إسماعيل قدرته على تحمل الآلام ، ولكن حينما

يحدث أى شىء ولو بسيط لأحد أفراد أسرة الحكيم الجديدة (ابنته وحفيديه) كان الحكيم ينزعج ويظل قلقا لا يهدأ حتى يتم علاجه ، فلو حدث مثلًا أن « عطس » أحدهم ، فإن الحكيم يفرض على جميع من فى البيت أن يتناولوا أدوية الزكام قبل أن يناموا حتى لا تنتقل العدوى إلى بقية أفراد الأسرة ، ولابد للجميع أن يطيعوا الأوامر كأنهم مجندون بالجيش .

وكثيراً ما استغل حفيدى الحكيم خشيته من « الزكام » فيمثلان عليه إصابتهما به .. يحدث ذلك عندما يجمعهما لنصحهما وإعطائهما دروساً ومواعظ فى الأخلاق وطاعة أمهم وعدم الإسراف فى استهلاك الكهرباء .. إلخ .. فلا يتحملان ،ويصابان بالملل شأن جيلهم أو أى جيل لا يطيق نصائح جيل سبقه ، فما بالهما وبينهما وجيل جدهما ثلاثة أجيال ، ولا يستطيع حفيدى الحكيم أن يخبراه أو يردا عليه بمللهما ، وفى نفس الوقت لا يستطيعان أن يتركاه يتكلم وحده ، ولذلك لا يجدان وسيلة للهروب من تلك النصائح سوى اتباع الشقاوة واستخدام الأسلحة التى يستسلم أمامها جدهما ، ومنها سلاح « العطس » ، عندما تشعر مريم وإسماعيل بالملل ينظر كل منهما للآخر دون أن يشعر الحكيم ، إشارة إلى أنه لم يعد أمامهما مفر سوى أن يتظاهر أحدهما بإصابته بالزكام ، وعادة ما يتولى هذه التمثيلية « إسماعيل » « ١١ سنة » فيقوم بافتعال « العطس » ليوهم جده أن عنده زكام ، فيتوقف الحكيم عن الاسترسال فى نصائحه - وهذا هو المطلوب - ويقول : يا ولاد أتريدون أن تنقلوا إلىَّ العدوى ؟! ويقوم الحكيم مسرعاً وقد تحول من جد عجوز إلى شاب يقفز هرباً من الزكام كأنه حصان فتى ، وسط ضحكات حفيديه ودهشتهما ، ويوم أن كان الحكيم بمستشفى المقاولون حضرت إليه الفنانة سهير المرشدى وحدها حينما كانت تتردد عليه هى وزوجها للانتهاء من وضع

اللمسات الأخيرة لمسرحية « إيزيس » التى ستقوم ببطولتها ، فقال لها : أين كرم مطاوع ؟ ، فقالت له إنه يقف خارج الحجرة لأن عنده « برد » ، فيطلب منها أن يظل خارج غرفته ولا يدخل عليه إلا حين يشفى من نوبة « البرد » التى أصابته . ولأن المدارس تفتتح فى فصل الشتاء ، وغالباً ما يحلو النوم فى الصباح وقت الاستيقاظ للذهاب إلى المدرسة ، فإن الحفيدين ، يفتعلان الإصابة بالانفلونزا ، فيطلب الحكيم من أمهما ألا تجعلهما يذهبان إلى المدرسة حتى يستريحا ولا يتضاعف مرضهما ، ولكن الأم كانت تفهم مكر أبنائها فتصر على ذهابهما إلى المدرسة وتقول لوالدها : بصراحة يا بابا هم يتمارضون حتى لا يذهبون للمدرسة » ، ولكن الحكيم لا يصدقها ويصمم على عدم مغادرة حفيديه لسريريهما وهما على حالتهما هذه فى هذا الوقت المبكر من صباح الشتاء ، وما بين إصرار زينب على سلامة أبنائها وإصرار الحكيم على مرضهما ، وهو يقول لها أتريدين موتهم » ؟! تنجح حيلة الحفيدين ويحصلان بسبب « عطسة » افتعلاها على أجازة من المدرسة ثلاثة أيام ، ويومين نقاهة ، حسب تعليمات الحكيم الصحية لسلامة حفيديه ، ويا ويل إسماعيل حينما يراه جده « بالشورت » أو « المايوه » فى « عز » برد الشتاء ، فالحفيد معتاد على جو الإسكندرية ولكن جده عندما يراه هكذا ، يكاد يموت عليه من الخوف ويقول له صارخا فيه « أنت بهذا تعرض نفسك للهلاك .. ستأتى لك أنفلونزا . ستأتى لك نزلة شعبية » .. ولكن إسماعيل كأن الكلام ليس له ، وكثيراً ما يحاول مداعبة جده إلى حد الإستفزاز ، فعندما ظهرت فى إحدى السنوات موضة البنطلونات المتسعة بشكل غير عادى - فكم يجن مصممو الموضة فيخرجون بتقليعات تثير الجنون - جاء الحفيد يرتدى بنطلونا من هذه البنطلونات ودخل على جده الذى راح ينظر إليه بدهشة واستغراب ، ولم يصدق إلا أن حفيده قد ارتدى بنطلون أبيه فقال « انت

لا بس بنطلون أبوك ولا إيه » ؟! فقال له الحفيد « أبداً إنه بنطلونى وهذه هى الموضة » ، فقال الحكيم والدهشة تكاد تعقد لسانه : هذه هى الموضة ؟! فيؤكد الحفيد نعم هذه هى الموضة » ، فأعاد الحكيم نفس سؤاله وكرر حفيده نفس الجواب ، والحكيم ينظر إليه باستغراب ولا يصدق ما يراه ،.. ولكن ذات مرة استفز الحفيد ، جده إلى درجة جعلته يمد يده عليه لأول مرة .

* * *

ذات يوم كان الحكيم يجلس على سرير ابنته زينب ومعهما الحفيد ، وشقيقه الصغير محمد الذى جاءت الشغالة الجديدة « نجاح » لتأخذه من أجل إطعامه طعام العشاء ، ولكن شقيقه إسماعيل أمسك به وراح هو والشغالة يتجاذبانه ، فهو لا يريد لشقيقه أن يكون فى رعاية شغالة لأنها فى نظره تأخذه وتهمله ، فصمم فى ذلك اليوم على ألا يذهب شقيقه مع الشغالة التى كانت هى الأخرى مصممة على القيام بواجبها تجاه الطفل ، وكلمة منه ، وكلمة منها ، ارتفع خلالها صوته ، مما أثار جده وجعله يضربه « بالفوطة » على ظهره مع « قلمين » على وجهه وهو يقول له بانفعال « اسكت .. بطل زعيق .. انت تاعب أمك ولا يكفيك غير إنك تطفش الشغالة » . وخرج الحفيد يبكى ، بينما نام الحكيم على السرير شاعراً بالتعب ، بينما اتجهت زينب بوجهها إلى الأرض لتخفى ضحكها المكتوم .. فما والدها قد ضرب ذلك الضرب الذى يجعله يشعر بالذنب والاستلقاء على السرير متعباً وهو يندم على مديده على حفيده ، كما أن ضرب الحكيم لم يوجع حفيده ليبكى ، فلطالما ضربته أمه عقاباً له على شقاوته أو إخلاله بنظام البيت ، فهى تحاول ايجاد التوازن بين ديمقراطية والدها مع أحفاده ، بوجود نوع من الردع الذى ترى ضرورة استخدامه فى بعض الأحيان حتى لا يشعر أبناؤها أن ديمقراطية جدهم معهم تعنى الفوضى ، فهو يمثل

جانب الرفق والرحمة ، فى الوقت الذى تمثل هى فيه جانب الشدة والحزم .. فرغم أنها أم لهم فهى أب لهم أيضا بعد غياب والدهم عنهم بانفصالها عنه ، ورغم ما يناله الحفيد من ضرب موجع ومؤلم من أمه إلا أنه لا يتأثر أو يجعل من ضربها له قضية ، ولكن حين ضربه جده راح يجهش بالبكاء واستمر فى بكائه المتصل بعد أن ذهب إلى حجرته ، فدخلت عليه أمه وقالت له وهو لا يزال يبكى : هل تريد إنك تفهمنى إن ضرب جدك لك أحزنك ؟

فقال الحفيد وكلماته تكاد تحبسها دموعه : أنا لم أحزن يا مامى لأنى لم أحس بضربه لى لأن لو دفعت جدى بيدى سيقع (وقد سبق أن فعل ذلك حين أراد أن يلاعبه كاراتيه) وأضاف الحفيد لوالدته : لكن المشكلة إنه غضب منى وضربنى » . فمشكلة الحفيد ليست فى أن ضرب جده قد آلمه ولكن الذى آلمه هو أن يغضب منه جده وتمتد يده عليه .. ذلك ما كبر فى نفسه .. إنه يحب جده ويقدره ولم يكن يتصور مهما حدث منه أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، وذلك ما أثر فى الحكيم أيضا وأتعبه نفسياً فلم يكن يرغب أن تتطور المسألة إلى هذه الدرجة ، فهو يجد فى حفيده عوضا عن ابنه الراحل ، ويتمنى أن يراه رجلاً ليعوض أمه عن معاناتها ، ومن أجل ذلك اضطر إلى زجره عن التطاول على الشغالة التى أتى بها لتريح ابنته من شغل البيت ، وتتفرغ لرعاية أبنائها ومتابعتهم فى دراستهم ، والحكيم يعرف المصاعب التى تكتنف الحصول على شغالة فى هذه الأيام الصعبة ، ومن الممكن أن تجعل الشغالة الجديدة من تطاول حفيده عليها قضية وحجة تترك بسببها المنزل ولا أحد يلومها ، والحكيم لم يضرب حفيده بالمعنى الذى يمكن أن يسمى ضرباً وإنما هو نوع من التعبير عن سخطه على حفيده وإظهاراً لغضبه وضيقه من موقف معين ، نسى خلاله حفيده وجوده وراح يرفع صوته على الشغالة مما قد يتسبب فى تركها البيت ، وما قد

يترتب على ذلك من متاعب لأمه هى فى غنى عنها ، فكان ضرب الحكيم لحفيده أهون الضررين ومع ذلك تأثر ، وتأثر حفيده كما لم يتأثر من قبل ، وواصلت والدته زينب التحدث إليه وهو لا يزال يبكى : هل المفروض ان جدك لا يضربك ؟

فصمت الحفيد عن الرد وإن لم يصمت عن البكاء المتهدج فقالت له أمه : لو أنت ترى أنه ليس من حق جدك عليك أن يضربك يبقى هنا من حقك إنك تحزن .. أم أنت ترى أنه من حقه أن يضربك ؟

فقال الحفيد ولم تزل دموعه تتساقط تأثراً : لكن كان المفروض ان جدو يتفاهم معى .

قالت الأم : هو انت تركت وسيلة للتفاهم .

قال الحفيد ولا زال أثر البكاء واضحاً فى نبرات صوته : يعنى إيه ؟

قالت الأم : لو انت تفاهمت مع البنت الشغالة كان هو تفاهم معك .. لكن أنت تطاولت بالكلام معها فمن حقه أن يتصرف معك بما أغضبك .

فقال الحفيد بعد أن نفذت حيلته فى الرد على منطق أمه : أنا عموما لن أكلم جدو مرة أخرى .

قالت الأم وقد نجحت فى إقناع إبنها بخطأ موقفه : إنت حر تكلمه أو لا تكلمه ولكنك فى النهاية غلطان .

وظنت زينب أنها الخصومة بين الحفيد وجده ، ولكن الحكيم استيقظ مبكراً كعادته فى الساعة السادسة صباحاً « كالمنبه » ليوقظ حفيديه مريم وإسماعيل ليذهبا إلى مدرستيهما ، فقد أوكلت أمهما إليه مهمة إيقاظهما كل صباح راجية منه أن يدعها نائمة لأنها تكون طوال الليل ساهرة مع حفيده الصغير « محمد » الذى يسبب لها قلقاً ، شأنه شأن الأطفال فى مثل عمره (سنة ونصف) حتى ينام وتنام معه أمه فى ساعة متأخرة مما تحتاج معه لساعات أخرى من الصباح تعوض بها ساعات نومها المضطربة .

ولما عاد الحفيد إسماعيل من مدرسته وجد ، جده قد فتح له صفحات الصحف كعادته على صفحات « الرياضة » التى يحبها ، ولما دخل الحفيد ليأخذ تلك الصحف استوقفه جده ، وانتهى التوتر بينهما ، ولما رأتهما زينب هكذا ، قالت لابنها : هل تصالحت مع جدك ؟ فقال لها مبدياً شيئاً من الدهشة لمثل هذا السؤال : وهل كنا متخاصمين ؟ !

ويعود الحفيد لشقاوته كأن شيئا لم يكن ولا تسلم من عبثه عجلة جده الطبية التى يستعملها فى تحريك قدميه كنوع من العلاج الطبيعى حسب رأى الأطباء ، فينتهز الحفيد فرصة خروج جده إلى مكتبه بالأهرام ليلعب بعجلته ، ولكن الحكيم يكتشف أن حفيده لم يدع عجلته كما هى ، فهو يحفظ رقم « الكيلو متر » الذى توقفت عنده العجلة فى آخر مرة استعملها فيها ، ولذلك عندما يعود ولا يجد « عجلته » مضبوطة عند الرقم الذى سجلته يعرف أنها لم تسلم من عبث حفيده « العكروت » كما كان يناديه فى حالة مداعبته له ، وهى كلمة يقولها لأحفاده ، الذين لا يدرون أهى « لفظة » ذم أم مدح أم هى خليط من هذا أو ذاك . ولا يعارض الحكيم أو يمانع فى أن يمارس أحفاده « اللعب » شريطة ألا يشغلهم ذلك عن واجباتهم المدرسية ، ولكن أمهم لا تنسى ذلك فهى تحرص على استفادتهم بالعام الدراسى منذ بدايته ، فتشترى لهم كل أدواتهم المدرسية التى تكفيهم طوال السنة الدراسية ولكنها لم تكن تكفيهم .. فما يثير عجب زينب من أبنائها وتساؤلها : كيف يستهلكون كل أدواتهم المدرسية بهذه السرعة ؟! ولكنهم لم يكونوا يستهلكونها .. لقد كانت تضيع منهم .. أين ؟ لا تدرى ولا هم يدرون ، ولكن الملفت للانتباه أنه إذا احتاج إسماعيل أو مريم إلى قلم أو مسطرة أو « براية » أو « ممحاة » - استيكة - ، كان جدهم يعطيها لهم ، فمن أين يأتى بهذه الأشياء ؟.. إن كل الهدايا من أجندات وأقلام حبر أو رصاص مما تهديه

المكتبات إلى الحكيم منقوشاً أو مكتوباً عليه إعلانات عنها بمناسبة رأس السنة الميلادية ، لا يحتفظ الحكيم بشيء منها ماعدا أجندة الأهرام التى يستبقيها لنفسه رغم أنه لا يستعملها ، فالحكيم لا يستعمل الجديد ولا يحب الاحتفاظ به ، إنه يهديه لأحفاده أو ما يفيدهم منه ، ويهدى بعضه للمقربين منه ، فمن أين يعطى الحكيم أحفاده ما يحتاجون إليه من أدواتهم المدرسية ؟

لقد اعتاد الحكيم المرور فى حجرة أحفاده بعد ذهابهم إلى المدرسة وإذا وجد أدواتهم المدرسية ملقاة فى غير المكان الذى يجب أن يحتفظوا فيه بها ، فإنه يجمعها ويحفظها هو بمكتبه إلى أن يحتاج أحفاده إلى شىء منها حينما يجدون أن الرصيد الذى تحتفظ به أمهم لهم قد نفذ ، ومن ثم تصبح مضطرة لشراء أدوات مدرسية جديدة ، وهى تضرب كفا على كف متسائلة عن كيفية استهلاك ما اشترته وهو يكفيهم سنة دراسية كاملة ، فلا يمكن أن يكون إسماعيل ومريم قد استهلكوها ، فلا يبقى إلا الاحتمال الثانى بأنهم أهملوها وأضاعوها ، فيظهر حينئذ الحكيم ليعطى حفيديه ما يحتاجون إليه من أدوات مدرسية ، مع شكرهم له وهم لايدرون أنها نفس أدواتهم التى ألقوها دون أن يحافظوا عليها فاحتفظ لهم هو بها ، واكتشفت أيضاً أن والدها كلما أتى « صابون » الشهر يتسلل من ورائها ، ويأخذ ما بين ثلاث وأربع قطع من الصابون يستبقيها بمكتبه حتى « ينفذ » ما فى البيت من صابون ، فتذهب إليه إبنته تطلب منه ما عنده من صابون وتقول له « أنا عارفه إنك أخذت صابون من الدولاب » كأنما تريد أن تسأله بذلك عن السبب فيجيبها « لكنك لا تعرفين لماذا أنا أخذت الصابون .. لأجل لما تحتاجيه تلاقيه عندى » !

وكان مما يحتفظ به الحكيم كذلك بمكتبه « البسكويت » الذى كان يتناوله مع الشاى ، كما كان يحتفظ كذلك « بالبمبونى » الذى يستحلبه

بعد الغداء كمادة يعتبرها هاضمة ، أما « البيروسول » فيحرص الحكيم على ألا ينقطع وجوده من مكتبه لاستخدامه إذا اضطره ذباب أو ناموس إلى استعماله .

كذلك كان بمكتب الحكيم ببيته ثلاثة أكواب ، يشرب فى إحداها ، ويضع طقم أسنانه فى الآخر ، أما الكوب الثالث ففائدته أو دواعى استعماله لا يعرفها سوى الحكيم نفسه ، أيضاً كان الحكيم يحتفظ بشاى وسكر بمكتبه ، والذى كان يحتوى كذلك على « البيجاما الكستور والروب » مما كان يرتديه فى البيت لمقابلة ضيوفه ، وهى من الهدايا التقليدية التى كانت تهديها له ابنته فى عيد ميلاده ، فيتظاهر بقبولها ، ويرتديها لبعض الوقت إرضاء لها ، ولكنه كان حريصاً على استعمال ملابسه القديمة حتى بعد أن أكل منها الزمان وشرب ، فيطلب منها ترميمها ، وعندما أعطاها « جاكتته » لتستدفىء بها شتاء ، وجدت أن « العتة » قد أوغلت فيها ، فطلب منها الحكيم ، أن ترسلها « للرفة » ، فغرمت من أجل ذلك خمسة وأربعون جنيها ، فقال لها : ولماذا لم تشتر بها « جاكتة » أخرى جديدة بدلا من القديمة فلم أعد أريدها ؟ فتقول له : ولكنى أريدها للذكرى .

فقد كان الحكيم لا يترك استعمال أدواته القديمة بسهولة ، فلا يفارقها حتى تفارقه ، بالاستهلاك أو عدم الصلاحية للاستعمال ، مثل ذلك القلم الرصاص الأصفر الذى منذ أن وعى حفيده على الدنيا وهو يرى جده يستعمله ، وهو متعجب من عدم ذوبانه رغم كثرة الاستعمال ، ولكن الحفيد لم يكن يعرف أن جده كان يستبدله بقلم أصفر جديد ، فيبدو لمن يراه أنه لا يذوب ولا يفنى .

واعتزاز الحكيم بالقديم لم يمنع استقباله للجديد بفعل أحفاده ، الذين لم يكن هناك أكثر منهما جديدا طبع حياته ، مما جعله يحاول أن يعوض معهم

طفولته وأبوته . وحين يستعيد ذكرياته لايرى فيها إلا اليوم الوحيد الذى يشعر فيه بجديد ، وهو يوم العيد الصغير ، والكبير ، والذى كان هو الفرصة الوحيدة لشراء ملابس جديدة له ولإخوته ، فينتقون ما يحلو لهم ، وغالباً ما تكون من الأصناف الغالية ، ولكن الأب يختار لهم ما يناسب جيبه ، ويمضى الحكيم وإخوته مستسلمين ، حتى العيدية التى كان الحكيم يحصل عليها فى طفولته وهى خمسة قروش كان يحتفظ بها طوال أيام العيد ، ثم يعيدها مرة أخرى لا ينفق منها شيئاً .

أما العيد ، فيحتفل به أحفاد الحكيم ، بالحصول منه على النقود ، فيحرصان على الاستيقاظ مبكراً ، للحصول من جدهم على « العيدية » ، بينما هو مفتقد لمعنى العيد ، فكل الأيام متشابهة لديه خاصة بعد أن رحلت زوجته ،ولحق بها ابنها ، فقد كان وجودهما يجعله يشعر بمعنى العيد وهو من المناسبات القليلة التى كانت تجعله يحفل بها ، حيث تجتمع فروع الأسرة فى بيت العائلة الكبير ، فيجلس الحكيم بينهم وتدور مناقشات وسط ضجيج الأولاد الذين يجعلون للعيد متعته وبهجته .

أما اليوم بعد أن رحلت الزوجة والابن ، فإن أيام العيد تتساوى مع أيام أخرى وتتشابه فيما بينها ، وإن كان يحرص على أن يشعر أحفاده بالعيد ، فيبسط يده معهم بالعيدية ، ثم يخرجون ، لتجلس ابنته معه بعض الوقت ليمر اليوم كأى يوم .

أما بالنسبة للأحفاد فليس كأى يوم ، فإسماعيل مثلا يحصل على عيدية كبيرة ،وصلت فى عيد من أعياد الأضحى إلى مائة جنيه ، لعل الحكيم أراد بها أن يعوض حفيده عن فلوس الرحلات التى كانت تأخذها أخته « مريم » ، بينما هو لا زال فى المرحلة الابتدائية ، والرحلات المدرسية قليلة ولا تخرج عن دائرة حدود القاهرة ، لذلك كان يطالب جده

بمساواته مع أخته ، وأن يعطيه مثلما يعطيها ، فيصمت الحكيم ، وكأن حفيده قد وضعه فى مأزق منطقى ، ولكنه يستدرك قائلاً كأنه وجد مخرجا « كل فلوس الرحلات سأعطيها لك عندما تدخل الإعدادى .. فأنا أدخرها لك .

وإذا كان العيد معروفا بعاداته ، فإن الحكيم كان ينكر هذا الذى يسمونه « عيد الميلاد » ويصر على الاحتفال به الأولاد والأحفاد ، ومع ذلك كان يحرص على مشاركة حفيده احتفاله بعيد ميلاده حيث يحضر أصدقاء اسماعيل لتهنئته وتقديم الهدايا له والتقاط الصور التذكارية معه فى جو من البهجة تظلله الزينات والبالونات وتلتهم فيه « التورتات » و « الجاتوهات » ويظل الحكيم فى حجرته إلى أن يحين موعد إطفاء الشموع فيحضر ليقبل حفيده ويطفىء معه وأصدقاءه شموع عيد ميلاده بل ويغنى معهم أغنية عيد الميلاد الشهيرة فى مثل هذه المناسبة ، ويجلس مع أصدقاء حفيده لمدة حوالى عشر دقائق يسألهم عن أحوالهم وتقدمهم الدراسى وبعد أن يطمئن عليهم يتركهم لسرورهم ثم يعود مرة أخرى إلى حجرته يسرح فى مستقبل يرى فيه حفيده رجلاً يعين أمه على مسئوليات الحياة .

الفصل الرابع

دلوعة جدها

إلى حفيدتي الصغرى : "مريم"
مع تحياتي

- النصائح الوجيهة فى تربية الحفيدة .
- مواجهة بين الجد وحفيدته !

إذا كان الحكيم قد راح يعد حفيده إسماعيل ليكون رجلًا مسلحًا بالعلم فى حياته ليخوض غمارها ومسئولياتها ، فإن الحفيد كان يعد نفسه من واقع هواياته العنيفة « كالكاراتيه » لكى يصير فى المستقبل ضابطًا لمكافحة الإرهاب ، بينما كان جده يحارب تلك الظاهرة الكريهة بفكره وكلمته . ورغم أن الحكيم لم يمتد به العمر ليرى حفيده رجلًا ، حيث تركه إلى الدار الآخرة وهو لا يزال بعد فى المرحلة الابتدائية ، فإنه فى الفترة التى عاشها مع أحفاده كان مهتمًا بإعداد مريم لتكون ست بيت ممتازة ، ولذلك حينما كانت ابنته زينب تأتى لتقول له « الشهادات وصلت » .

لم يكن يهتم بنجاح حفيدته أو عدم نجاحها ، ويطلب من ابنته استبعاد شهادة مريم قائلًا لها : لا تأتى لى بدرجاتها ولا تجعليها تأتينى بهذه الدرجات لأنها من يوم ما جاءت لم أر لها درجة عليها القيمة .. لا يهمنى إنها تنجح أو لا تنجح .. لكن الولد يهمنى إنه ينجح .. إنما الذى يهمنى فى البنت إنها تعرف تطبخ .. علميها إنها تكون ست بيت لأن الزمن القادم سيحتاج لست البيت أكثر من حاجته للمرأة العاملة » .

فتقول له زينب : يعنى يابابا لا داعى لتعليم مريم ؟ » .

فيصحح لها الحكيم مقصده ويقول :

أنا لست ضد تعليم مريم .. فلتتعلم وتأخذ شهادة إلى حد ما .. شهادة متوسطة أو عالية على حسب قدراتها .. ولا يهم إنها تكون متعلمة تعليمًا عاليًا أو مثقفة ثقافة عالية .. يكفى أن تكون نصف متعلمة أو نصف مثقفة .. المهم انها تعرف تتعامل بفهم ووعى كربة أسرة وست بيت .. لأن الزوجة الصالحة هى التى أستطيع أن آكل من طهى يديها طبقًا واحدًا شهيًا .. وستفرحيننى يوم ما تقولى لى ان صينية البطاطس عملتها مريم ..

وأن يلبس زوجها من صنع يديها رداء صغيرًا ولو طاقية نوم كستور .. ويجد حسن ذوقها فى ملبسها وزينتها ونظام بيتها » . ومع ذلك كان يهتم بتثقيفها ، فأهداها أول كتاب تعلم فيه الفرنسية ، فى نفس الوقت الذى يشجع حفيدته على أن تسلك المسلك الذى يجعلها ست بيت ناجحة فيقول لها :

ستفرحيننى يوم ما أدخل عليك وألاقيك منظمة حجرتك من غير ما تنتظرى مربيتك .. لازم تعتمدى على نفسك » .

بل أراد الحكيم أن ينتقل فى توجيهه لمريم من النصائح والكلام النظرى إلى الممارسة العملية ، فطلب إليها أن تتولى مسئولية ميزانية البيت ، وأعطاها المصروف فى آخر صيف قبل الذى توفى فيه ، وكانت مريم ممسكة متقشفة إلى حد لم يتعود عليه بيت آل الحكيم فى نفقاتهم .

ولم تكن الحفيدة تنسى حقوقها أو ماتعتقد أنه حق لها ، فتنتهز أى فرصة للحصول على النقود ، سواء فى الأعياد ، أو حينما تنجح فى الامتحانات ، أو حينما تقضى حاجة لجدها ، أو حينما تريد الاشتراك فى الرحلات المدرسية ، وكانت فى المرحلة الإعدادية ، بل حينما تكون هناك منحة قررتها الدولة للموظفين فيها ، كانت مريم تسأل جدها ، عما إذا قد أعطى المنحة لأمها حتى تنال منها نصيبها ؟

ويضحك الحكيم لذلك ، وأحيانًا يوافق ، وأحيانًا أخرى لا يوافق ، ولكنه فى أغلب الأحوال يعطى وبسخاء ، ومن الغريب أن الحكيم من الممكن أن يعطى مبلغًا كبيرًا ، ولكنه قد يبخل إذا كان المطلوب منه مبلغًا ولو صغيرًا جدًا .

غير أن المهم فى الأمر أنه إذا طلب منه أحد من أفراد أسرته مبلغًا من المال ، فإن على هذا الطالب أن يقنع الحكيم ، بالمنطق الذى لا ثغرة فيه

بما يريد الفلوس من أجله ، ثم لا يسأل الحكيم بعد ذلك عما أنفقت فيه لأنه لا يهتم بتتبع مسار صرفها ، ولكن يكفيه أن يكون طالب الفلوس منطقيًا ولديه حججه المقنعة فيكون تلبية الحكيم لطلبه مكافأة على حجته ومنطقه ، لأنه رجل فكر ومنطق ، رغم أنه قد يعلم فيما بعد أنه لم يكن وراء منطق وحجة من قصده فى « نقود » قضية حقيقية ولكنه لا يحب أن يحرج أحدًا ، وكثيرًا ما يكون الحكيم فى حجرته المغلقة عليه ، إلا أنه مع ذلك كان يحس بكل صغيرة وكبيرة تحدث فى البيت ، مثلًا لو جاء ضيف لزوج ابنته - قبل وفاته - كان يعرف من هو ذلك الضيف وكم استغرقت مدة زيارته .. لقد كان الحكيم رب الأسرة مثل الرادار الذى يستكشف ما يحدث فى بيته حتى وهو بين جدران حجرته المغلقة ، بل بنظرة واحدة منه لمن فى البيت يستطيع أن يعرف كيف تسير شئون البيت ، ولذلك كان الجميع يحسبون له ألف حساب .

وإن كانت حفيدته مريم قد استطاعت أن توجد نوعًا من الألفة بينها وبينه دون خوف أو مواربة . فإن أمها زينب ظلت أسيرة العلاقة التقليدية التى تعودت عليها مع والدها فلا تجرؤ على مفاتحته فى طلب فلوس زيادة عن الذى أعطاها لها ، وغالبًا ما تكون ابنتها هى وسيطتها إليه ، فتقول له إن أمها تريد منه مبلغًا معينًا من المال ، فيطلب منها أن تجيئه هى وتطلب ما تريد ، فتقول له الحفيدة إن أمها نائمة ، فيطلب منها إيقاظها لتحدثه هى بما تريده ، لأنه فى مسألة الفلوس لا يقبل وساطات . أما فى حالة إخفاء زينب عن أبيها أنها متعبة أو مرهقة أو مريضة فإنه يغضب ولا يقبل مبرراتها بأنها لا تريد مضايقته أو إزعاجه ، فليس ذلك مما يقبله لأن صحة ابنته ليست من الأمور الهينة التى تخفى عنه بحجة عدم إزعاجه بل إن محاولة إخفاء أى علة تلحق بصحة ابنته تجعله يتضايق أكثر ويثور عليها ، بعكس حفيدته مريم التى يعجبه فيها أكثر ما يعجبه أنها صريحة معه ،

فكلما أرادت أن تفعل شيئًا ، تذهب إليه ، وإذا لم توافق أمها لها على شيء تريده يكون المرجع جدها الذى يحسم لها كل الأمور ، فمثلاً حينما تريد الخروج ، وتعترض أمها حرصاً على نتيجة ابنتها لأن الأيام أيام امتحانات ويجب على مريم أن تكرس كل وقتها لتنجح ، فلا تجد الحفيدة سوى جدها تلجأ إليه ، فيعترض هو الآخر فى البداية على خروجها حتى لا يكون هو دائمًا مصدر تكسير كلام أمها لها فتتراخى طاعتها لها ، ولكن مريم تعرف كيف تقنع جدها فتقول له إنها ستقضى مع نزولها حاجيات البيت الناقصة أيضًا ، فيكون البيت مثلاً فى حاجة فى هذا اليوم إلى مبيدات للناموس والذباب والصراصير ، فتقول له إنها ستحضر معها « سوبر ريد » فيسمح لها بالنزول ما دام خروجها مقترنًا إلى جانب قضاء حاجياتها بقضاء حاجات البيت أيضًا ، وهو ما يحرص أن يعودها عليه كست بيت منذ الآن ، ثم يطلب منها أن تنادى أمها ، فيعطى لها دروسًا بعد نزول الحفيدة فيما يجب أن تمارسه معها فى تربيتها .. فمرة يطلب منها ألا تضغط عليها وتتشدد فى حبسها بل تعطيها الحرية مع المراقبة ، ومرة ينصحها بأن تعودها على الممارسة العملية لتدريبها على أن تكون ربة بيت ، ومرة ثالثة يعلمها أن تكون صديقة لها لكى تفتح لها قلبها لحاجتها فى مثل هذه السن لمن تصارحه وتسترشد بتوجيهاته ، وليس أصلح منها كأم فى هذا السبيل ، ولقد أثمرت كل توجيهات الحكيم التربوية لابنته فى تربيتها لحفيدته .

فالحكيم يسمح لمريم بالذهاب إلى النادى ، رغم أن والدتها تمنعها ، ولكنه ينبهها « أنها بذلك المنع ترتكب خطأً كبيرًا لأن الممنوع دائمًا مرغوب ، ولذلك ينصحها بأن تعطيها نوعًا من الحرية مع مراقبتها فى كيفية استخدام هذه الحرية .. لأن من فى مثل سنها (١٤ سنة) لا ينبغى حبسها وممارسة مهنة السجن والسجان معها .. فليس من المعقول أن

تقضى فراغها في حمل شقيقتها الصغير « محمد » وترعاه هى طول الوقت ، ويجب أن تكون للبنت شخصيتها « وكيانها » .

ولأن زينب لم تتعود على الخروج أو الذهاب إلى « ناد » أو إلى أى مكان آخر هنا أو هناك ، لأن أمها منعتها من كل ذلك ، فإنها ترى فيما يسمح به الحكيم لابنتها شيئًا غريبًا غير مألوف لها .

ولكن عندما عادت مريم ذات يوم من « النادى » وسمعت جدها يقول لأمها أن المذيعة التليفزيونية (.......) كانت عنده اليوم بمكتبه فى الأهرام ، تدخلت مريم فى الحديث وقالت : إن ابنها يبقى صاحبى ، فبهتت زينب وقالت لابنتها فى استغراب : صاحبك يعنى إيه ؟ ، فقالت مريم بتلقائية : إنه صديقنا فى النادى » ، فظنت زينب أن الحكيم سيقوم بضرب حفيدته ، ولكنه لم يفعل ، فظلت تنظر لابنتها غضبًا وقالت لها : كيف تعرفت فى النادى على هذا الولد ؟ قالت مريم ولم تزل بعد لا يلفتها شىء فى استجواب والدتها : هو يأتى للنادى وقال لى إن « مامته » بتعرف « جدو » .. ، ولاحظت زينب أن الحكيم يستمع إلى استجوابها لحفيدته بشكل طبيعى جدًا ، ولم يستفزه ما استفزها من حديث « مريم » عن معرفتها بشخص غريب ، ولم تستطع أن تمد يدها عليها أو تلومها وتعنفها فى وجود « رب البيت الكبير » ، فلما انصرفت همت بالخروج خلفها ، فأمسكها الحكيم من يدها لتبقى جالسة كما هى وقال لها : أنا عارف إنك تريدين ضربها .. دعيها ولا تمسيها بسوء .. انت متصورة إنها ممكن تروح للنادى وتنعزل عن الناس ولا تكلم أحدًا .. يا إما تسمحى لها بالذهاب للنادى أو لا تسمحى .. ولكن الأفضل أن تذهب للنادى ولكن ليس كل يوم حتى لا تكون وجهًا مألوفًا وتصير حياتها هى حياة النوادى .. اسمحى لها مرة كل أسبوع تروح تلعب رياضة أو تقابل أصدقاءها وصديقاتها » .

فى البداية كانت الأم زينب تضغط على ابنتها ألا تذهب « للنادى » ولكنها لما سمحت لها بناء على نصيحة الجد الحكيم تبين لها أنه كان محقاً فى وجهة نظره ، فلم تعد مريم تذهب للنادى إلا مرة كل شهر ، تلبس ملابس الرياضة وتجرى فى الساعة السابعة صباحًا لمدة ساعة ثم تعود إلى البيت ، فلم يعد النادى بالنسبة لها إلا مكانًا لممارسة الرياضة ، ولذلك حينما تطلب منها أمها أن تذهب للنادى ، هى نفسها التى ترفض وتقول « أنا لا أحب صحبة النوادى ولا أستريح لشلل النوادى » ، أما حينما كانت أمها تمنعها عن « النادى » كانت تتضايق لأنها تعتبر أن عالم « النوادى » عالمًا جديد عليها تريد أن تستكشفه خاصة وأنها ترى صويحباتها يذهبن إليه ويتحدثن عنه ، فلما سمح لها بارتياده أصبح شيئًا عاديًا بالنسبة لها ، لا يثير إهتمامها أو فضولها ، وهكذا تبين للأم أن الجد كان على حق فى توجيهاته لها نحو حفيدته .

ولكن عندما جاءت مريم لتقول لها أنها تريد أن تذهب فى رحلة مدرسية إلى الأقصر وأسوان ، رفضت الأم بشدة وقالت لها : رحلة للأقصر وأسوان ؟ يعنى ستبيتين خارج البيت .. مستحيل » .. ولكن الحكيم كان له رأى آخر ، فقد قال لزينب « كيف تضيعين على ابنتك فرصة مشاهدة معالم وآثار بلدها .. إنك تتصرفين معها نفس التصرفات التى كنت تشكين منها مع أمك » . فقد كانت زوجة الحكيم شديدة المحافظة .. فلم تسمح لزينب بأى رحلة مدرسية إلا إذا كانت العودة فى نفس اليوم ، كرحلة لحديقة الحيوان مثلاً ، أما ماعدا ذلك فممنوع ، ولم يعرف الحكيم بتشدد زوجته على ابنتها إلا فى سنواته الأخيرة عندما كانت زينب تجلس إليه ، ويتذكران معًا حياة الأسرة زمان ، فتحكى له ابنته عن طبيعة معاملة أمها لها ، وكيف أنها قد ضيقت عليها وحرمتها من أى رحلة مدرسية حتى لو كان فيها مبيت ولو لليلة واحدة ، فيقول الحكيم

لابنته : ولماذا لم تخبرينى وقتها ؟ ، فتقول له « لأن كان فيه حاجز بيننا وبينك يمنعنا من أن نقول لك على شىء أو نتحدث إليك » ، فيتذكر الحكيم كيف أنه هو الذى صنع ذلك الحاجز من العزلة بينه كفنان وبين مسئولياته كرب أسرة ، واحترمت زوجته شروط عزلته فكانت تصرف كل أمور أبنائها بنفسها ، وها هو الحكيم لا يكتشف كل ذلك إلا بعد فوات الأوان ، ولذلك حينما تحدثه ابنته عن تشديد أمها عليها يذكرها هو بذلك عندما تتشدد على ابنتها ويسألها : لماذا تحكمين الحصار حولها هكذا ؟ ، فتقول له : لأن ماما كانت تتصرف معى كذلك ، فيقول لها : ولماذا تكررين مع ابنتك نفس التصرفات التى تحملين بسببها أمك كل مشاكلك والتضييق على حريتك لدرجة أنك حتى الآن لم تذهبى إلى الأقصر وأسوان .. فكيف تضيعين على ابنتك نفس الفرصة التى ضاعت عليك من قبل عندما كنت تلميذة مثلها .. دعيها تسافر .. ففوائد الحرية أكثر بكثير من فوائد التشديد والتضييق ، بل على العكس معاملتك لمريم معاملة الحارس للمسجون لن تحقق لك إلا عكس ما تريدين .

وقد اعترفت زينب للحكيم بأنه محق فى كل توجيهاته ، فقد أصبحت ابنتها صديقة لها بعد أن شعرت أن أمها تحترم حريتها وكيانها وشخصيتها فصارت تشاورها وتصارحها وتطلعها على خصائص تصرفاتها مما جعل الأم فخورة بابنتها تحكى لها عن تجربتها فى الحياة وتبين لها مواضع خطئها حتى لا تقع فيها .. ورغم أن زينب قد تفهمت مطالب والدها بشأن أسلوب تربيتها لابنتها وصارت تجنى ثمارها إلا أن ذلك لم يكن يمنع من وقت لآخر تأثرها بأسلوب والدتها فى تربيتها هى ، والتى ارتبطت بها أكثر من الحكيم ، فبعد أن وافقت على وجهة نظر والدها بسفر ابنتها مريم فى رحلة إلى الأقصر وأسوان ، ثم بعد ذلك فى رحلة أخرى إلى « شرم الشيخ» و « سانت كاترين » بسيناء ، تنفيذًا لتوجيهات الحكيم بضرورة عدم تضييع

أى فرصة على أحفاده بالثقافة السياحية بمشاهدة معالم وآثار بلدهم ، إلا أن مريم عندما أخبرت والدتها برغبتها فى الاشتراك فى رحلة مدرسية سمعت أن مدرستها تعد لرحلة إلى العاصمة الفرنسية فى الأجازة الصيفية ، كان رد الفعل مختلفًا ، وكأنما أرادت مريم أن تجس نبض أمها حيال رحلة منتظرة كهذه ، ولأن الأم انزعجت بشدة لمجرد أن يخطر لابنتها مجرد خاطر للمشاركة فى رحلة كهذه ، وقالت لها منهية الحديث فى هذا الموضوع « كله كوم وفرنسا كوم » ، وعلى الرغم من انزعاج زينب لشطحات ابنتها إلا أنها كانت مطمئنة إلى أن الحكيم رغم تسامحه مع حفيدته وسماحه لها برحلات داخل مصر إلا أنه لا يمكن أن يوافق على سفرها فى رحلة إلى باريس ، هكذا ظنت زينب أو خيل إليها أنها مطمئنة إلى جواب رب الأسرة الكبير فى هذا الموضوع الذى لن يختلف معها فيه ، وكذلك كانت مريم مطمئنة هى الأخرى إلى جواب جدها فى موافقتها على رغبتها بالسفر إلى خارج الجمهورية ، فقد كان يعدها إذا تفوقت فى دراستها وحصلت على درجات محترمة فى نهاية العام الدراسى فسوف يكافئها تشجيعًا لها برحلة إلى « باريس » ، ولكن زينب كانت ترى فى مثل هذا الوعد مجرد تشجيع معنوى من والدها لحفيدته ، لأن درجات مريم لم تكن فى الغالب جيدة مما يمكن أن يلزم الحكيم بالوفاء بوعده ، وكانت حين تحصل على درجات يمكن أن تثير حفيظة أمها كان يكتفى بأن يطلب منها ألا تغضبها ، وحين ذهبت لتطمئن على أحوالها الدراسية من مدرستها ، عادت لتخبر الحكيم بأن حفيدته مشاغبة ولن تفلح فى دراستها ، ولكنها مع ذلك متفوقة فى اللغة الفرنسية على الثلاثة فصول ، فيبتهج الحكيم ويرى فى ذلك مبررًا فى ألا تغضب ابنته ، حفيدته ، حتى يكون ذلك تشجيعًا لها على التقدم فى بقية المواد الدراسية ، ولذلك كان ترحيب الحكيم بالموافقة لحفيدته على المشاركة فى رحلة باريس ، رغم

اعتراض أمها التى قالت له وهى متأكدة أنه سيحسم المناقشة لصالح رأيها « أظن فى موضوع رحلة باريس حضرتك لن توافق » ، ولكنها فوجئت به يقول لها « فى هذا الموضوع بالذات أنا موافق » ، وقال لحفيدته « لو نجحت هذا العام أنا موافق على سفرك فى رحلة باريس » ، وصمتت زينب وهى تحاول أن تخفى خيبة أملها بعد أن قال رب الأسرة الكبيرة كلمته ، ومع ذلك كان لديها أمل فى إقناعه بالتراجع عن موافقته المبدئية ، مع نهاية العام الدراسى فتعود لمناقشته فى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكن قبل أن ينتهى العام الدراسى وتنجح حفيدته ، كان الحكيم قد مرض مرضه الأخير ، ولم تكن هناك مناسبة أو مجال لكى يمضى فى وعده لحفيدته أو يتراجع عنه ، ولن تستطيع مريم أن تداعبه وتشاركه وتدلله .

* * *

إن الحكيم يحبها وهى أيضًا تحبه وكانت تدخل عليه حجرته فى أى وقت ويدور بينهما حوار ينتهى غالبًا بحديث الفلوس ، فهى مثلاً حين تستأذنه فى الخروج ، يسألها عن خط سيرها ، فتخبره أنها ذاهبة لزيارة إحدى صويحباتها ، فيسألها عن اسمها ، وشكلها إيه ؟ حلوة ولا وحشة ؟ فالحكيم يحب صويحبات حفيدته ذوات الشعر الأصفر والعيون الخضراء ، فتلك هى النوعية التى يجذبه إليها جمالها كما اعتاد على ذلك فى باريس أيام الشباب ، ولذلك ففضلاً عن حبه لمريم بحكم أنها حفيدته فإنها أيضًا تنطبق عليها مواصفات الجمال التى يحبها ، وقد استطاعت مريم أن تعقد بين جدها وبين صويحباتها صداقات استمرت حتى فى الأجازات المدرسية ، فهو يلتقى بهن بعد إنتهائهن من تلقى دروسهن مع حفيدته ، فى المنزل ، بل إن واحدة من صويحبات مريم فى فترة الإقامة بالإسكندرية قبل الانتقال والاستقرار فى القاهرة ، كانت تأتى من الاسكندرية خصيصًا لرؤية الحكيم فى القاهرة ، فقد كانت صاحبات مريم هن صاحبات أيضًا

للحكيم خصوصًا الجميلات منهن ، أما القصيرات اللواتى لا يتمتعن بالجمال فيقول لحفيدته ألا تأتى بهن إليه مرة أخرى !

وإذا سأل الحكيم عن زميلة لحفيدته تريد زيارتها ، وأجابته بأن جمالها من النوع العادى ولكنها تعرف كيف تجعل نفسها جميلة بحسن ذوقها فى اختيار ملابسها وحسن هندامها ، يقول الحكيم : يعنى إيه ؟ فتقول الحفيدة الذكية مستدرجة جدها إلى ما تريده بطريقة غير مباشرة « يعنى هى تلبس ماركات مستوردة » ، ويدور حوار بينها وبين جدها حول ماركات الملابس وأسعارها الغالية والرخيصة ، ثم تدخل مريم إلى هدفها المقصود من هذا الحوار بأن تطلب من جدها « فستانًا » من تصميم « بيير كاردان » - مصمم الملابس الفرنسى الشهير - فيغضب الحكيم ويثور بعد أن استفزته حفيدته : ولماذا « بيير كاردان » ؟! محتجا بذلك على هذا الاتجاه للمستورد .

ولا تدرك حفيدة الحكيم من سر ثورته إلا أنه لا يريد لها أن ترتدى الملابس المستوردة لأنه سوف يدفع وهو لا يريد أن يكلف نفسه ويغرم غرامات باهظة . إن الحكيم يعجب بحفيدته ولكن كله إلا المستورد ، فهو كريم معها ولكن فى حدود المقبول والمعقول ، فعندما يعطيها مثلاً عشرة جنيهات لتشترى له شيئًا « كالأدوية » - مثلما يفعل مع حفيده - وتكون قيمتها أربعة جنيهات ، يترك لها الستة الباقية ، وهو يكافئها بعشرة جنيهات أسبوعيًا لأنها تقدم له « البيبسى كولا » ليس من جيبها بل من جيبه أيضًا ، فهو يعجب بطريقتها المنظمة فى تقديمها إليه على صينية مفروشة ومعها الثلج والملعقة ومناديل الورق ، فيفرح الحكيم بحفيدته النظيفة المنظمة والتى نجحت فى اكتسابه بسرعة منذ أن استقرت وإخوتها ووالدتها معه بشقته فى القاهرة ، وكانت بداية الصداقة بينها وبينه هى زجاجة المياه الغازية التى تحضرها له ومعها « فاتورة الحساب » ،

ولا يكون ابتهاج الحكيم بالمشروب المثلج فى حد ذاته ولكن ابتهاجه يكون بسبب « الفاتورة » التى تحرص حفيدته على تقديمها له مع أى شىء تقوم بشرائه له ، فهو يراها بذلك ذا عقلية اقتصادية مدبرة بعكس ابنته زينب وابنه الراحل إسماعيل اللذان لا يحسبان حسابًا لأى شىء ، فتأتى الفلوس فى أيديهما وتذهب ، ولا يعرفان كيف ولماذا ؟ لذلك حين يرى الحكيم حفيدته مريم تشترى له الشىء ومعه فاتورة الحساب ، يعتقد أنها ستكون أكثر نجاحًا وتدبيرًا فى حياتها ، وأكثر فهمًا ومهارة فى تعاملها مع الواقع المادى الذى أصبح يطبع العصر بطابعه ، فهو وإن كان يرى حفيدته تأخذ مقابلًا ماديًا أمام كل خدمة تؤديها له مما قد لا يسعده أنها لا تقدم خدماتها له لأنه جدها ولكن لأنها تتقاضى مكافأة عن تلك الخدمات ، إلا أنه رغم ذلك يكون سعيدًا بأن حفيدته ستكون هى زوجة المستقبل المدبرة ، وأنها بحرصها على الفاتورة والحساب ستفلح فيما لم تفلح فيه أمها ، ولذلك كان يقول لها : علمى أمك لتكون مدبرة مثلك » !

وعندما يرى أن نظام الطعام فى البيت قد اختل .. فلا مواعيد للأكل .. وكل من يريد أن يتناول شيئًا يتناوله فى أى وقت وفى أى مكان بعيدًا عن مائدة الطعام ، وأن نوعيات الأكل كثيرة على الغداء ، مكرونة ، وبطاطس ، وخضر ، ولحم ، وعيش ، فقد طلب من منصورة ألا يحتوى الطعام بعد ذلك على النشويات خوفًا على الأولاد من السمنة ، والاكتفاء باللحم والسلطة والخضر ، ولكنه عندما فوجئ بارتفاع فاتورة اللحم ، قال لابنته : البلد لم يعد فيها لحوم ، والسادات قال اتقشفوا .

فلما قالت له ابنته : ألم تكن أنت الذى نصحتهم بالابتعاد عن النشويات وأكل اللحم ؟

فقال لها : فليأكلوا النشويات ، وبدل اللحم فيه عدس .. فيه فول !

أما مسألة عدم الانتظام فى مواعيد الطعام ، فإنه رغم إنزعاجه لهذه

الفوضى التى لم يتعود عليها ثم تطبعه بها بعد ذلك ، إلا أنه كان عندما تعده حفيدته مريم بأنها سوف تتولى عملية تنظيم مواعيد الطعام وإعداد المائدة فى مواعيد محددة بحيث لو تخلف عنها أحد فلا طعام له إلا عندما يحين موعد الوجبة التالية ، فإن الحكيم كان يبتهج لمجرد أن تفكر حفيدته مثل هذا التفكير ، ويسعد لنواياها فى النظام حتى لو لم تنفذ شيئاً مما وعدت به ، إلا أنه يرى فى مجرد تفكيرها بذور أمل فى نجاحها فى حياتها المقبلة حينما يكون لها بيت وأسرة ، صحيح أنها لم تفعل شيئاً يدل على ذلك إلا أنه يلتمس لها العذر لقلة حيلتها وهى فتاة صغيرة على أن تغير نظام بيت بأكمله من الصعب إنتزاع أفراده من عاداتهم بسهولة ، ولكن حينما تكبر مريم وتستقل ببيتها فسيكون باستطاعتها حينذاك أن تنجح فيما لم تنجح فيه فى بيت جدها ، ما دام هذا هو تفكيرها وحبها للنظام .

وفى مقابل هذه الصورة الجميلة التى انطبعت لدى الحكيم عن حفيدته ، تختلف الصورة المنطبعة لديه عن أمها زينب ، فرغم أنها منظمة فى حياتها إلى درجة متعبة لأولادها وللحكيم نفسه الذى كان يقول لها :

لم يبق إلا أن تعلقينا فى النجفة حتى يظل البيت على نظافته !

فإن الحكيم عندما يرى لها تصرفا بعيدا عن النظام تنطبع لديه صورة نهائية عنها أنها غير منظمة على الإطلاق فى حياتها ، فقد شاهدها ذات مرة وهى تلتقط بقايا طعام وحلوى ، أخذ ابنها محمد (١٨ شهرا) غرضه منها ثم ألقاها على الأرض ، فامتدت يدها بها إلى فمها عن غير قصد ، فاعتبرها الحكيم إنسانة مهملة فوضوية عديمة النظام ، ولا يمكن أن يغير نظرته إليها مهما حاولت إقناعه ، فقد رأى بعينيه مالا يجعله يغير قناعاته ، ولذلك حينما تأتى مناسبة فى مجال المحافظة على الصحة والنظام يقول لحفيدته :

أصل أمك غير منظمة ! وتظل الصورة التى رآها يتردد صداها فى ذاكرته ويعبر عنها لسانه كلما استدعتها المناسبة ، مما يجعل زينب تشعر بكلمات أبيها كالسوط الذى يلهب ظهرها ويحرق دمها ويشعرها بموت معنوى لا تطيقه ولا تحتمله ، ولذلك كانت تخشى أن يكتشف شيئاً جديداً مما قد يرى فيه تصرفا يدل على قلة النظام ، فقد كان من رأيها أن تكون فترة الصباح لتنظيف البيت ، ثم يستقبل الحكيم ضيوفه فى فترة العصر ، ولكن الحكيم كان يفضل استقبال ضيوفه فى الصباح بدءاً من الساعة العاشرة والنصف ، وفى صباح يوم سبت كان التلميذ على موعد فيه معه واتصل به كالعادة تأكيدا للموعد باستئذانه فى الحضور إليه ، ولكن الذى رد عليه فى التليفون كانت ابنته زينب التى سمعها تطلب منه إرجاء موعد حضوره إلى يوم آخر لأنها قد بدأت فى أعمال المسح والتنظيف فى ذلك الصباح ، وأن حضوره حيث يستقبله والدها فى شرفة صالة البيت سوف يكشفها أمامه وتتلقى منه لوماً وتأنيباً على انعدام نظامها فى عدم التزامها بأعمال التنظيف فى آخر النهار حتى يتسنى له إجراء مقابلاته المفضلة فى فترة الصباح ، ووجد التلميذ نفسه حائرا فكيف يجرؤ على تأجيل موعد حدده له أستاذه ، غير أنه كان مشفقا على زينب من غضب والدها وثورتها عليه ، فتحجج للحكيم بأن الموضوع الذى كان سيراجعه معه لا زال فى حاجة إلى تعديل ولذلك طلبت منه إعطائى موعداً آخر ، ولكنه قال له بلهجة كأنها الأمر : أنا فى انتظارك ، وأسقط فى يده ، واتصل بعد قليل على أمل أن يكون المتحدث هو « زينب » ولكن ردت عليه « منصورة » مديرة البيت وأخبرها بالمأزق الذى هو فيه ، فوجدها تطمئنه وتطلب منه الحضور لأن « البيه » فى انتظاره ، ويبدو أنها كانت قد حلت المشكلة بمكانتها عند الحكيم ، وأفهمته أن أعمال تنظيف البيت فى ذلك اليوم بالذات لم تكن لتحتمل التأجيل إلى آخر النهار وأنها لذلك تلتمس منه

العذر ، واستقبل الحكيم تلميذه فى ذلك الصباح فى غرفة مكتبه ، ولولا « منصورة » لكانت « زينب » قد سمعت لها كلمتين لم تكن بحاجة إليهما ، وتكفى الفكرة التى أخذها عنها والدها .

وقد استغلت مريم حب جدها واهتمامه بالمحافظة على الصحة والنظام لتمارس شقاوتها ومشاكستها مع « منصورة » حينما تغضب عليها أو تختلف معها ، والحفيدة تعلم مدى حب وتقدير جدها لمديرة بيته ولن تستطيع أن تجعله يقف معها ضدها ، ولهذا فإنها تضرب له على وتر النظام والنظافة والصحة ، فتأتى له لتقول على كوب « الزبادى » الذى أتت له به «منصورة» : ياجدو .. هذا الزبادى ملىء بالاشعاع(*) .. ومنصورة لا يهمها شىء .. إنها تترك المطبخ دون تنظيفه فهو ملىء « بالصراصير » .. وأنا بعينى رأيت « صرصارًا » فى المطبخ ! ، فينفعل الحكيم خشية على صحته وصحة من فى البيت ويقول بلهجة يبدو فيها الغضب الذى لا تشعر به « منصورة » أو يجعلها تأخذ على خاطرها منه : « ماذا تفعلين يامنصورة .. إذا كان المطبخ غير نظيف .. ألا تأخذين بالك ؟! » .

وتكتم الحفيدة ابتساماتها وضحكاتها فقد نجحت فى استثارة جدها على مديرة بيته ، وهو طبعًا لا يعرف أبعاد اللعبة التى قامت بها حفيدته لأنه لا يعرف أن بينها وبين « منصورة » خلافًا ، جاءت بسببه تحاول أن توغر صدره عليها ، ولكن مريم لا تلبث إلا أن تشعر بالعطف على « منصورة » فتذهب إليها مداعبة : معقول جدو « يزعق » لك ؟! » ، ثم تقوم بعمل المصالحة بينهما لإزالة ما اعتقدت أنه خصام ، وفى أحيان أخرى

(*) أيام إنتشار الجدل حول تلوث بعض الأطعمة المستوردة بإشعاع المفاعل النووى السوفييتى « تشرنوبيل) الذى انفجر إهمالاً .

كانت « مريم » تأتى لتقول لمنصورة على أشياء لم تحدث ، بقصد الضحك والمشاكسة ، ولما اكتشفت « منصورة » ذلك كانت تطلب منها ألا تقول لها على أشياء لم تحدث لأنها تصدقها فى كل شيء تقوله لها ، فتشفق عليها مريم وتقول لها : إنها آخر مرة .. أنا غلطانة » ، ولكن شقاوة الحفيدة مع « منصورة » ليس فيها شيء اسمه آخر مرة .

ورغم دلال مريم على جدها واعتبارها عنده أفضل مثل للنظافة والنظام حتى من والدتها ، إلا أنه حينما انفعل ذات مرة على « أمها » ، حدث شيء لم تكن تتصوره الأم .

* * *

فقد تولت ابنتها الرد على جدها دفاعًا عنها ، فقالت له : كيف تثور على « مامى » وتكلمها بهذا الشكل .. ألا يكفى أنها تدبر أمر هذا البيت وتتولى أعباءه ومسئولياته وتتحملنا رغم كل هذا » ؟ ! وبين دهشة الأم وذهولها من جرأة ابنتها التى فوجئت بها ، حاولت إخراجها حتى لا تتأزم الأمور بينها وبين جدها ، فمريم لا تفهم أن هذه ليست أول مرة يثور فيها الأب على ابنته ، وهى ثورة مؤقتة لا تلبث أن تزول خلال عشر دقائق يصالحها بعدها ، ولكن مريم لم تكن تعرف ذلك عندما وقفت تزود عن أمها ، صحيح أنها ترد بأدب ولكنها المرة الأولى التى ترى فيها زينب أحداً يقف أمام الحكيم ويرد عليه وجها لوجه ، وبعد أن ردت الحفيدة على جدها بعفوية وتلقائية الابنة المحبة لأمها دفاعاً عنها أمام ما اعتقدت أنه إهانة لها حتى لو كان ذلك والد أمها الذى هو فى نفس الوقت جدها الذى تحبه ويحبها ، فإن الأم وقد فوجئت بهذه الجرأة من إبنتها أمام رب البيت الكبير ، ظنت أن الحكيم سوف يفزع مثل فزعها ويتطور الأمر إلى ما هو أسوأ ، فأرادت أن تتلافى المسألة ، فطلبت من مريم أن تغادر الحجرة فوراً فى محاولة منها لتهدئة الموقف المتوتر ، ولكن ابنتها ردت عليها بما يعكس

ثقتها فى قدرها عند جدها ودلالها عليه ، فقالت « أرجوك « يا مامى » لا تتدخلى بينى وبين جدو » ، ولم يتكلم الحكيم ، الذى لم تظهر على وجهه سوى ابتسامة خفيفة لمحتها زينب فاطمأنت على أن شيئاً مما تصورته من مخاوفها لن يحدث ، وغادرت هى الحجرة وهى لا تزال متعجبة مندهشة مما رأت ومما سمعت ، ولكن دهشتها ازدادت بعد حوالى خمس دقائق عندما حدث مشهد عجيب آخر لم تتوقعه ، فقد رأت مريم تقوم بإطعام جدها كوبا من « اللبن الزبادى » ، وتساعده على رياضة المشى وهو سعيد يضحك ، فلم تصدق زينب نفسها وهى ترى الصورة المتوترة بين الجد وحفيدته قد انقلبت خلال دقائق إلى صورة أخرى لا يتخيلها أحد ، ولذلك حينما سألت زينب ابنتها بعد ذلك عن سر هذا التحول من موقف يشبه الخصومة إلى موقف كله حب ومودة ، أوضحت لها ، أنها قالت لجدها كل مافى نفسها وانتهى الأمر ، وليس معنى ذلك أنها خاصمته ولن تجلس معه ، بل على العكس هى تحبه ولذلك فهى تصارحه وهو يحب صراحتها ، فذلك يسعد الحكيم ، الذى تركها تفرغ كل مالديها من شحنات الانفعال مكتفيا بابتسامة هادئة مستمعا إليها ليعرف وجهة نظرها مهما كانت غاضبة ، فهو ديمقراطى فى معاملاته ، ويتيح للطرف الآخر أن يتحدث إليه ولو بانفعال ثم يقوم هو باقناعه وكسبه إلى وجهة نظره ، ولقد فهمت الحفيدة وعرفت مالم يفهمه أو يعرفه أبناء الحكيم أنفسهم الذين كانوا يتجنبون الحديث إليه ، أما مريم فقد استطاعت أن تخترق جدار عزلة جدها ، تلك العزلة التى لم تستطع أمها أن تقترب منها إلا بحذر ، ولذلك حينما وجدت ابنتها تداعب الحكيم وتقبله وتحتضنه ظنت أن ذلك مما يضايقه ويغضبه لأنها لم تتعود على هذه العلاقة الطبيعية المفروض أن تكون بين أب وابنته ، فلم يحدث أن تجرأت على تقبيل والدها أو احتضانه لأنه لم يعودها على ذلك هى وأخيها الراحل إسماعيل ، لذلك طلبت من إبنتها ألا

تضايق جدها فكان ردها أن جدها يسعد بذلك ولا يتضايق ، وكان الحكيم بالفعل كذلك لأنه أدرك عواقب ابتعاد أبنائه عنه ، وكان ذلك بعد فوات الأوان ، فأراد أن يعوض ما فات مع أحفاده ، فسمح لهم بما لم يسمح به لأبنائه مما أزعج زينب التى قالت له ذات مرة بعد انصراف مريم ومداعباتها لجدها ، أنها ترجو ألا يكون قد تضايق من حفيدته .

فقال لها : دعى مريم تتصرف معى بتلقائية . فهى تفهمنى وتعرف كيف تعاملنى .. لا تتدخلى بينى وبين الأولاد .. أنا أحبهم لأنهم يتكلمون معى بصراحة كانت غائبة عنكم زمان حينما كنتم تعاملوننى كأننى « بوبع » .. يعنى حاجة يخوفوا بها العيال .. لذلك بعدتم عنى ولم تكونوا تتخطون عتبة حجرتى كأن بينى وبينكم حاجزاً .. وأنا لا أريد اليوم حاجزاً بينى وبين أحفادى .. لا تعودينهم أن يخافوا منى .. دعيهم يقولون مافى قلوبهم ونفوسهم فأنا أعرف كيف أقنعهم وهم أيضاً يعرفون كيف يقنعوننى .. فاتركى العلاقة بينى وبينهم تستمر سلسة طبيعية .

ولا تملك زينب أمام حجة ومنطق الحكيم سوى الصمت ، ولم تعد تناقش والدها فيما يحدث من تطورات العلاقة بينه وبين أحفاده .

الفصل الخامس

الخليفة

● **نصيحة من الحفيد الأكبر لأمه :**
حذار أن يكون إبنك مثقفا .

كانت أكثر هذه العلاقات طبيعية هى علاقة توفيق الحكيم بأصغر أحفاده ، « محمد » ، ذى الثمانية عشر شهرا والذى أراد الحكيم أن يمارس معه الأبوة كاملة منذ البداية ، فمحمد لا يزال طفلا ، وهو يريد أن يعيش معه دور الأب الذى فاته أن يعيشه مع أبنائه منذ بداية طفولتهم ، ذلك رغم أن الحكيم نفسه كان معترضاً على مجىء « محمد » ، ونصح أمه بإجهاضه ، حتى لا تحمل نفسها أعباء جديدة بجانب مريم ، وإسماعيل ، خاصة بعد وفاة زوجها ، ولكن زينب كعادتها كانت لا تفعل إلا ما تقتنع به ، فأنجبت مولودها الذى أسمته على اسم أبيه الراحل ، ثم كان من العجيب أن توفيق الحكيم نفسه هو الذى راح يحلل لابنته حكمة وجود حفيده الجديد الذى لم يكن راغباً فى وجوده ، بينما كانت زينب التى صممت على عدم إجهاض نفسها ، هى بذاتها التى تقول بعدما أنجبت وليدها : هل سأبدأ مشوار الأطفال من أول وجديد ؟

فكان الحكيم هو الذى يقول لها : لن تدركين حكمة وجود « محمد » إلا فيما بعد .

وكان يقارن لها بين ظروف مولده يتيما ، وظروف مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى الحكيم أن حفيده الجديد يشبه جده ، وكان يقول بأن الله سيعوضه عن يتمه بأن يجعل له شأناً كبيراً فى المجتمع ، وتوقع أن يكون هذا الشأن فى مجال الكتابة والأدب ، فقد كان يراه يشبهه فى ملامحه ، ويراه يدخل عليه حجرته ينظر إلى الكتب ، فيقول لأمه : أنظرى محمداً إنه يهتم بالكتب وينظر إليها .. إنه هو الذى سيحافظ على تراثى .. إن جده ناشر وأباه ناشر .. وجده لأمه هو توفيق الحكيم .. فيمكن العلاقة

بالكتب والأدب تمتد إلى محمد بالوراثة » ، وعندما كان أخوه إسماعيل يسمع هذه التنبؤات من جده لحفيده الصغير ، كان يقول لأمه : خذى بالك .. حذار يطلع مثقف .. إنه لن يفلح .. وسيكون معقداً » ، وكأن الحفيد المشاكس يقرأ الواقع الموجود بأنه لم يعد للمثقفين شأن أمام الطبقات الدنيا الجديدة ، وهو نفس رأى جده .. فقد تراجع المثقفون .. لم يعد العصر عصرهم .. ورغم أن الحكيم كان يقارن بين حال الأدباء وحال فئات الأخرى تقدمت الصفوف فى المجتمع كأهل الفن والكورة وأصحاب الحرف ، إلا أنه حتى لو عاد به الزمان ليكون شيئاً غير توفيق الحكيم لما استطاع وما أفلح أن يكون غير الكاتب المفكر الأديب ، رغم أنه فى بعض أحاديثه الأخيرة كان يعلن أنه لم يفعل شيئاً فى حياته له قيمة ، غير أنه كتب بعض الكلام على الورق ، وأنه تمنى لو كان يجيد « الرقص » البلدى لكى يرقص لنا ، أو لو كان لاعب كرة « قدم » لكى يدخل لنا فى شبكة الخصوم « جونين » ، لأنه يرى أن القيمة الوحيدة التى يتبناها المجتمع – الآن – هى المال فقط بصرف النظر عن مصدره .. رغم كل هذه التصريحات المتشائمة فقد كان الحكيم فى اعتقاده أنه حتى لو بدأ حياته فى هذا العصر ما تمنى ، وما أراد إلا أن يكون كاتبا ومفكراً ، وهاهو يتمنى لحفيده أن يكون وريثه فى هذا المجال ، ولا يتمنى الجد لأحفاده إلا كل خير يرجوه لهم . لأنه كما يقولون فى المثل الشعبى « أعز الولد ولد الولد » ، أى أن المحبة والإعزاز لا تكون من الأب لابنه قدر ما تكون لحفيده ، ومهما يكن الفكر والأدب ليسا وسيلة مثلى لجمع المال فى العصر المادى ، إلا أنه تبقى القيمة واحترام النفس ، وهذا أشد ما يحرص عليه الحكيم ، وكان يتمنى أن يكون حفيده محمد ، محمد على حسن ، خليفة له ، وكان يقول له كلما اقترب من مكتبه ومكتبته : خذ بالك من كتبى يا محمد .

وكأنه يوصيه أن يكون حاملاً لقلمه ، ومن الطبيعى أنه لولا قناعة الحكيم بأن أمانة القلم ذات جدوى ولصاحبها قيمة ومعنى - رغم كل المقارنات بأصحاب المهن الأخرى فى عصر المادة - ما تمنى لحفيده أن يكون هو المحافظ على تراثه ، الذى ينهج نهجه ويسير على دربه .

وكان « محمد » يمسك بملابس جده ، ويرتكن عليه ، ويشد عصاه يريد أن ينتزعها منه ، فراح الحكيم يتحدث إليه كأنه يسمعه ويفهمه ، فقال له :

إيه رأيك لو عملنا اتفاقية .. سأعطيك عصا صغيرة تناسب طولك وسنك وتمشى بها معى فى الطرقة » . وأهداه عصا صغيرة لكى لا ينازعه فى عصاه الكبيرة ، ولكن الحفيد لا يقنع إلا بالعصا الكبيرة ، فيحاول أن يأخذها منه ، بينما الحكيم يحاول إرضاءه بإعطائه عصا أخرى كبيرة من تلك العصى التى يحتفظ بها ، ولكن يبدو أن شقاوة الطفل وذكاءه يجعلانه متيقظاً لأى محاولة لإثنائه عن عزمه فى الحصول على العصا التى يتوكأ عليها جده بالذات ، فيرفض أى عصا غيرها ، مما اضطر الحكيم إلى عقد معاهدة مع حفيده ، فقال له : عندما أتمشى دع لى العصا .. وعندما أدخل حجرتى خذها العب بها .

ورغم ذلك كان الحفيد الصغير يحلو له أن يسير بالعصا الصغيرة - مؤقتا - إلى جوار جده ، ويقلده فى مشيته وحركته ، وكان يحلو له أن يعبث بعجلته الطبية ، فيداعبه الحكيم قائلاً :

يا ولد يا عكروت ستفسد العجلة ، . وكان الحكيم يلاعب حفيده بما كان يلاعب به أخويه : إسماعيل ومريم ، فى طفولتهما ، فيضع يده فى « جورب » ويشكل له به أشكالا مختلفة بأصابعه : كلبا ، أو حمامة ، أو طاحونة دوارة ، ويقلد أصواتها ، وكانت زينب فى طفولتها تنبهر بمثل هذه الألعاب حينما يلاعبها بها والدها فى تلك الأوقات القليلة التى يعطيها لها

ولأخيها ، أما اليوم فإن « محمداً » لا يلتفت إلى ألعاب جده ، إنه ينظر إليه باستغراب ثم يدير له ظهره ، باحثاً عن شيء آخر مثير يلعب به ، فهذا الجيل قد تجاوز به التليفزيون سنوات عمره المحدودة ، فقد صارت معلومات طفل اليوم أكثر ، وإدراكاته أوسع ، لذلك فإن ما كان يستوعبه جيل الحكيم ، فى سنوات ، صار الجيل الحاضر يستوعبه فى سنة أو شهور قليلة ، تماماً مثل البشرية فى مراحل تطوراتها المختلفة ، حتى صار ما أحرزه العلم من تقدم فى السنوات الأخيرة ، يساوى ما تحقق خلال مئات السنين الماضية ، فى مجال الطب مثلاً ، كانت هناك أمراض يستعصى علاجها للأطفال . أصبحت الآن من أبسط ما يتم علاجه ، ورغم ذلك فقد كان الحكيم بالنظر إلى ما كان فى جيله يحرص على صحة حفيده ، محمداً ، ويطلب من أمه أن تحرص على مواعيد تطعيمه ، والاعتناء بإرضاعه ، وكان يناقش الطبيبة التى تقوم على رعايته فى كل ما يخص صحة حفيده ، بل إن الحكيم حينما كان بالمستشفى ، لم يكن مشغولا بمرضه قدر انشغاله بحفيده الصغير ، فيكون أول سؤال منه لأمه عنه . ومن العجيب أنه فى فترة وجود الحكيم بالمستشفى كان « محمد » يكتفى بإلقاء نظرة على حجرة جده المفتوحة دون أن يدخلها ، بعكس ما كان يفعل حين كان جده موجوداً بها ، وتحاول أمه أن تحول بينه وبين دخولها حتى لا يزعج جده ، ولكنه يظل يطرق الباب بيديه الرقيقتين ، ويكون هو الوحيد الذى يسمح له جده بدخول حجرته والعبث بها ، حتى دولابه الذى لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه ، كان يسمح لحفيده الصغير أن يفتحه ويبعثر محتوياته دون أن ينزعج ذلك الانزعاج الذى كان يحدث عندما تنقل ورقة من المكان الذى وضعها فيه .

وعندما تحدث زينب والدها عن حفيده الذى لا يقترب من حجرته فى غيابه ، وتذكره بما كان منه فى حضوره ، فإن هذا الحديث عن الحفيد

الصغير يكون منبها ومنشطا للحكيم لكى يكون فى أحسن حالاته ، ويعلق قائلاً لابنته : إننى أمارس الأبوة لأول مرة فى وجود محمد لأننى لم أشعر بكم وأنتم أطفال .. لذلك أنا أحس الآن لأول مرة أننى أب » .

وكان يجعل أمه تضعه فى عربة الأطفال ليلاعبه ، حتى تقضى زينب حاجيات البيت ، وكان يقول : « لم أعرف أبوتى إلا مع محمد » ولكن الحكيم الذى بدأ يشعر بأنه أب مع حفيده الصغير ، لم يستطع أن يستكمل مشوار الأبوة إلى نهايته فقد رحل الجد ولن يعود .

ولكن الحفيد الصغير لا ينسى جده ، فإنه عندما يرى صورة لتوفيق الحكيم فى صحيفة أو على غلاف كتاب ، فإنه يشير إليها مؤكدا أنها صورة جده أو كما يقول بلغة الأطفال :

« ددو .. ددو » .

البَـابُ الثـالث

الحمـا وزوج الأم

الفصل الأول

الأم الصغرى

- وما حيلته وقـد أحبت الضابط وأحبها !
- الحقيقة بعد ستة شهور .

وكما كانت علاقة توفيق الحكيم بأولاده ، كانت علاقته بابنتى زوجته بل ربما كانت أفضل ، فقد عرفت « ناجا » (خمس سنوات) ، و « نيرمين » (سنتان) ، الحكيم فى هذه السن المبكرة ، وتفتح وعيهما على الحياة ، وهما تقولان له : يا بابا .

فلم تشعرا يوما أنه زوج أمهما ، لأنه لم يشعرهما بذلك أبداً ، لدرجة أن زوجة إبنه إسماعيل لم تلحظ أى نوع من التفرقة بين أبناء الحكيم وأبناء زوجته ، إلى أن فوجئت بعد ستة شهور من زواجها ، بأن إسماعيل يقول لها ، إن « ناجا » و « نيرمين » ليستا ابنتى توفيق الحكيم ، ومع ذلك كان يشعرهما بأن لهما نفس حقوق زينب وإسماعيل ، حتى فى دعائه عندما كان يأوى إلى فراشه ليلا ، رافعاً يديه إلى الله راجيا :

اللهم احفظ أولادى الأربعة ، إلى درجة أن الحكيم كان يجعل « ناجا » تتحمل مسئوليتها كأخت كبرى ، نحو بقية إخوتها ، ويعتبرها قدوة لهم ، والمسئولة أمامه عنهم ، ويزودها بنصائحه وتوجيهاته نحوهم ، ولذلك إذا كان الحكيم قد انفعل مرتين أو ثلاثة ، فإن « ناجا » هى التى كانت تتلقى كلماته ومحاسبته أمام أى تقصير يراه قد حدث منها تجاه إخوتها ، الذين كانوا هم أيضاً يضعونها فى نفس القدر والمكانة ، فيوسطونها ، فيما لا يجرؤون على طلبه من الحكيم ، أو أمهم على السواء ، ولذلك كان يقول لها :

هو انت دايما مسحوبة من لسانك ؟!

ذلك بينما يكون إخوتها بعيدين أو قريبين ، يتسمعون لوم الحكيم وانفعالاته على أختهم ، ويتضاحكون فيما بينهم على أختهم ، وما هى فيه من وضع لا تحسد عليه ، وهم الذين غرروا بها ، ولكن هذا قدر الأخت

الكبيرة ، خاصة إذا كانت تتعامل مع رجل كالحكيم ، ليس ككل الآباء ، وليس ككل الأجداد ، وليس ككل أزواج الأم ، فهذه مسميات لا يعرفها ، لأن كل من فى بيته سواء ، يتصرف معهم بطبيعته وصفاته . ومن تلك الصفات التى أتعبت « ناجا » تردد الحكيم ، وعدم إعطائه الرد الحاسم والنهائى فى أى مشكلة تعرض عليه ، ولو قال رأياً فورياً فيها ، فعلى سامعه أن يتريث ولا يأخذ بوجهة نظره قبل مرور أربع وعشرين ساعة حتى يكون الحكيم قد فكر فى المشكلة وأدارها فى رأسه على وجوهها الأربعة ، بل قد تشغل تفكيره وهو نائم حتى يصل فيما يفكر فيه إلى قرار ، ولذا ينصح من يستشيره فى موضوع ما ، ألا يأخذ برأيه الأول ، وينتظر حتى اليوم التالى ، فبعض من حوله كان ينتظر ، وبعضهم متعجل فيأخذ برأيه هو دون انتظار لرأى الحكيم ، والبعض الآخر كان يأخذ بوجهة النظر الأولية للحكيم ، وكانت « ناجا » من هذا البعض الذى لم يكن قد فهم الحكيم بعد ، فكانت تسأله فى شيء ما وكان يقول لها افعلى كذا، هل فهمت؟، نعم يا بابا فهمت، وعندما تفعل يكون قد فكر وصارت له وجهة نظر أخرى ، فيقول لها « لا ياستى ليس هذا ما كنت أريد منك أن تفعليه » ، فتندهش « ناجا » طبعاً وتقول « ألم تقل لى يا بابا إفعلى كذا وكذا .. » ، فيقول لها « أصلك لم تفهمينى الموضوع لأنك غير فاهمة .. لأنك « حمارة » ، فتتضايق « ناجا » وتأخذ جانباً ، فيقول لها الحكيم « لماذا تأخذى الأمور بحساسية ، أصلك معقدة » ، ولا تلبث أن تعود المياه إلى مجاريها ، وكلما كبرت ناجا وتعاملت مع الحكيم ، صارت تفهم شخصيته وطباعه وتتعامل معه على أساسها ، وهى قد استفادت من احتكاكها به ومن تحميله لها المسئولية ،ومن اعتباره لها الأم الصغرى لأخواتها باعتبارها أكبرهم ، ودربها على أن تكون ذات شخصية تتحمل مسئولياتها مبكراً ، وقد كان سعيداً بها عندما اكتشف

حبها للقراءة ، فكان يعطيها الكتب والمجلات لتقرأها ، وعندما يستعصي عليها فهم شيء تسأله عنه ويجيبها ، وذات مرة رأت باب حجرته مفتوحاً وهو أحياناً ما يفعل ذلك ، فلاحظته « ناجا » وهو يكلم نفسه فى حوار هامس وهو عادة ما يفعل ذلك ، فيدير الحوار بينه وبين نفسه حتى يستشعر سلاسة الكلمات وبساطة التعبيرات بين شخوص أبطال رواياته ثم يسجلها بعد ذلك على الورق ، ولم تكن « ناجا » الصغيرة تفهم ذلك أو تعيه ، فلم تر إلا بابا الحكيم وهو وحده فى حجرته يكلم نفسه ، فتملكها الخوف مما ترى وسارعت إلى أمها تخبرها باكتشافها المخيف الرهيب فى نظرها : يا ماما ، بابا بيكلم نفسه » ، فكانت الأم لا تستطيع إفهام ابنتها الصغيرة ، فتقول لها : « يبدو أنه يهيأ لك ذلك » .

وتقوم فى صمت لتغلق باب الحجرة على الحكيم .

* * *

ولأن « ناجا » لم تكن تعلم أيضاً أن الحكيم لا يحب لأحد أن يقترب من حجرته أو يغير موضع ورقة فيها ، حتى الصحيفة التى يحتفظ بها منذ خمسين سنة لا يرغب من أحد أن يزحزحها من مكانها إلا إذا كان ذلك بغرض تنظيف الحجرة شريطة أن يبقى الحال على ما هو عليه كما نظمه الحكيم وقام بترتيبه ، فإن « ناجا » ببراءة الصغار انتهزت فرصة غياب الحكيم وأمها خلال صحبتها له فى باريس وسويسرا ، وقامت بحملة نظافة فى البيت كله ، وطبعاً طالت الحملة حجرة الحكيم ، فقد رأت « ناجا » أن من واجبها أن تنظفها بما فيها كتاباً كتاباً ، تنفض عنها ما يكون قد علق بها من غبار ، وبذلت فى ذلك مجهوداً غير عادى .

اعتقدت أن « بابا الحكيم » عندما يعود سيشكرها ويكافئها ، ولكنه عندما عاد شعر فى حجرته بنوع من التغيير ، رغم أن « ناجا » حاولت أن تضع كل شيء فى مكانه بقدر استطاعتها ، ومع ذلك أحس الحكيم أن

الحجرة التى تركها ليست بالضبط هى التى عاد إليها ، فسأل « ناجا » « ما الذى حدث فى حجرتى هل قمت بتنظيفها ؟ ، فلما أجابته ، قال لها دون أن يغضب « ان ما اعتقدته صحيح » ، ونبه عليها : « نظفى كما تشائين لكن لا تقربى من كتبى .. نظفيها فقط من أعلاها » ، ذلك لأن الحكيم منظم جداً يعرف مكان كل شيء وضعه فى حجرته إلى درجة أنه باستطاعته أن يقوم ليلاً والنور مطفأ ، ويمد يده إلى مكان ورقة بعينها أو كتاب بعينه فلا يخطىء قصده ما دام لم يقم أحد بتغيير أى شيء وضعه فى موضعه ، فالنظام عنده شيء مقدس ، فى الطعام ، فى الشراب ، فى كل شيء ، ولذلك كان ما يضايقه من أبنائه سوء نظامهم ، وحينما كانت تجمعه بهم مائدة الطعام كان يلاحظ أنهم يمضغون بسرعة ويبلعون بسرعة ، فينصحهم لراحة المعدة أن يمضغوا الطعام على مهل ، حتى المياه عندما يرى صغاره يشربونها مرة واحدة وكأنما يقذفون بالماء فى جوفهم قذفاً ، كان ينبههم إلى ضرورة ارتشاف المياه بهدوء مثله ، ليتلذذوا بها ، وأن يشربوا فى المرة الواحدة على عدة مرات حتى لا تظل أنوفهم فى كوب المياه فترة طويلة تلوثه أنفاسهم ، فكان أبناء الحكيم كلهم من أبناء زوجته وأبنائه ، يضيقون بالنصائح والنظام ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم يستفزه ، كانوا حريصين على إرضائه ، وهو أيضاً لم يكن يجبر أحداً على شيء ، هو ينصح ولكنه لا يفرض رأيه ، هو يقول ولكنه لا يفرض على أحد أن يسمع لما يقول ، وكانت نصائحه غير مباشرة فى أغلب الأحيان كان يقول لناجا باعتبارها كبيرة أخواتها « قولى لهم كذا ... » ، وإذا كان راضياً عن تصرف معين أو ملابس معينة يبدى إعجابه ، ولكنه مثلاً عندما يرى فستانا أحمر تلبسه ناجا ولا يعجبه يقول لها « هو انت أهلاوية » ، بما يعنى أن هذا اللون لا يليق أن تلبسه ، فهو لايحب فى الملابس الألوان المعقدة ، ويبتغى الألوان البسيطة لبناته خاصة « اللون السمنى » ومافى حكمه من الألوان

التى يسميها الألوان الباريسية، أو الألوان التى تطبع ملابس الباريسيات، والحكيم لا يهتم بالموضة ولا يعطى رأيه فيها ، ولكنه عندما يرى ملابس تعجبه وترتديها إحدى بناته فلا يخفى إعجابه ، وفى نفس الوقت يبدى عدم ارتياحه إذا رأى من تلك الملابس ما لا يناسب جسم أو سن إحداهن ، ويكون رأيه رفيقاً فى شكل نكته أو تعليق ساخر ليفهم منه سامعه ما يريد منه أن يفعله ، ولكنه لا يفرض اختياراً معيناً على كل من لهم صلة به .

فعل ذلك مع « ناجا » ، فلم يفرض عليها الطريق الذى تسلكه فى دراستها أو فى زواجها ، وكانت وجهة نظره فى اختيارات أبنائه لكلياتهم ، أن يكون أحدهم أو إحداهن فى قمة النجاح فى كلية يختارونها من أن يكونوا فى ذيل الناجحين فى كلية هو يختارها لهم أو يفرضها عليهم ، هذا شأن الحكيم ، التفوق فيما يختاره ، فقد اختار فرعا من الفن لم يسبقه فيه أحد ، اختار المسرح وحوله إلى فرع من الأدب المكتوب والمقروء ، مفضلاً أن يكون رائداً فى مجال على أن يكون عادياً فى المجال الذى اختاره له والده وهو أن يكون وكيل نيابة ، تمرد على اختيار والده ، رغم طاعته له ، وهو لا يريد أن يفرض على أبنائه كلية معينة أو نوع الدراسة فيها فيطيعونه ثم يتمردون عليه ، ولذلك ترك ناجا تختار « اللغة الإنجليزية للتخصص فيها » كطالبة جامعية ، وكان يشجعها بل ويعاونها فيما تدرسه من مواد باللغة العربية ومنها بعض مسرحياته المقرر دراستها عليهم ، « كبجماليون » ، تستوضحه عما غمض عليها فهمه من الأستاذ فى المحاضرة ، أو شيئاً لم تكن مقتنعة بوجهة نظره فيها ، تقوله للحكيم وتسأله عن رأيه فى شرح الدكتور لمسرحيته ، فيقول لها مثلا إنه قد أحسن فى هذه النقطة ، ولكن النقطة الأخرى قد فهمها خطأ ، ويوضح لها كمؤلف وجهة نظره ويطلب منها أن تسأل المحاضر أو تناقشه بما يساعده

على فهم أكثر لمراد المؤلف من مسرحيته ، ذلك دون أن يعرف أى صلة لها بذلك المؤلف ، فقد كانت حريصة مثل كل أخواتها على ألا يظهروا أى علاقة لهم بالحكيم ، وكانت تلك أيضا رغبته ، فاحترموها جميعا لأنهم يعلمون أن الحكيم لن يساعد أحداً منهم على استغلال شهرته للحصول على امتيازات خاصة ، لأنه علمهم أن يعتمدوا على أنفسهم وأن ينجحوا فى حياتهم كل منهم بشخصيته واجتهاده ، ولذلك لم يعرف أستاذ « ناجا » فى الجامعة صلتها بالحكيم إلا بالصدفة عندما عرف ذلك من إحدى زميلاتها أثناء الامتحانات حيث كان العام الدراسى قد انتهى ولم تعد هناك أى ثمرة يمكن أن تجنيها « ناجا » بمعرفة أستاذها بصلة قرباها للحكيم .

ورغم أن الحكيم لم يكن يحب أن يفرض اختياره على أحد خاصة فى مسألة الزواج إلا أنه كان متردداً بل رافضاً للموافقة على كل من يتقدم لخطبة « ناجا » ، لم يكن مرحباً بكل من طلبوا يدها ، ولم تكن « ناجا » تهتم فهى لا زالت صغيرة ، ولم تكن الأم تعترض فليست هناك مشكلة ، فلا زال أمام الابنة الكبرى وقت حتى تتزوج ابن الحلال ، إلى أن تقدم الضابط الشاب « إبراهيم عزت » لخطبة « ناجا » ، وهذا كان آخر ما يفكر فيه الحكيم لأجمل بناته ، وإن كانت ابنة زوجته فهى ابنته أيضاً ، ولذلك كان يتطلع لأن تتزوج أفضل زيجة تتناسب مع جمالها وحبه لها ، وكانت رغبته أن تتزوج دبلوماسياً لا أن تتزوج ضابطاً مشغولاً أغلب وقته فى حياته العسكرية الصارمة التى تنعكس بطبيعة الحال على سلوكه وتصرفاته وحياته ، ولكن ما حيلة الحكيم . وقد أحب الضابط ، « ناجا » وأحبته هى ، ولم يعترض الحكيم .

الفصل الثانى

فى بيتنا خواجه !

- والموبيليا من باريس !
- لم أنتزع أمكم من أبيكم

أما نيرمين الإبنة الصغرى لزوجة الحكيم فكانت تتمتع بوضع خاص ، لأن عيناها تفتحت فى الدنيا على « بابا توفيق » الذى تربت عنده منذ كان عمرها سنتين ، ولذلك كان هو أول من وعت فى حياتها عليه ، فتناديه « بابا » ويداعبها باسم « بانورا » ويصحبها إلى « الحمام » ويضع يده خلف ظهره بالبالونات ذات اللون الأحمر التى تحبها ، ويقول لها : « يابنورا » ماذا تريدين أن يكون لون بالونتك ؟ فتقول له : حمرا ، فيؤكد عليها مداعبا : حمرا ولا زرقا . فتصر على اللون الأحمر ، فيقول مغنيا : يا ترونجه ، يا ترونجة هاتى لبنورا بالونة حمرا .

ثم يظهرها من خلف ظهره فتفرح الطفلة الصغيرة ، التى أفهمها أن « ترونجة » هذه هى عصفورة مختبئة وراء « السخان » فى « الحمام » ، وهى التى تحضر لها البالونات ، فتذهب بها « بنورا » وهى مبتهجة إلى أمها وهى تقول : بابا جاب لى بالونة حمرا » .

وعندما اكتشف الحكيم ، هوايتها للرسم ، شجعها ، لأن ذلك يبدو أنه ذكره بطفولته حينما أحب الرسم ، وراح يستعيد مع « نورا » هذه الهواية وحثها على شراء أقلام الفحم وأدوات الرسم ، بإعطائها النقود اللازمة لذلك ، مبديا إعجابه برسوماتها ، التى تطورت لتزين بها المفارش ، التى كان يأخذها الحكيم منها ليضعها فى حجرته ، ليزرع الثقة فى نفسها وعملها ، كما كان يكلفها ببعض الأعمال التى تستطيع القيام بها مؤكداً أنه ليس أحد غيرها يستطيع القيام بتلك الأعمال ، مما يجعلها تعمل على تنفيذ ما يطلبه منها بثقة وهى متأكدة من إنجازها مهما كانت العوائق والصعوبات ، فكان يطلب منها مثلاً أن تشترى نوعا معينا من الأحذية فيخبرها بمقاسه ويعطيها الثمن ، أو يطلب منها أن تشترى له قميصا

بمواصفات معينة، فتخرج لشرائه واثقة من إجابته إلى طلبه، وصدى كلماته يتردد فى نفسها : لا أحد غيرك يستطيع أن يشترى لى ما أريده .

ولذلك كانت تسعى بدأب لكى تحضر له ما يريد حتى لو دارت على كل محلات القاهرة ، لتثبت « لبابا توفيق » أن ثقته فى محلها .

وعندما يريد أن يعودها على ألا تعتمد على الآلة دائماً فى حياتها يقول لها مثلاً : من فضلك « يابنورا » لا أريد أن تضعى قميصى فى الغسالة .. وخذى بالك من ياقته فلا أحد غيرك يستطيع تنظيفها .

وتجتهد « نورا » لكى تكون عند حسن ظن « بابا توفيق » وهو فى نفس الوقت يشعرها كأنها فتحت عكا .

فلماذا يفعل مع « نورا » ذلك بالذات ؟ لقد شعر فيها ترددا وعدم ثقة بنفسها ، وهو يعانى من ذلك ، لذلك لا يريد لأحد غيره أن يقع فى نفس مشكلته ، فينشأ على ضعف الثقة بنفسه ، فقد عانى الحكيم من ذلك منذ طفولته .

حتى عندما اضطره زميله « حلمى بهجت بدوى » أيام الدراسة ، هو وزملاؤه أن يقف لهم كحارس مرمى ، فإنه لم تكن لديه الثقة بنفسه ، فراح يزحزح مجرى المرمى بعيداً دون أن يشعر اللاعبون ، حتى يبعد عن الكرة لكى لا تصل إلى مرماه .

وكبرت عدم الثقة بنفسه كلما كبر لأن والده لم يعلمه أن يثق بنفسه ، بل كان يناديه بعد أن صار عضوا بالنيابة « يا ولد يا توفيق » » .

وقد ورث والده هذه المعاملة عن والده هو أيضا ، والذى هو فى نفس الوقت جد توفيق ، فإذا قيل له : هل استشرت ابنك القاضى أو ابنك المأمور أجاب متعجبا : كيف أستشير العيال ؟

وقد انعكست تربية الحكيم بهذا الأسلوب ، عليه فنشأ مترددا قليل

الثقة بنفسه ، ولذلك عندما لاحظ أن ابنة زوجته الطفلة « نورا » منعزلة منطوية على نفسها ، حتى لو انقلب البيت واشتعلت فيه النار ، فإنها تظل هادئة ساكنة مادام لم يمسسها سوء ، فأراد الحكيم أن يخرجها من عزلتها ، ويعلمها الثقة بنفسها ، فتولى تنشئتها للاعتماد على نفسها بتدريبها على إنجاز ما يطلبه منها ، فيقول لها « انت شاطرة » لا أحد غيرك يستطيع أن يفعل ما أطلبه منك » . ولما كبرت « بنورا » كبر معها تدليل الحكيم لها ليناديها باسم « نورا » ، وقد كبرت على ثقتها بنفسها واعتمادها على ذاتها .

ولذلك عندما تزوجت « نورا » وعمرها « ١٦ سنة » واقتضت طبيعة ظروف وظيفة زوجها كدبلوماسى ، أن يعيشا معا فى « غانا » لمدة ثلاث سنوات ، لم تشعره « نورا » بقلق أو اضطراب نتيجة استقلالها بحياتها مبكراً ، وعندما صار زوجها سكرتيرا عاما مساعدا لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ولم تعد تراه كثيرا لسفره المستمر ، بينما كان أولادها قد كبروا وأصبحوا فى المدارس وفى أوقات فراغهم يذهبون إلى النادى ، وجدت « نورا » نفسها فى فراغ شجعها على استكمال دراستها التى كانت قد قطعتها إكتفاء بالثانوية العامة عندما تزوجت ، ففكرت فى استثمار وقت فراغها لمواصلة تعليمها فالتحقت بالجامعة الأمريكية ، ولم تجد « نورا » من يشجعها على ذلك سوى الحكيم فى الوقت الذى كان فيه شقيقها إسماعيل لا يثق فى قدرتها على استكمال دراستها ، ولكن الثقة التى رباها عليها الحكيم منذ طفولتها جعلتها تنجح ، وتفضل العمل بعد التخرج على مصاحبة سيدات النوادى ، فقد كان لايزال عمرها ثلاثين سنة ، وزادت حاجتها للعمل عندما توفى زوجها بعد فترة قصيرة من تخرجها ، فشجعها الحكيم على أن تخرج للعمل شريطة ألا يكون عملها على حساب رعايتها واهتمامها بأولادها ، هو لم يناقشها فى هذا الموضوع ،

ولم يسألها لماذا تعملين ولماذا تخرجين ؟ لم يقل لها شيئاً من هذا ، ولكنها فهمت من طبيعته ما يمكن أن يحدثها فيه بشأن هذا الموضوع إذا أثير الكلام فيه ، فأشعرته بأنها لا تهمل فى أولادها ولا تجعل عملها يجور على حقوقهم عليها ، فأجابت على أسئلة الحكيم التى لم يسألها بإجابات لم تنطق بها ، من خلال رؤيته لأولادها ، وتقدمهم فى دراستهم واكتفائهم بذواتهم عن أمهم كما عودتهم أن يعتمدوا على أنفسهم ، فتربية الحكيم وما تعلمته من الثقة فى النفس ، انعكس على شخصيتها وأسلوب تربيتها لأولادها ، وعندما نزلت إلى معترك الحياة كامرأة عاملة قال لها الحكيم : والله يابنورا كبرت واشتغلت .

وكان يسألها كلما رآها عن عملها ، ويعاير بها أخواتها ، ويقول لهم إن « نورا » هى التى أفلحت لأنها تعتمد على نفسها .

وكان يطلب من إبنته زينب أن تقتدى بها ، فهى تعمل وتقضى حاجياتها وتقود سيارتها بنفسها ، فكانت « زينب » تتحمس لقيادة السيارة ، فيقول لها الحكيم « ممنوع » ! وعندما تسأله عن السبب يقول لها : لا أستطيع أن أجلس منتظرك ساعتين وأنا قلقان ؟ .فلماذا هذا التناقض بين تشجيع الحكيم لإبنة زوجته ، ومنعه لإبنته ؟ .

إنه برغم المعاملة المتساوية بل وأحيانا المتميزة من الحكيم لإبنتى زوجته بالمقارنة لإبنته ، فإنه لم يكن يريد أن يفرض اختياراته وآرائه عليهما خاصة بعدما كبرتا وصارتا مسئولتين من زوجيهما ، إلا إذا أشركوه معهم وطلبوا رأيه ، وكذلك كان الحال بالنسبة لإبنته وهى متزوجة ، فكان يبدى رأيه إذا طلب منه دون أن يحاول أن يفرضه ، وقد حدث ذلك عندما احتكم زوجها إليه فى رغبته أن تظل زينب فى بيتها ولا تكمل دراساتها العليا لحاجة أولادها إليها ، فأيده فى وجهة نظره ، ولو كان قد رغب زوجها

استكمالها لدراساتها ، وخروجها للعمل ، ما اعترض الحكيم ، ولكن وقد حدث الانفصال ، واستقرت زينب وأولادها فى بيت أبيها ، فقد أصبحت منذ ذلك الحين مسئولة منه ، كما أصبح هو نفسه فى هذه السن المتقدمة ، مسئولا منها ، ولكنها رغبة منها فى أن يكف والدها عن حديثه لها عن العمل ، كانت كطبعها المعتاد فى العناد الذى ورثته عن جدتها أم الحكيم نفسه ، كانت تبدى رغبتها فى الخروج إلى العمل لتضع والدها بين رغبته الحقيقية فى بقائها وتظاهره بحثها على العمل ، ليتراجع ويقول لها « ومن يرعى الأولاد ؟ ، دون أن يكمل أيضاً « ومن يرعى الحكيم » ؟ فتبتسم « زينب » أو « سوزى » كما يناديها ، وتصمت موافقة والدها على وجهة نظره ، دون أن تحرجه وتقول « وإذن فلماذا الحديث عن عملى مادمت لا ترغبه » ؟ ! وإذا كانت زينب قد بقيت بغير عمل كرغبتها ورغبة الحكيم ، إلا أنها ومعها ناجا ونورا قد اتفقن جميعا على عدم قدرتهن على الإقلاع عن التدخين ، رغم شرح الحكيم لهن عن مضاره واستشهاده بقصاصات الصحف التى تدعم وجهة نظره ، ولكن « نورا » لم تكن تجرؤ على إشعال « سيجارة » أمام الحكيم ، إلا فى أواخر حياته بعد أن أصبحت جدة مثله ، فقد كانت حريصة على العلاقة الخاصة بينها وبين الحكيم والتى جعلته يخصها هى وحدها دون أخواتها بفستان غالى الثمن ، اشتراه لها خصيصاً من باريس ، وقت أن كانت هناك ترافقه زوجته ، صحيح أنهما أحضرا هدايا « لناجا » و « سوزى » و « إسماعيل » ، ولكن « نورا » وكانت لاتزال حديثة الزواج ، كانت لها هدية مميزة عن هدايا أخواتها ، هدية اختارها الحكيم بنفسه وأشرف على شرائها من محلات باريس الفاخرة ، دون أن يتردد أو يرى ارتفاعا فى ثمن « الفستان » الباريسى الذى اختاره بنفسه ، وهى المرة الوحيدة التى يشترى فيها شيئاً غالياً ثميناًيهتم أن يهديه لعزيز عليه سوى « نورا » التى قال لها وهو يعطيها

فستانها الذى لم يكن لأختيها مثله : يابنورا هذا الفستان أحضرته لك مخصوص .

ولكن رغم هذا السخاء فإن الحكيم كان يمسك يده فى أشياء بسيطة جداً لا تستحق الإمساك والتقتير ، كأن تكون « نورا » عائدة وأجرة التاكسى ناقصة خمسين قرشا ، فتستمهل السائق لكى تحضرها له ، فتطلبها من الحكيم ، فيقول لها : من أين .. وهل أبقت لى أمك شيئاً ؟ .

بل إن الحكيم وعنده أكبر أجزاخانة يمكن أن توجد فى بيت ، للمواد الطبية ، حتى إذا أصيب أحد أفراد الأسرة ولو بسعال مفتعل كالذى يصطنعه حفيديه ، فإنه يجبر أهل البيت جميعاً على تناول الأدوية اللازمة كنوع من الوقاية ، ولكن إذا طلبت « نورا » قرصا من الأسبرين لتسكن به صداعا شعرت به ، تفاجأ بالحكيم يقول لها : أمك كان عندها صداع بالأمس وأخذت كل الإسبرين » !

فإلى هذه الدرجة يكون الحكيم فى إمساكه وتقتيره كبخلاء الجاحظ ، وفى أحيان أخرى يكون فى سخائه ككرم حاتم الطائى ، كما فعل عندما أنجبت « نورا » وليدتها « رانده » فأعطاها خمسون جنيها ، ولكن « نورا » لم تكن تتوقع أن يأخذ الحكيم طفلها « حازم » فى « لفافته » ليداعبه ويضعه على سريره ، ليفعلها الصغير ، ويصيب مكان نوم الحكيم ، بإصابات مباشرة ، فلا يتأفف ولا يغضب أو يضجر ، بل يقف متفرجا وهو يتأمل الطفل فى حنان ويقول لأمه مستعيدا اسمها الذى كان يدللها به وهى صغيرة :

والله يا « بنورا » كبرت وبقيت أم » . وقد أصبح هذا الطفل « حازم » فيما بعد معيداً بكلية الهندسة ، وكانت هوايته كهواية أمه ، وهواية الحكيم فى طفولته ، يحب الرسم ، ولم ينس أن يرسم « بورتريه » لهذا الجد الروحى العطوف ، ويحتفظ به فى حجرته .

وعندما أصبح أطفال نورا فى المدارس كان الحكيم يجمعهم حوله ، خاصة فى الاسكندرية حيث الإجازة الصيفية التى كانت عادت ما تجمع الحكيم بأفراد الأسرة « الحكيمية » ، فيسأل الأطفال عن أحوالهم فى المدرسة ، وعاملين إيه فى دراستكم ، وأنت ماذا تريد أن تكون عندما تكبر ؟ .. الخ ، فقد كان الحكيم قريبا من أبناء وبنات زوجته كلما التقى بهم ، أو جمعته معهم الظروف والمناسبات .

* * *

وكما كان الحكيم مع زوج ناجا ودوداً ، كان كذلك مع زوج « نورا » الدبلوماسى وإن كانت طبيعة عمله التى تجعله دائماً بعيداً ومسافراً ، لم تتح له فرصة الاحتكاك الحميم بينه وبين الحكيم ، خاصة وأن القدر لم يمهله ليعيش كثيراً .

وحتى عندما أقدمت « نورا » على زواجها الثانى من رجل ذى جنسية إنجليزية ، لم يعترض الحكيم كما هو مفترض ، أو يناقش « نورا » أو يلومها ويؤنبها أو يقول لها إنها أدخلت على العائلة أجنبيا « خواجة » ، بل إن الحكيم رحب به واعتبره واحداً من العائلة يشركه فى جلساته وحواراته العائلية .

فلم يكن الحكيم « حما » ولا « زوج أم » فقد رعا ناجا ونورا طفلتين ، وعلمهما تعليما عاليا ، وتحمل نفقات زواجهما ، والأثاث الذى كانت تأتى به أمهما فى بعض الأحيان من باريس ، وماذا يمكن أن يفعل أب لبناته أكثر مما فعل الحكيم ؟

ومع ذلك كان وهو على « سرير » مرضه الأخير ، يراجع نفسه ويحاسبها كأشد ما يكون الحساب فى وجود ، ناجا ، ونورا ، وابنته زينب ، ويبرر لهن بعض تصرفاته معهن ، فيقول :

آه لو فعلت كذا لكان كذا .. ولكنكم لو كنتم استشرتمونى ساعتها لكانت النتيجة أفضل .. لقد كنت أريد أن أفعل الكثير لكم .. لكن القدر كان على عناد معى .. هل تعرفون لماذا لم أفعل ما أريده لكم .. لأن الله لم يشأ .

وهكذا كان الحكيم يجلس إلى بناته فى المستشفى ، وكأنه يعتذر لهن عما يشعر أنه أخطأ فيه فى حقهن ، كعدم اصطحابه لهن فى باريس عندما كان « مندوباً » لليونسكو ، مبرراً ذلك بخشيته من الإقامة هناك تلك الفترة ، حتى لا يعرضهن لتيار من العادات الغربية ، ثم كيف يكون الحال حين سيصلن إلى سن الزواج ، هل كان سيسمح لهن بالزواج من فرنسيين ، وهو الذى قضى زهرة شبابه هناك دون أن يعود بفرنسية ، فكيف سيتصرف إذا وجد نفسه مضطرا والأسرة مقيمة معه هناك ، وأحبت إحداهن شابا فرنسيا ؟ ، من أجل هذا (يقول الحكيم لهن) .

– لم آخذكم معى إلى باريس » ثم يتجه إلى ناجا ونورا وكأنه فى لحظات اعتراف أمامهما ، مبررا أى خطأ فى حقهما ، أو أى شىء يكون قد صدر عنه وأغضب إحداهما ، أو يكون قد طلب شيئا من إحداهما وأخذته كأوامر دون مناقشتها ، فإنه فى كل تصرفاته وسلوكه تجاههما ، كان يتصرف بدافع الحب لهن وإذا كان قد قصر فى حقهما فليعطوه العذر ، ثم راح الحكيم يتكلم فيما لا يخطر لناجا ونورا على بال ، ولكنه لم يدع شيئاً يمكن أن يقذفه الشيطان أو وسوسة النفس الأمارة بالسوء ، فى صدر كل منهما تجاهه ، فقال لهما مبرراً زواجه من أمهما ، إنه لم ينتزعها من والدهن ، لأنها كانت مطلقة ، ولم يتقدم للزواج منها إلا بعد أن تأكد أنها لن تعود إلى مطلقها ، إلى هذه الدرجة كانت معاملة الحكيم لإبنتى زوجته ، وإلى هذا الحد كان يحاسب نفسه من أجلهن وهو فى أيامه الأخيرة فى الطريق إلى الله .

البَـابُ الرابـِـعُ

خادم الخدم !

الفصل الأول

الكيك لفطور العصافير !

● كان الحكيم يجلس فى صالة البيت ينتظر قدوم منصورة !

● إما أنا وإما هو فى هذا البيت !

وتأتى علاقة توفيق الحكيم بمديرة بيته « منصورة » لترسم لنا صورة نادرة لارتباط عجيب امتد منذ شباب الحكيم وحتى وفاته حتى صارت « منصورة » جزءاً من بيته وفرداً من أسرته ، خاصة وأنها تربت من قبل فى بيت أم توفيق الحكيم التى كانت لديها رغبة شديدة فى أن تأخذ الطفلة « منصورة » ابنة جارهم الطيب الأسطى ، على حمادة ، (الحلاق) ، لتساعدها فى شئون البيت ، ولكن أمها كانت معترضة :

ياللعيب .. بنتى تشتغل خادمة .. لا يمكن أبدا .

لكن منصورة « الطفلة - الصغيرة ذات السبع أو الثمانى سنوات ، كانت عند حضورها من المدرسة تحب أن تلعب كزميلاتها ، ولم يكن يحلو اللعب لها إلا فى حديقة بيت « أسماء البسطامى » أم توفيق ، التى كانت تشجعها وتحضر لها اللعب والملابس الحديثة، فراقت الحياة «لمنصورة» فى هذا البيت فكانت تقضى فيه أغلب نهارها ، ورغم أن أمها كانت تغريها وتقسم عليها اليمين تلو اليمين ألا تذهب إلى بيت أم توفيق ، إلا أنها لم تتب أبداً عن الذهاب إلى هذا البيت ، ولما لم تفلح الصغيرة فى المدرسة شجعها أبوها على الذهاب إلى بيت أم توفيق رغم اعتراض أمها التى قال لها : ابنتنا ستكون هى ابنة أم توفيق .. وبمساعدتها لها ستساعدنا ، فقبلت الأم مرغمة ، وطمأنتها أم توفيق أن ابنتها ستكون فى عينيها ، وستكون بمثابة ابنتها ، فهى لم تنجب بنات ، وستكون كل طلباتها وطلبات أسرتها مجابة .

ونشأت منصورة فى بيت أم الحكيم فى الاسكندرية ، وانتقلت معها إلى قرية « أبو مسعود » بدمنهور حيث اشترت أرضا هناك ، وذات يوم

ذهبت الطفلة « منصورة » بالقهوة إلى توفيق فانتابها الفزع ، وعادت مذعورة إلى أم توفيق ، تقول لها : ستى . ستى .. البيه بيكلم نفسه ! » ، فقد كان كعادته يجرى حواراً مع نفسه بين أبطال أعماله قبل أن يكتبه على الورق ، ولما عرف بالحكاية ، قام بتهدئة « منصورة » ، وقال لها : هل أنت خائفة منى ؟ .. لا تخافى .. ولن أكلم نفسى بعد اليوم لأجل خاطرك .

وكبرت منصورة ، وازداد اعتماد أم توفيق عليها ، فقد كانت تثق فيها لإخلاصها وأمانتها ، حتى عندما كانت تبعث الرجال لقضاء مصالحها لم تكن تثق فيهم إلا عندما تكون « منصورة » معهم .

تعطيها النقود وتقول لها :

اذهبى معهم وحذار أن يضحكوا عليك ويقولوا لك هات الفلوس .. اجعلى الشراء يتم على يديك .. وادفعى الثمن .. ثم عودى ولا تعطيهم شيئاً .

وعندما أرادت أم توفيق أن تهدى ابنها المقيم بالقاهرة خير هدية ، لم تجد سوى « منصورة » التى تثق فى إخلاصها وأمانتها لتكون خير مدبرة لأمور بيت ابنها ، وانتقلت منصورة بعد رفقة ثلاثين سنة ، لترافق توفيق الحكيم إلى آخر حياته دون أن تفكر أن تتركه ، بل إنها حرمت نفسها من الزواج ليس من أجل المرتب الشهرى الذى أوصت أم توفيق به فى وصيتها لمنصورة ليصبح من حقها مدى الحياة مادامت لم تتزوج ، فهذا مالم يخطر على بال منصورة ، لقد أحبت أم توفيق وأحبتها ، وأحبت توفيق عندما انتقلت إلى بيته لرعايته ، وأحبها توفيق وأغدق عليها وأشعرها بأنها واحدة من الأسرة كعادته فى معاملة كل المتصلين به ، ورغم أن « منصورة » وهى اليوم فى مرحلة الشيخوخة

تغلبها دموعها لأنها نسيت أن يكون لها زوج وأولاد يحملون ذكراها ، إلا أنها غير نادمة لأنها أفنت عمرها فى خدمة أسرة الحكيم ، التى صارت أسرتها وصار أبناء الحكيم وأحفاده هم أولادها وأحفادها .

وقد كان آخر ما قاله لها الحكيم قبل أن يدخل دخوله الأخير للمستشفى « أنت ربنا سيكافئك يا منصورة لأن أخلاقك عالية ، فأنت مثل البلسم الذى يوضع على الجرح فيلتئم ، أنا لا أنسى وقوفك معى وقعودك بى وتركك لأهلك من أجلى » .

ولذلك عندما كان الحكيم وحده وليس معه سوى « منصورة » كانت تقوم على رعاية شئونه ، وعندما كان يشعر بأنها مرهقة ومتعبة ولا تستطيع القيام من سريرها كان يقول لها « كما أنت ابق فى سريرك لا ترهقى نفسك » ، فتقول له « كيف لا أقوم ولا أحد فى البيت يعد لك طعامك » ؟ فيقول لها «ليست هذه مشكلة يكفينى أن أسلق بيضاً أو أقليه أو أى حاجة آكلها لا يهم ولكن المهم راحتك » .

كان الحكيم يحرص على راحة منصورة ويجعلها تشعر كأنها صاحبة البيت يعطيها مصروف الشهر كله ، وكذلك كانت ابنته تفعل مثلها عندما استقرت معه ، فعند أول الشهر يقول لها : كم حسابك ؟ ، فتقول له الجملة كذا ؟ فيعطيها ويقول لها خذى زيادة مثلما تريدين ، وعندما تحتاج إلى نقود أكثر لأن السلع ارتفعت أسعارها فإنها تحمل على كتفيها من لا يستطيع أن يرد للمتشفع به طلباً عند الحكيم ، صغيره « محمد » ، فيقول الحكيم لمنصورة ضاحكا « مادمت جئت بمحمد معك فلابد أن لك طلباً ، اطلبى ما تشائين فلن أؤخر لك طلباً لأن معك الصراف الخاص بك ، كم تريدين ؟ فتقول له : حضرتك عارف الحياة أصبحت غالية وأقل زوجين من الفراخ بتسعة أو عشرة جنيهات » ، فيقول لها « يعنى مطلوب كم

جنيه ؟ » ، فتقول له مثلاً « ثلاثون جنيها ، فيعطيها لحفيده « محمد » الذى تحمله على كتفها وهو يقول له « اعطيهم لـ « دده » حسبما ينطق الحفيد الصغير ذو السنة والنصف سنة ، فقد كان بيت الحكيم يستهلك لحوماً ، بـ ١٢٠ جنيها أسبوعيا ، لأهل البيت ومن قد يزورهم من الأقارب أو المعارف ، عائلة ناجا أو نورا ، أو أصدقاء الحكيم المقربين كالدكتور حسين فوزى الذى كان يزور الحكيم تقريباً كل يوم جمعه ويتناول طعام الغداء معه ، وآخرين كإبراهيم فرج ، وثروت أباظة ، ونجيب محفوظ ، قلة محدودة هى التى كان الحكيم يسمح لهم بدخول بيته فى وقت لم يكن يسمح لأحد بدخول بيته إلا لمثل هذه الطبقة القريبة جداً من أصدقائه ، والذى قد يسمح لهم بأن يأكلوا معه على مائدته لثقته أن أحداً منهم أبداً لن يفشى سر كرمه أو يبوح بما يفسد إشاعة بخله المشهورة ، ومن الأجانب من كان يسمح لهم الحكيم بدخول بيته والجلوس على مائدة طعامه ، ومنهم صحفيتان أمريكيتان ، استضافهما وطلب من « منصورة » أن تعدلهما « محشى ورق العنب » ، والكوسة ، والملوخية ، ودقية بامية ، وغيرها من أنواع الطعام الذى يحبه الحكيم ولا يأكله ضيوفه فى بلادهم ، وقام الحكيم بتعريف الصحفيتين ، بصاحبة الطعام الشهى الذى أعجبهما ، ولما كانت منصورة آنذاك لاتزال متعبة صحيًّا ، فقد اقترحت عليها الأمريكيتان ، أن تسافر معهما للعلاج فى أمريكا وسيعودان بها شابة صغيرة ، فقال لهما الحكيم ضاحكاً :

جئتما للغداء أم جئتما لتأخذا منصورة ؟ ! وعندما عولجت « منصورة » اكتشف الأطباء انقلاب فقرة من فقرات ظهرها مما جعلها تشعر بالآلام التى كانت تحس بها ، واقتضى العلاج وضع حزام طبى حول ظهرها ، مما جعل الحكيم يحمل عنها عبء أى شىء يقتضى انحناءها ، ويقول لها عندما تهم بالتحامل على نفسها لحمل أى شىء : ابق واقفة كما أنت وأنا

أجىء إليك » وينحنى هو ، مثلا ليحمل طبقا أو يضع طبقا ، حتى لا يرهق مديرة بيته أثناء فترة علاجها .

وعندما أصيبت بشلل نصفى كانت تذهب للعلاج بالجلسات الكهربية عند طبيب فى «الكيت كات»، عاودته مرتين، فى إحداهما كان إسماعيل الإبن ، موجوداً بالبيت ، وفى المرة الثانية لم يكن بالبيت سوى الحكيم .

حين عادت فى المرة الأولى كان بانتظارها إسماعيل ولما رآها قال لها مبتهجاً « هيه .. أمى جاءت . أمى جاءت » .

فقد كان يعتبرها فى مقام أمه التى ماتت ، ويعمل على راحتها مثل أبيه ، ويقول لها « أحسن علاج لمرضك يا ماما هو عسل النحل .. تأخذين منه ملعقة فى الصباح وأخرى فى المساء .. إسمعى نصيحتى من أجل خاطرى لو كان لى خاطر عندك » . فقد كان يحبها ، وهى تحبه ، وتطهو له السمك ، الذى يحبه مهما كانت فى أقصى ساعات مرضها وآلامها .

أما فى المرة الثانية التى عادت فيها من عند الطبيب ، فقد كان الحكيم يجلس فى صالة البيت ينتظرها ، على غير عادته فى الجلوس فى حجرته خشية ألا يسمع دقات الجرس ، وعندما رأى ظلها ينعكس على باب الشقة قام بفتحه قبل أن تدق الجرس .

فقد كان يعتبرها جزءاً من أسرته تنال من الحقوق والرعاية ما يناله أى فرد فيها ، لذلك كان حريصا عليها ، ولا يفرط فيها ، وعندما كان أحد من أهلها يأتى لزيارتها ، كان الحكيم يتأكد أولا من كل منهم « هل جئت لتأخذ « منصورة » ؟ فيقول له « لا والله يا بيه أنا ما جئت لآخذها جئت فقط لزيارتها » ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا لها فيما بينهم وبينها « ألن تأت إلينا ، تعال وكفى ما مضى من عمر قضيتيه من أجل أسرة الحكيم ، إن بيتنا محتاج إليك وقد أصبح خاوياً بعد موت والدك

وأخويك الاثنين » ، ولكن « منصورة » تظل وفية ولا تتخلى عن الرجل الذى يفعل من أجلها كل شيء ، ولكنه مع تمسكه بها لم يكن يمنعها عن أهلها ، فيقول لها : اذهبى إلى أهلك وخذى راحتك وشوقك معهم » ، ويحاولون معها لكى تعود ، سواء حينما تزورهم أو يزورونها ولكنها أبداً فقد تعودت أن تعيش فى بيت الحكيم ، إنه بيتها الذى تستريح فيه ، ويحثها الحكيم على ألا تقصر فى حق أى أحد من أهلها حين يزورونها ، وألا تكون محرجة فيأخذها الحياء ألا تقوم بالواجب نحوهم ، ويقول لها « اصنعى لهم أفضل طعام ، لماذا تقومين بالواجب مع الأغراب ، وتقصرين فى حق إخوتك » ؟ ، بل يصل الأمر إلى حد انفعال الحكيم على « منصورة » لكى « تبحبح » يدها فى إكرام أهلها لأن البيت بيتهم . ويظلون ما شاءوا من الأيام والليالى فى ضيافة الحكيم خلال فترة إقامتهم وتجوالهم للفسحة وزيارة معالم القاهرة .

وحين يكون أولاد أخوات « منصورة » موجودين يعاملهم الحكيم معاملته لأحفاده ، مثلا « محمود ابن أخى « منصورة » الذى توفيت أمه وعمره خمس سنوات ، كان الحكيم يعطف عليه ولا يتركه يسافر قبل أن يرضيه ، ويقول له مدللا « لا تسافر « يا حوده » حتى أحضر لك الكتب واللعب » .

لقد كان الحكيم عطوفا على الكبار والصغار ، حتى الحيوانات والطيور مما لا يجعل منصورة تنساه له أبداً .

لقد كان يشركها معه فى فعل الخيرات ، لتنال معه ثوابها ، فيحثها على « تعبئة » علب اللبن الكبيرة الفارغة ، بالأرز ، والذرة ، لإطعام « العصافير » التى يمتلئ بها جدار « بلكونة » البيت ، فى الصباح الباكر ، بل إن « الكيك » الذى كانت تصنعه « منصورة » كان الحكيم يعطيه

« للعصافير » مما جعلها تشكو إليه تعبها ، وهل هو لإطعامه أم لإطعام العصافير ؟ .

فيشرح لها الحكيم أن تعبها غير ضائع ، بل إنه رصيد لها عند الله الذى جعلها سبباً لرزق هذه العصافير ، وكذلك كان حنو الحكيم على « القطط » ، فقد كانت هناك « قطة » بيضاء تقف على شباك « المنور » ، عندما يراها الحكيم يطلب من « منصورة » أن تطعمها ، ولكن عندما كان فى البيت « كلب » شرس وكانت تضطر لإطعامه ، كانت تقول « وأى ثواب فى إطعام كلب مسعور ؟ !

ولم يكن أحد يستطيع أن يقترب من شقة الحكيم أو يدخلها إلا وأصابه الكلب ، مثلا عندما حضر « صابر » أحد سائقى « الأهرام » الذى كان يحضر لأخذ الحكيم إلى مكتبه ، فتحت له « منصورة » الباب وكان خائفا من نباح « الكلب » فرافقته وطلبت منه الجلوس ، ونصحته بألا يخاف أو يظهر خوفه لأن الكلب إذا أحس بذلك سيتجرأ عليه ، ولكن « صابر » لم ينج من « عضة الكلب » ، وليس ضيوف الحكيم فقط بل جيرانه أيضاً ، فقد عض الكلب أحد جيران « الحكيم » وأخذ لذلك واحداً وعشرين حقنة ، واشتكى أهله جارهم توفيق الحكيم ، فى قسم البوليس واضطر الحكيم لدفع واحد وعشرين جنيها غرامة ، ووصل استفزاز « الكلب » إلى درجة لم تنج معها منصورة من عضته رغم أنها هى التى تطعمه « الفتة » واللحم المسلوق ، ففى يوم أراد الخروج من باب « الحمام » الذى كان يوضع فيه ، فجاءت « منصورة » لتحكم غلق الباب عليه فأغلقته على رأسه ففتحت الباب لتسمح له بإخراجها إلى داخل الحمام ، ولكن الألم الذى أصاب رأسه جعله يندفع « ليعض » قدم « منصورة » « عضة » نزفت بسببها دماؤها دون أن تستطيع لها حبساً لغزارتها ، فلم تشعر بنفسها إلا وهى تخير الحكيم بينها وبين الكلب « إما أنا وإما هو فى

هذا البيت » ، ولم يكن فى المسألة خيار يختاره الحكيم ، لقد اتصل على الفور برجال البوليس فأتوا فى نفس ليل اليوم نفسه لإطلاق النار على « الكلب » وتخليص بيت الحكيم من شروره التى لم تسلم منها اليد التى أطعمته ، ولكن الحكيم طلب من رجال الشرطة ألا يقتلوا « الكلب » فى بيته فضلاً عما سوف يستتبعه ذلك من إزعاج لسكان العمارة التى يقطن بها ، لذلك طلب من رجال الشرطة أن يحضروا بالنهار ويأخذوا « الكلب » ليتصرفوا فيه بمعرفتهم ، ولكن أحداً منهم لم يستطع ترويضه للنزول معهم ، سوى « عبده » الذى كان صديقاً لإسماعيل فى فرقته ويساعد فى أمور البيت من باب حبه لصديقه ، حتى إذا مات إسماعيل وانحلت فرقته تعلم قيادة السيارات ، وعمل لدى هيئة اليونسكو فى لبنان ، فنجح « عبده » الذى كان « الكلب » معتاداً عليه لوجوده كثيراً فى البيت ، فى أن يخدع « الكلب » ويوهمه باصطحابه فى فسحة خارج « البيت » ، وقفز به فى داخل سيارة الشرطة التى كانت تنتظر أسفل العمارة ، وأغلق رجال البوليس على الكلب بابيها الحديدين ومضوا به ، وبقيت « منصورة » ، ولكن حنقها على الكلب الشرس الذى سبب لها الأذى لم يجعلها تكره كل الكلاب فليست كلها شرسة ، ولذلك فإنها كثيراً ما تصطحب « محمدا » حفيد الحكيم خارج البيت لتشم الهواء ، ويلعب هو مع الكلاب التى يحب أن يلاعبها وتلاعبه ، ومنصورة مطمئنة إلى أن الكلاب لا تؤذى طفلاً ، ثم إنها تأخذ بالها منه كإبنها أو كحفيدها إن كانت قد تزوجت وأنجبت ، ولكن ليس هذا هو ما يشغلها بعد أن مرت السنون وانقضى من العمر ما انقضى ، إنما الذى يشغلها هو « حج مبرور » ، ولذلك حينما سألها الحكيم ذات مرة عما إذا كان نفسها فى شىء تريد تحقيقه ؟ ، فتقول له « نفسى أحج » ، فيقول لها : إن شاء الله ستحجين ولكن بعد أن أموت أنا » ، وقد تحقق شطر النبوءة بموت الحكيم ، فهل

سيتحقق الشطر الثانى منها ؟ ولكن منصورة تشاءمت من هذه النبوءة التى لا تتحقق إلا بموت سيد البيت ، فسارعت تقول :

الشر بره وبعيد .. ربنا يطول عمرك .. ولا أريد أن أحج ؟

تقولها وهى مضطرة ، فالحج أمنية ترجو تحقيقها ، فيطمئنها الحكيم : إن شاء الله ستحجين ؟ . وكأن الحكيم بنبوءته عن الأمانى التى لا تتحقق إلا برحيله ، يرى فى الأفق قرب النهاية ، فلأول مرة عندما بدأ رحلة مرضه ١٩٨٤ ، لم يكن معه سوى منصورة ، التى استنجدت بزوجة ثروت أباظة ، تليفونيا ، فقامت السيدة الفاضلة باستدعاء الأطباء له ، وكانت تطمئن على صحته طوال الوقت ، تليفونيا أيضا ، حتى جاء عبد الله عبد البارى (رئيس مجلس إدارة الأهرام آنذاك) ونقله إلى مستشفى « المقاولون » وقال له معاتبا : كيف تعتمد على مديرة بيتك وحدها وهى لا تستطيع أن تتصرف وتستدعى لك الأطباء ؟ .

ومنذ ذلك الوقت بدأ دخول « زينب » إلى حياة أبيها ، فعندما جاءت من الاسكندرية لزيارته بعد حصول أولادها على أجازتهم الصيفية ، وجدت أن ظروفه الصحية تستدعى تواجدها بجواره بصفة دائمة ، فكانت تشرف على إعطائه الأدوية المطلوبة فى مواعيدها المضبوطة ، وعندما عاد إلى البيت بعد شفائه من مرضه الأول ظلت ترعاه خلال فترة كان أحوج ما يكون فيها إليها ، فكانت منصورة تقول للحكيم :

ربنا أكرمك بالست سوزى إنسانة طيبة وبنت حلال ، ولو ربنا يحبنى كان رزقنى ببنت مثلها ، فتقول لها زينب : ما معنى هذا الكلام .. ألست أنا ابنتك بالفعل » ؟ .

فتجيبها منصورة ومعى مبتهجة : طبعا إبنتى وأكثر من إبنتى » ، وتمضى حياة الحكيم فى سنواته الأخيرة بين الصحة والمرض ، حتى نقل

ذات مرة إلى مستشفى القصر العينى ، فلم يمكث بها إلا حوالى أسبوعين ، ثم عاد مرة أخرى إلى بيته يشكو لمنصورة نصيحة الأطباء له :
عليك أن تستريح من الكتابة لمدة شهرين » .
ويقولها الحكيم معقبا : وأنت تعرفين يا منصورة أن الكتابة شيء يجرى فى دمى لا أستطيع أن أتوقف عنه .
فتواسيه قائلة : معلهش .. الشهرين يفوتوا بسرعة وترجع تكتب أحسن من الأول .
ولكن توفيق الحكيم لا يقتنع ، فألعن شيء يصيبه أن يتوقف عن الكتابة ، وألعن من ذلك ألا يجد ما يكتبه ، ولذلك كان يقول فى المستشفى لمن حوله : إننى أريد أن يأتى أجلى قبل أن يتوقف عقلى عن الفكر ، وتتوقف يدى عن الكتابة ، لا أتمنى أن أعيش يوما واحدا إذا حدث لى هذا .
ولذلك كانت تقلقه نصيحة الأطباء أن يظل شهرين بلا كتابة ، ولكن لم يكد يمر أسبوع حتى عاوده المرض من جديد ، فنقل إلى مستشفى مصر الدولى ، ولكنه أراد الإنتقال إلى مستشفى « المقاولون العرب » حسب رغبته ، وقبل أن يحدث ذلك بيوم واحد اتصل تليفونيا بمنصورة وقال لها : أريد أن أعود إلى البيت وآكل من طعامك يا منصورة .. أنا « قرفت » من أكل المستشفيات » فتقول مشجعة : شد حيلك واشف بسرعة وارجع لنا بصحة جيدة .. وكل ما تطلبه من عينى » .
وتسعد « منصورة » ، لأن توفيق الحكيم يتذكرها ويتذكر طعامها حتى فى مرضه ، ولديه كل الحق فى ذلك ، فكيف ينسى طعامها فى سنوات صحته ، ثم فى سنوات مرضه الأخيرة ، كيف ينسى ، محشى ورق العنب ، و « الكوسة » ، و « دقية البامية » ، و « المسقعة » ، وسمك « الوقار » المقطع ترنشات ، ولحم « البفتيك » والحلو ، « كومبوت » وهو عبارة عن

« خوخ » أو تفاح » يغسل ويقشر ويقطع ويغطى بالماء المذاب فيه السكر ، و « البانيليا ، ثم يوضع على النار لينضج ، ثم يوضع فى الثلاجة ليتناوله بالملعقة بعد الغداء ، وبعد العشاء ، ولم يكن الحكيم يتناول هذه الأطعمة مرة واحدة ، على مائدة واحدة ، فكثرتها أمامه « تسد نفسه » كما يقول لمنصوره ، بل يجب أن تتوزع على الوجبات ، ويتناول منها بالقدر الذى يطبق فيه الحكمة النبوية « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . فهذا هو منهج الاعتدال الذى كان يسير عليه الحكيم ، فى طعامه ، فيتناول مثلا قطعة لحم واحدة ، حيث كان يفضل اللحم على الدجاج ، أو يأكل قطعة من السمك ، ويتناول طبقا من الشوربة ، ونصف رغيف ، وأحياناً ربع رغيف .

وقد ورث الحكيم الاعتدال فى الطعام عن والده ، كذلك النظام فى مواعيد الطعام ، وكلاهما الاعتدال ، والنظام ، يضمنان صحة لا يعتورها المرض إلا مالا راد له كأمراض الشيخوخة ، فقد كان الحكيم حتى سنواته الأخيرة يصحو قبل السادسة ويصلى صلاة الصبح ، ويقرأ القرآن ، ويفتح الراديو على قرآن السادسة ، ثم يشرب الشاى الحلو الخفيف مع قطعة أو اثنتين من الكيك ، ثم صار يعتمد على « اللبن » فى « فطوره » ، أما الغداء فكان يتناوله فى الساعة الثانية والنصف بعد عودته من الأهرام ، فيخلع ملابسه ، ويغسل وجهه ، ويرتدى ملابس البيت ويجتمع مع أسرته حول مائدة واحدة ، ويأتى طعام العشاء فى الساعة العاشرة مساء ، يتناول فيه « الشوربة » ، ثم قطعة « جاتوه » ثم « كومبوت » ، وكان يتناول « الزبادى » بالسكر لمدة سنتين أو ثلاثة ، وفى سنوات مرضه الأخيرة لم تعدله مواعيد فى طعامه ، فكانت منصورة تأتيه بالطعام فى حجرة مكتبه ، فيطلب منها تغطيته حتى تنفتح شهيته ، وفى بعض الأحيان كان يأكل عند حضور الطعام ، ولما دخل الحكيم المستشفى وأبدى شهيته لطعام منصورة ،

كانت تتمنى عودته ليأكل من طعام يدها بعد أن مل طعام المستشفيات ، ولكن بعدها بيوم واحد كان الحكيم قد نقل إلى مستشفى آخر حسب رغبته ، ولكن « منصورة » كانت تعد له ألواناً من الطعام الذى يحبه ، كالسمك ، والبامية ، ليتناوله فى المستشفى ، وكانت ابنته زينب تتولى مسألة المشروبات الغازية ، وكانت منصورة دائمة السؤال على الحكيم فتحكى لها زينب عن آخر تطورات مرضه ، هل أكل ، هل تكلم ، هل صحته كما هى أم تحسنت ؟ [وفى الليلة الأخيرة] اتصلت زينب بمنصورة لتخبرها بأسوأ خبر : البقية فى حياتك ، فلم تشعر بعدها أنها فى هذه الدنيا ، بكت حتى لم تعد ترى ما حولها ، لم تكن تتوقع أن تكون نهايته بهذه السرعة ، ففى كل مرة يدخل المستشفى كان يعود بعدها إلى بيته ، على هذا الأمل عاشت منصورة ، حتى جاء الخبر الحزين ، الخبر الذى لم يساوه سوى خبر وفاة أمها التى ماتت قبل أن تراها ، وفكرت وقتها فى العودة إلى بلدها الاسكندرية بعد أن لم يعد فى البيت أم ، ومن قبلها مات الأب الذى لم تشعر بالحزن عليه كثيرا لأن سنها كانت لاتزال صغيرة ، ستة عشر عاما ، كما فقدت أخًا لها وأختًا خلال ثمانية وعشرين يوما ، صحيح أنها حزنت عليهما كثيراً جداً ولكن ليس كحزنها على الحكيم الذى كلما جاءت سيرته أمامها لا تتمالك نفسها من البكاء ، فقد فضلته على أهلها ، ولم تشأ أن تتركه بعد وفاة أمها ، لقد اختارت بيت الحكيم على بيت أسرتها ، حتى بعد وفاة الحكيم ، إنها تحاول أن تبعد نظرها عن حجرته فهى لم تعد تتمالك نفسها من الدموع كلما شعرت أن الحكيم لم يعد موجودًا بها ، إنها لا تستطيع أن تنساه وكأن صوته لايزال يناديها ، فرغم رحيله فإن صدى صوته لاتزال تشعر أنه يرن فى أذنيها ، إلى درجة أنها فى بعض الأحيان تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وعندما يأتى الليل تتذكر حسناته ، إطعام العصافير ، مساعدة المحتاجين من شغالين

وشغالات العمارة ، انتظاره بالباب ليستقبلها عند عودتها من عند الطبيب حينما كانت مريضة ، انحناؤه لحمل الأشياء التى لم تكن تستطيع الانحناء لحملها بسبب الحزام الطبى الملفوف على ظهرها ، شريط من الذكريات يمر أمام ناظرى « منصورة » فتغلبها دموعها على الرجل الذى لا يعوض ، إنها لا تستطيع أن تسيطر على انفعالاتها وتصمت عن حزنها ، كما كان يفعل الحكيم حينما يموت عزيز لديه ، أخوه ، زوجته ، إبنه ، أمه ، كان من فى البيت يغلقون الراديو والتلفزيون حزنا ، ولكنه كان يقول لهم : هذا خطأ ، اسمعوا الراديو وشاهدوا التليفزيون ، [يريد منهم أن لا يتوقفوا أمام الحزن الذى لم يعد يرجى منه عودة لراحل قد غاب ولن يعود]، ولكن رغم كل ذلك فإن مشاعر الحزن تبدو على الحكيم يحسها من يعيشون معه ، إنه يجلس مع نفسه مغلقا حجرته عليه سارحا فى تأملاته وأحزانه ، فتحاول « منصورة » أن تخرجه من هذا الجو الكئيب الذى يعيش فيه رغم أنه إما أن يكون فاتحا الراديو ، أو التليفزيون ، ولكن يبدو لمن يشعر به ، كأنه فى عالم آخر لا يشعر بما حوله ، فتقترب منه منصورة لتشده من سرحانه إلى عالم الواقع فتسأله مثلا : تشرب قهوة ولا شاى ، أم أحضر لك الطعام ، تحب تأكل إيه ؟ فلا يلتفت إليها وكأنها غير موجودة ، فتقترب منه أكثر وتحاول أن تنبهه : حضرتك ألا تأخذ بالك من كلامى ؟ ، فيقول لها : هو انت قلت حاجة ، فتقول له : « أنا أقول لحضرتك تحب أعملك إيه ؟ ، ولما كان يحب « الكيك » فيقول لها : اعملى »، ولو كان سيزوره أحد يقول لها : اعملى « كيك » لتناوله مع الشاى » ، ويبدأ الحكيم فى الخروج من أحزانه شيئاً فشيئاً ، أما المنصورة فارتباطها بالحياة مع الحكيم زهرة عمرها يجعل حزنها يملأ عليها كيانها فلا تستطيع له دفعا فتفتح الراديو فى حجرتها على إذاعة القرآن الكريم ، وتدعو « الله يرحمك رحمة واسعة ويجعل من فوقك رضا ومن تحتك رضا فى

الجنة » ، لقد كانت منصورة تدعو له وهو بالمستشفى ، وهى تصلى الفجر « يارب اشفيه يارب ، يارب أرجعه إلى بيته بالسلامة » ، أما بعد وفاة الحكيم فهى تقرأ له الفاتحة ، وتقرأ له إحدى عشرة مرة ، سورة « الإخلاص » ، ترحما على روحه ، كأنها تناجيه وتقول له : إنها هدية منى يا حسين. يا توفيق يا ابن أم قاسم »[1] .

---

(١) كانت أم الحكيم ينادونها بأم قاسم تيمنًا وتبركًا باسم القاسم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثانى

فلاح عودة الوعى

(*) (١٢) الكاتب الحر في تقديري هو الذي لا يتحول لمصلحة وكذا يتحول للكسب .. ولذلك اذا رضي المفكر ان يكون العوبة في يد القوة فهو اذن يتحول لمصلحة بقاء ذاته وخوفا وجلا من بطش القوة .. واذا رضي ان يكون اداة دعاية في يد السلطان فهو يتحول لمصلحة جيبه وبريق الذهب ...

(١٣) المفكرون ليس لهم دور في توجيه العالم مثل السياسيين لأن السياسة في يدها قوة الارهاب والترغيب .. والمفكرون ليس عندهم غير الفكر الحر والرأي الأعزل .. فاذا استطاع الفكر والرأي الأعزل أن يشع أشعة قوية فان هذا الاشعاع يصبح بدوره قوة فعالة يمكن ان توجه العالم ...

- أنت أمى وأنت أخى ولكن القانون سيطبق عليكما .
- يابنى انت انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !
- أعقل اثنين
- من سرب المخطوطة ؟
- زوجتى غاضبة من أجل الزعيم

(*) من إجابات توفيق الحكيم بخط يده على عدد من الأسئلة التى طرحها عليه المؤلف فى ٢٧ / ١ / ١٩٨٥ .

وإذا كانت هذه هى علاقة الحكيم الحميمة مع خادمة بيته ، فإن علاقته بعبد الجيد خادم أرضه لا تقل شأنا لأنها تمثل علاقة توفيق الحكيم بالقرية والفلاحين ، وهى علاقة حميمة عبر عنها منذ البداية فى صرخته الثائرة للمطالبة بتحسين أحوالها فى « يوميات نائب فى الأرياف » ، بل حتى عندما استقر بالمدينة اصطحب معه من القرية « حماراً » مؤنساً لفكره وجعله بطلاً لأكثر من عمل من أعماله ، وعندما وجد فرصة للمشاركة فى تحقيق مكاسب للفلاحين لم يتردد للحظة واحدة ، ولذلك عندما جاءه صديقه الفقيه القانونى عبد الرزاق السنهورى ، المكلف من رجال الثورة بتحديد الملكية الزراعية بخمسمائة فدان ، أو مائتى فدان ، وطلب المشورة من الحكيم ، اختار الحد الأدنى المقترح بمائتى فدان لكى تذهب كل زيادة عن ذلك إلى الفلاحين المعدمين ، وعندما صدر التعديل بعد ذلك بسنوات بتحديد الملكية بمائة فدان ، أصبح هذا القانون ينطبق على أم توفيق الحكيم التى تمتلك مائة وخمسا وخمسين فداناً ، كانت قد دبرت شراءها ، وعاونها فى ذلك ابنها المهندس الزراعى « زهير » ، ولم ينبه توفيق الحكيم أمه ، وأخاه بالتعديل الجديد قبل صدوره وكانت لديه معلومات عنه ، وعندما صدر قانون الإصلاح الزراعى الجديد بتحديد الملكية بمائة فدان ، حاولت أم توفيق وابنها زهير التحايل على القانون بكتابة الأرض الزائدة عن حد القانون بأسماء بعض الأقارب .

ولكن الحكيم تصدى لمحاولة أمه وأخيه وقال لهما : لابد أن يطبق القانون عليكم مثل بقيةالناس ، فقال له أخوه : ولكن هذه الأرض اشتريتها أنا وأمك وكانت أرضا « بوراً » وأنا تعبت فى استصلاحها فكيف يقتطعها القانون منا ؟. فلا تجد هذه الحجة أو ذلك المبرر سبيلاً لتراجع

الحكيم عن موقفه حيال تطبيق القانون ولو كان على أهله ، ويقول لأخيه وأمه « القانون هو القانون فلماذا لايطبق عليكم ؟ لا يشرفنى أبداً أن تتهربوا بالأرض من تطبيق القانون .

وبسبب هذا الموقف توترت العلاقة بين الحكيم وأمه وأخيه ، بل وبينه وبين بعض أقاربه الذين رأوا فى تصرفه شذوذاً وعقوقا ، ولكن الحكيم لم يكن يجامل أحداً حتى لو كان والدته وأخاه أقرب الناس إليه ، ولما كانت الأرض التى تمتلكها والدته مؤجرة للفلاحين يزرعونها ، وكان عليهم كل سنة أن يدفعوا إليها بالإيجار ، فإن بعضهم كان يتأخر فى السداد لظروف خارجة عن إرادتهم ، فتبعث إليهم أم الحكيم تستعجلهم ، فكان ابنها توفيق يستمهلها ويقول لها : خللى بالك طويل على الفلاح ، لأنه غلبان .. مسكين .. مسالم .. مثابر .. يحب الأرض ، ولا يوجد أحد عنده وفاء مثله » . وعلى قلة ما كان الحكيم يزور قريته « أبو مسعود » بدمنهور نظرا لمشاغله خاصة بعد أن صار مشهوراً ثم أصبح رب أسرة ، فإنه فى تلك المرات التى كان يزور فيها قريته كان يختلط بالفلاحين يسمع منهم وهو يجلس معهم فى « الجرن » على « القش » وقد أقام له الفلاحون « شمسية » ببعض العصى المغروزة فى « القش » وفوقها قطعة قماش قديمة ، تحبس الشمس عن الحكيم وجلسائه من الفلاحين الذين يظل معهم من الساعة العاشرة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر يستمع منهم إلى همومهم ومشاكلهم - خاصة قبل الثورة - عندما كان الفلاح نهباً لاستغلال رجال الإقطاع ، والرأسماليين الذين كان يحتاج إليهم الفلاح فيعاملونه « بالربا » ، فيخرج الفلاح فى نهاية الأمر صفر اليدين .

يستمع الحكيم إلى كل ذلك وغيره فضلا عن مشاهداته من خلال عمله كوكيل للنيابة فى الريف ، فيعبر عنها فى كتاباته ضمن ما يعبر عن الأحوال الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية فى مصر التى يرى فى نهاية

الأمر أنه لا حل لها إلا بثورة مباركة ، بشر بها ودعا إليها وأيدها حينما جاءت وأيد قوانينها التى أنصفت ضمن ما أنصفت « الفلاح » .

وبعد أن ينتهى الحكيم من جلوسه مع الفلاحين فى قريته ، يذهب للغداء ، ثم فى ساعة العصارى يمارس هواية المشى بين المزارع ، وتتنامى إلى مسامعه غناوى الفلاحين ، ويسأل عن أنواع المزروعات ، وكيف تزرع ؟، فيجيبه الفلاحون وقد تجمعوا حوله من جديد يسيرون معه بين الحقول .

* * *

وحينما لم يعد الحكيم قادراً على الذهاب إلى قريته كان همزة الوصل بينه وبينها ، هو « عبد الجيد محمد عبد الرازق » الذى عرفه الحكيم ، وعمره ثمانية عشرة سنة عندما عمل فى أرض أم توفيق يرعى شئونها حتى صار هو « ناظر » الأرض وواسطة العقد مع الفلاحين الأجراء إلى أن توفيت أم الحكيم ، وتم تقسيم الأرض بين الورثة ، وصار توفيق يمتلك (٤٥ فداناً) سجلها باسم ابنته زينب قبل وفاته ، مثلما سجل عقد ايجار الشقة باسمها أيضاً حتى لا ينازعها أحد ، وأصبح ايجار الأرض يذهب لزينب .

ورغم أن الحكيم لديه عقدة من الحساب منذ كان تلميذاً ، إلا أن « عبد الجيد » لابد أن يشرح له المصروفات والتزامات الأرض بالمستندات ، ويطرح له المنصرف من الإيراد ، والباقى يأخذه الحكيم ويعطى به « عبد الجيد » إيصالاً باستلامه ، ولم يحدث بسبب الفلوس أى خلاف بين الحكيم وعبد الجيد ناظر أرضه التى تسمى عزبة « البيه » ، وهو اللقب الذى يحب المتعاملون مع الحكيم أن ينادوه به ، وإذا حدث وأخطأ عبد الجيد فى حسابات الأرض وأعطاه جنيها زائداً فلا يمكن لما

يدخل فى جيب الحكيم أن يخرج منه أبداً ، أما لو حدث العكس وقال له عبد الجيد « أنا أخطأت فى الحساب ولك عندى خمسة قروش » ، يقول له الحكيم « هاتها » .

ولا يتصنع الحكيم فى معاملة عبد الجيد ولا يتكلف معه ، شأن الحكيم فى ذلك مع أى إنسان كبر أو صغر ، صديقاً له أو يعمل عنده ، ورغم أن « عبد الجيد » لم يحصل إلا على شهادة محو الأمية إلا أن الحكيم لم يشعره يوما فى معاملته له بأنه أقل قيمة ، لأن كل إنسان فى نظر الحكيم مادام ناجحاً فى عمله فهو عالم من العلماء ، لأن الدنيا كما يرى تسير بنظام لا يجعل الناس فيها متساوون فلابد أن يكون فيها العامل والفلاح والادارى ، والقاضى ، والمفكر .. الخ ، كل له وظيفته ودوره فى الحياة ، وبقدر نجاح الإنسان فى المكان الذى هو فيه ،بقدر ما تكون قيمته ، ولذلك كان الحكيم لا يتعالى على أحد ، فكان مثلاً يهتم بعبد الجيد حينما يأتى إليه فى القاهرة، ويعتبره كأنه واحدا من أسرة الحكيم أو أكثر، بل إن الحكيم كان يدعو « عبد الجيد » للجلوس معه فى حجرة مكتبه ليشرب معه الشاى ،ويشاهد التليفزيون ، وعندما يأتى مسلسل فيه « فلاحون » ، كان الحكيم يعلق على عدم اتقان الممثلين لدور الفلاح ويقول : انظر يا عبد الجيد إنهم لا يستطيعون أن يمثلوا دور الفلاح ، معقول الفلاح بهذه السذاجة ؟ ويدور حوار بين الحكيم وعبد الجيد ، عن الفلاح والأرض وهموم الزراعة ، والمحصول الذى لم يأت بنتيجة ، فيسأل الحكيم عن السبب ، فيقول له مثلاً إن محصول القطن ناقص لأن الدودة أكلته ، ولكن أين المبيدات ؟ يسأل الحكيم ، ويجيبه عبد الجيد : المبيدات كان فيها عجز هذه السنة ، فيقول الحكيم ؛ كان المفروض وزارة الزراعة توفر المبيدات .

ويستمر الحوار بسيطاً بين عبد الحكيم وعبد الجيد ، الذى كان يسأل

والحكيم يجيبه ويتسع صدره له ، ويحدثه بلغته ومستواه وفكره ، ويعطيه الفرصة ليتكلم ويسأل ، ويصحح له معلوماته فى موضوعات دينية أو سياسية أو أى شئ يختص بأحوال البلد ، ويطلعه كيف تسير الأمور ، ويشرح عبد الجيد وجهة نظره ، وينصت إليه الحكيم ثم يعلق على كلامه ، ودائماً كان عبد الجيد يقتنع ويعود من كل زيارة للحكيم بمعلومات جديدة أضافها أو صححها له ، أو يكون عبد الجيد قد استشار الحكيم فى مشكلة عامة أو خاصة ، أو متعلقة بأعمال الأرض والزراعة والفلاحين والمستأجرين ، وهل كان تصرفه فى هذه المشكلة على صواب أم على خطأ ، فيفيده الحكيم أنه فى هذا التصرف كان محقاً ، ولكن فى هذه المشكلة كان يجب أن يفعل شيئا آخر ، ويمتد الحوار بين عبد الجيد والحكيم الذى يشجعه على إطالة الحوار بأن يحكى له بعض ذكرياته .

وهكذا يشعر عبد الجيد بالألفة وهو مع الحكيم الذى يتركه يجلس معه دون أن يشعره بأى كلفة أو تكاليف ، وإنما يشعره بأنه مثل صديق له يرتاح له ويأنس به ، وقد استطاع عبد الجيد أن يتفهم طباع الحكيم إلى درجة أنه يعرف متى يستطيع أن يستطرد معه فى الكلام ومتى يتوقف عندما يراه وقد دخل فى حالة يسرح فيها مع فكرة تشغله ، فيتركه مع تأملاته دون أن يقطع عليه حبل أفكاره ، إلى أن يحدثه الحكيم فيعود الحوار الذى يمتد ساعات وساعات .

ولا ينام الحكيم قبل أن يطمئن من أهل بيته على راحة عبد الجيد ، طعامه، شرابه، نومه، فكان عبدالجيد يشعر بهذا الاهتمام من الحكيم، فكانت تستريح نفسيته ، ويحس كانه فى بيته لم يفارقه ، وعندما يكون مسافراً عائداً إلى القرية ، يسأله الحكيم عن وسيلة السفر ، ويحذره من ركوب التاكسيات فسائقوها متهورون لا يراعون أصول القيادة ، وينصحه لذلك بركوب القطار ، ثم يطلب منه ألا يغيب كثيراً عن زيارته ،

بل ويطمئن منه على الموعد الذى سوف يأتى فيه ، حتى جاء عبد المجيد ذات مرة على غير موعد ودون انتظار من الحكيم أن يأتى فى هذا اليوم بالذات لأنه لم يمض على زيارته سوى يومين فقط ، فسأله الحكيم عن سبب وجوده فى القاهرة فقال له إنه قد حضر مع آخرين من القرية بطلب من لجان الاتحاد الاشتراكى الذى حشدهم مع من حشدهم من الناس لاستقبال عبدالناصر بعد عودته من زيارة له فى الخارج، ودار حوار بين الحكيم وعبد المجيد حول هذا الموضوع ، الذى ضمنه بعد ذلك ما اعتبره تقييما لثورة يوليو فى كتابه المعروف بعودة الوعى ، والذى خطه بالقلم الرصاص بعد وفاة عبد الناصر ، ولم ينشره إلا بعد رحيله بأربع سنوات ، ولو كان قد نشره فى عهده إبان هزيمة ٦٧ ، لكان الموقف قد اختلف ، لولا أن عملا كهذا كان من شأنه أن يضع ملحا فوق الجرح ، فضلا عن أن الحكيم لم يكن مصدقا أن قواتنا المسلحة يمكن أن تلحق بها هزيمة لأن كل الدلائل كانت تشير إلى حجم الثقة الزائدة فى الجيش وحسن قيادته ، وظل الحكيم على قناعته بحتمية النصر حتى أعلن عبد الناصر بيان التنحى ، لقد كان الحكيم من أواخر من اكتشفوا الحقيقة المريرة ، حتى أن ابنه إسماعيل كان أسبق منه إلى إدراك ما خلف ضباب الأحداث ، ففى تلك الليالى السود بأحزانها وآلامها وأنوارها المظلمة تضليلا لأى غارة عن أهدافها ، كان إسماعيل يجلس على البيانو فى مدخل البيت عن شمال الداخل إليه ، ليعزف لحنا جنائزيا ، فيصرخ فيه والده توفيق الحكيم لكى يتوقف ، ولكن إسماعيل يقول لأبيه صارخا بمرارة تخنقها الدموع وحشرجات صوت تقطعت أنفاسه : لقد هزمنا . ويواصل عزفه للحن الجنائزى الحزين ، فيتهمه الحكيم بأنه : انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !

ويصمت إسماعيل ومعه أهل البيت جميعا ، فقد اعتقدوا بأن المفكر

الكبير لديه فكرة عما يدور على جبهة القتال ، ويحوز معلومات مطمئنة عن وصول قواتنا إلى مرحلة متقدمة فى المعركة ، ولكن أحدا لم يحاول أن يسأل عن أى شئ ظنا منهم أن هذه أسرار لا يجوز السؤال عنها أو البوح بها ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنه لا يعرف شيئا عن أى شئ ، سوى قناعته وثقته فى انتصار قواتنا المسلحة رغم ورود معلومات عن انسحابها من سيناء ، كما أخبره بذلك أحد أصدقائه ، ولكنه ظل على تفائله مستعينا بذاكرة التاريخ ، ظنا منه أن هذا الانسحاب يشبه انسحاب الروس من « ستالیننجراد » ، لينقضوا بعد ذلك على قوات العدو ، ولكن الحقيقة كانت أسوأ من إمكانية تصديقها ، حتى بدأ ستار ظلمة الليالى والأيام السود ينزاح عن كارثة فى حجم الأمانى التى كانت معلقة على ثورة يوليو وزعيمهاالثائر ، وراح الحكيم يدون ملاحظاته وآرائه فى تقييم التجربة كلها وأسماها « عودة الوعى » ، مطالبا بفتح ملفاتها ، ووجدهاالبعض فرصة لإدانة زعيم الثورة ، واكتشف الحكيم أن فتح الملفات أدى إلى ادانات جديدة لعبد الناصر ، فكتب مرة أخرى ، يطالب بإغلاق الملفات ، ولكن لم يكن هناك جدوى ، فقد استغل بعض بقايا عهد ما قبل الثورة ، عودة الوعى ، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة ، حتى أن بعضهم أبلغ رسالة إلى توفيق الحكيم عن طريق ابنه اسماعيل ، يسخرون فيها شامتين ، قائلين للإبن أن يبلغ أباه :

هل عرفت الآن فقط أن الثورة التى بشرت بها كانت فاشلة؟!

وحزن الحكيم لذلك كثيرا فلم يكن يقصد أن تستغل عودةالوعى بهذه الانتهازية .

ولكن بعض اليساريين المتعقلين تفهموا دوافع الحكيم وهى أنه ينقد لحساب المستقبل لا لحساب الماضى . وسأل التلميذ عمن يكون هؤلاء المتعقلون ؟

فقال الحكيم « من أعقل اليساريين الذين تفهموا موقفى ، خالد محيى الدين ، ولطفى الخولى ، الذين قالوا لى :

إننا لسنا ضد كتابك فكلامك فيه معقول ، وقال خالد محيى الدين : إنه وقف ضد عبد الناصر عندما رأى أنه ضد الديمقراطية ، وأنه يتفق معى فى ضرورة دراسة تجربة عبد الناصر ليس بهدف تجريحه ولكن بهدف الاستفادة من تلك التجربة لعدم تكرار أخطائها ، وقال خالد محيى الدين ولطفى الخولى أنهما فقط ضد التوقيت الذى نشر فيه « عودة الوعى » لأن اليمينيين استفادوا منه لهدم الثورة . فقلت : إنه لا يهمنى اليمين ولا أنظر لهذا وإنما الذى يهمنى أن نعرف الأسباب التى أدت إلى انحراف الثورة وأدت إلى الهزيمة حتى لا نقع بعد ذلك فيما وقعنا فيه .

ولكن فى الحقيقة أنا لم أكن متنبها لحكاية التوقيت الذى ظهرت فيه « عودة الوعى » لأننى كتبتها بمناسبة مرور عشرين سنة على الثورة ، حيث خطرت لى وأنا جالس فى « قهوة » مع نجيب محفوظ وإبراهيم فرج ، قبل أسبوعين من يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٢ ، حينما راح شريط الثورة يمر أمام عينى منذ صباح الأربعاء حينما سمعت بيان الثورة الأول واستيلاء الجيش على السلطة ، فلم التفت لهذا البيان الذى سمعته فى الراديو ، لم أعيه تماما وارتديت ملابسى فى ذلك الصباح وخرجت لتناول الافطار فى « جروبى » ، نظرا لوجود الأسرة للاصطياف فى الاسكندرية وكنت أزورهم كل يوم خميس وجمعة ، نظرا لمشاغلى ، فكنت فى غيابهم أتناول طعامى خارج البيت ، فرأيت وأنا ذاهب إلى « جروبى » فى ميدان سليمان باشا (طلعت حرب الآن) ، دبابات ، فسألت نفسى دون أن أعرف : ماذا تفعل دبابات الانجليز هنا ؟ فلم يكن مألوفا وجودها فى الشوارع ، ولما سألت عن حقيقة الأمر بعض الموجودين فى « جروبى » أخبرونى بأنها دبابات الجيش المصرى الذى استولى على السلطة ، وما بين

البداية حتى هزيمة ١٩٦٧ رحت أتأمل كيف أنه فى تلك الأيام الصعبة لم أجد نائبا عاقلا فى مجلس الأمة يرفع إصبعه ويطلب الكلمة ليوجه سؤالا إلى عبد الناصر عما حدث ، كيف حدث ولماذا حدث ؟ فيجيب عبد الناصر موضحا الحقيقة كل الحقيقة ، وعند ذلك يقدر الشعب الموقف ويتفهمه ويواصل الحرب ولو بالعصى ، ولكننى فوجئت بمن يرقص فى مجلس الأمة ، فكأن الشعب قد فقد وعيه ، ورحت أستعرض شريط ذكريات الثورة منذ قيامها وحتى الهزيمة فى محاولة لاستكشاف واستطلاع ما أدى بنا إلى ما وصلنا إليه ، ولم أبرئ نفسى فقد قدرنى عبد الناصر أكثر مما قدر غيرى وربط بين فكرى وفكر الثورة ومن هنا تضاعفت مسئوليتى فى ضرورة مناقشة كل ما وقع لأننى لا أعطى كائنا من كان تعهدا أبديا بمساندته الأبدية لأن مصر كانت وستظل دائما قبلتى الوطنية ، وبعد أن كتبت « عودة الوعى » بالقلم الرصاص : أخبرت صديقى نجيب محفوظ وإبراهيم فرج بما كتبت ، فأقرانى على ما كتبت وأننى ما قلت إلا الحقيقة ، وسألانى عن موعد نشر الكتاب ، فكان من رأيى ألا ينشر الآن وأن يؤجل نشره إلى بعد أن أودع الحياة ، فطلب منى إبراهيم فرج وهو صاحب مكتب محاماة أن يطبع من المخطوط خمسة نسخ ، واحدة له وأخرى لنجيب محفوظ ، وأن أحتفظ أنا بثلاثة نسخ ، وكانت طريقة الطبع كما اقترحها إبراهيم فرج هو كتابتها على الآلة الكاتبة التى عنده بمكتب المحاماة ، فقلت له : ومن يضمن ألا تتسرب نسخة ممن سيكتبها على الآلة الكاتبة ، فطمأننى إبراهيم فرج إلى أن موظفة الآلة الكاتبة عنده لا تفهم شيئا ، ولن تتنبه إلى أى شئ مما تكتبه ، وبالفعل أخذ كل من إبراهيم فرج ونجيب محفوظ نسخة من « عودة الوعى » بعد كتابتها على الآلة الكاتبة ، وأخذت الثلاث نسخ الباقية ، وأعطيت أحدها لصديقى الدكتور حسين فوزى واستبقيت لنفسى

نسختان ، ثم بعد ذلك فوجئت بتسرب « عودة الوعى » ونشرها مترجمة إلى الفرنسية ، ثم نشرها مرة أخرى مترجمة عن الفرنسية إلى العربية فى صحف بيروت » .

فمن الذى سرب « عودة الوعى » على غير رغبة الحكيم ؟!

حاول الفتى الصحفى أن يجرى تحقيقا صحفيا للإجابة على هذا السؤال . ودارت وقائع التحقيق حول هؤلاء الثلاثة الذين أعطى كل منهم ، توفيق الحكيم ، نسخة من « عودة الوعى » ، هل هو نجيب محفوظ ، أم إبراهيم فرج ، أم د . حسين فوزى ؟

نجيب محفوظ صديق يؤكد الحكيم أنه يثق فيه ، فهو من طبيعته الكتمان ، وهو رغم اتفاقه مع الحكيم ، فى آرائه السياسية غالبا ، وبينهما حوار مستمر ، أغلبه يدور فى مكتب الحكيم بالأهرام إلا أن نجيب محفوظ لا يبوح بشئ ،، وكثيرا ما يردد أنه تلميذ ملازم لأستاذه يستمع منه أكثر مما يتكلم إليه .

أما إبراهيم باشا فرج ، المحامى والوفدى القديم ، وسكرتير حزب الوفد الجديد ، فيؤكد الحكيم أيضا أنه رجل شريف ، فاتجه إليه الفتى الصحفى ، يسأله عن علاقته بتوفيق الحكيم ، فأجابه ، أن علاقتهما بدأت منذ ١٩٢١ كزملاء دراسة بمدرسة الحقوق ، وتخرجا معا فى دفعة واحدة سنة ١٩٢٥ ، ثم افترقا مؤقتاً فى طريق الحياة ، إبراهيم فرج التحق كمحامى تحت التمرين بمكتب مصطفى النحاس ، بينما سافر الحكيم إلى فرنسا لاستكمال دراسته والحصول على الدكتوراه فى القانون ليتسنى له الالتحاق بالنيابة العمومية المختلطة آنذاك ، ولكنه سافر وعاد بدكتوراه الأدب والفن والمسرح مما ثقف به نفسه فى باريس ، وعاد ١٩٣٠ ليلتحق بالنيابة الأهلية مساعداً لنيابة مركز طنطا فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم فرج قد أصبح وكيلاً لنيابة مركز طنطا ، فاجتمعا فى نيابة واحدة واتخذا لنفسيهما

مسكنا واحدا بأحد البنسيونات بميدان الساعة بطنطا ، حتى نقل إبراهيم فرج إلى المنيا ، فباعدت بينهما الأيام مرة أخرى ، ليتخذ إبراهيم فرج طريقه فى السياسة ، ويسلك الحكيم طريقه فى الأدب ، وكان يلتقيان من وقت لآخر ويدور بينهما حوار ممتد حتى أصبح إبراهيم فرج عضوا بارزا فى حزب الوفد ، وتوفيق الحكيم عضوا بارزا فى زمرة الأدباء والمفكرين ، له آراؤه السياسية التى كثيرًا ما تختلف بطبيعة الحال مع إبراهيم فرج عضو حزب الوفد الذى لم تمنع صداقة الحكيم له من أن يناوئ ويهاجم الحزب والحكومة التى ينتسب إليها صديقه ، وبعد الثورة و حل حزب الوفد بقى إبراهيم فرج محاميا وظل الحكيم مع قربه ومكانته التى وضعته فيها ثورة يوليو ، محافظًا على علاقاته مع أصدقائه القدامى ومنهم إبراهيم فرج الذى جعله الحكيم محاميه الخاص . الذى يسوى نزاعات أسرته ويحصل له على حقوقه من الناشرين ، وكان الحكيم يثق فيه أيضًا ويسميه « الصديق الوفى » ويصر على مناداته بإبراهيم باشا فرج وكتابة ذلك فى إهداءاته لكتبه له ، حتى بعد إلغاء الألقاب كان الحكيم يصر على الاحتفاظ لصديقه بلقبه ، وكان إبراهيم فرج يزور الحكيم كل يوم جمعة فى بيته القريب منه فى جاردن سيتى ، وكانت زوجة إبراهيم فرج تزور زوجة الحكيم من وقت لآخر . فكانت صداقة قوية بين رجلين إلى درجة أن الحكيم قد طلب من إبراهيم فرج أن يختار عنوانا لمخطوطته التى لم يكن قد استقر على اختيار اسم لها من بين عدة أسماء اقترحها الحكيم ومنها : للحقيقة والتاريخ ، تصحيح لابد منه ، تصحيح لما مضى ، كيف كنا نفهم الثورة ، وكان آخر عنوان اقترحه الحكيم على إبراهيم فرج هو « الوعى المفقود » ، فبادره إبراهيم باشا فرج قائلاً : بل قل « عودة الوعى » أفضل . فارتاح الحكيم لهذا الاسم الذى جعله عنوانا لمخطوطته ، وكان ذلك فى قهوة « بيترو » بالاسكندرية . بل إن إبراهيم فرج بعد أن قرأ مخطوطة « عودة

الوعى » أمد الحكيم ببعض المعلومات التى أضافها على المخطوطة الأصلية ومنها تلك الفقرة الخاصة بحركة التطهير لبعض الرجال الذين أعادتهم الثورة وزراء بعد ذلك ، وذكر إبراهيم فرج للحكيم أسماءهم ، وكتب الحكيم هذه الفقرة .

« ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، وزراء فى ذات الحكومة التى سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق صدقى وزير الزراعة الأسبق » .

لم يبق سوى د . حسين فوزى الذى أشار الحكيم صراحة إلى أنه هو الذى نشر « عودة الوعى » من وراء ظهره ، فهو أحد الثلاثة الذين قرأوها مخطوطة قبل نشرها ، والدكتور حسين فوزى صديق قديم للحكيم تحدث عنه فى سيرته الذاتية « سجن العمر » حيث تعرف عليه فى « التياترو » فى العشرينات ، وكانت لهما إهتماماتهما الفنية والمسرحية ، وتوطدت علاقاتهما وامتدت حتى وفاة الحكيم . وقد ذكر الحكيم أن حسين فوزى لم يلتزم برغبته فى عدم نشر عودة الوعى ، وحمله المسئولية حين قال : « منه لله صديقى حسين فوزى أخذها ونشرها ثم ذهب يستمع إلى الموسيقى وتركنى أتحمل كل الشتائم والنقد » .

ولكن صديق الحكيم المستشار محمد سعيد العشماوى يبرئ د . حسين فوزى من تهمة نشره عودة الوعى فى باريس بغير موافقة توفيق الحكيم ، فيقول فى شهادته على « عودة الوعى » حينما سأله الفتى الصحفى ، واجابه[1]: «غير صحيح أن د. حسين فوزى قد نشر «عودة الوعى»

(١) من حديث خاص للمستشار محمد سعيد العشماوى مع المؤلف فى ٦ يونيو ١٩٨٨

بدون موافقة توفيق بك الذى كان يسرح المسألة ، فهو الذى أعطى نسخة من مخطوط « عودة الوعى » لحسين فوزى .. على اليقين أعطاها لحسين فوزى لينشرها ، وكان حسين فوزى صديقا مخلصا للحكيم ولم يكن يعمل شيئا يخصه بغير رغبته ، وأنا كنت أجلس فى « سميراميس » ذات مرة ووجدتهما يجلسان منفردين يتحدثان ، بما يسمح لى أن أقول أن حسين فوزى كان وسيط توفيق بك لدى ناشر فرنسى جاءه فى « سميراميس » . واتفق معه على نشر « عودة الوعى » فى باريس ، لأنه لم تكن لدى توفيق الحكيم طريقة لنشر عودة الوعى هنا فى مصر أو العالم العربى » . واستدرك الفتى الصحفى : ولكن محمد المعلم صاحب « دار الشروق » نشر « عودة الوعى » بعد ذلك ؟

فقال المستشار : نشرها بعد أن نشرت فى باريس وبعد أن نشرت فى بيروت .

وسأله الصحفى : هل محمد المعلم هو الذى تبرع من نفسه بعرض نشر « عودة الوعى » ؟

قال المستشار العشماوى : كانت لمحمد المعلم اتصالات بالإخوان المسلمين ، وكان يهمهم نشر مثل هذا الكتاب فى مصر ، وكان هناك صديق مشترك لمحمد المعلم ولى ، قال لى : لو توفيق بك أتى بهذا الكتاب لنشره فى مصر سنأتى له بستة آلاف جنيه ، انتهوا إلى أربعة آلاف فى الطبعة الأولى . وأربعة آلاف فى الطبعة الثانية .

فلما قلت لتوفيق بك ، وجدها فرصة .. فالكتاب قد تسرب .. والمبلغ كبير . فأخذ أربعة آلاف فى أربعة آلاف يعنى ثمانية آلاف جنيه .

وأضاف للطبعة الثانية إضافات قلت له عليها .. فأخذها وقال لى ونحن نسير على الكورنيش أنه أضاف ما اقترحته عليه ، وراح يقرؤه لى ، ونشره فى الطبعة الثانية » .

ومع ظهور عودة الوعى أولا فى باريس مترجمة إلى الفرنسية ، ثم ترجمتها إحدى الصحف البيروتية إلى اللغة العربية لتنشرها .. يكمل ابراهيم فرج رسم صورة وقائع هذا الحدث فيقول : « عندما علم بذلك فؤاد سراج الدين (سكرتير حزب الوفد القديم ورئيس حزب الوفد الجديد بعد ذلك) وكان وقتها بالصدفة يصطاف فى لبنان فأجرى اتصالات بالمسئولين فى الصحيفة اللبنانية واستطاع أن ينتزع منهم مبلغ ألف جنيه كحقوق نشر لتوفيق الحكيم ، وعندما عاد فؤاد سراج الدين إلى القاهرة دعا توفيق الحكيم لتناول طعام الغداء وحكى له ما حدث فعلق توفيق الحكيم على ذلك بقوله : إنهم يسرقوننى » .

ولم يكن أمام توفيق الحكيم بعد « نشر عودة الوعى » خارج مصر سوى أن يتحمل مسئوليتها ويواجه عواصفها ورعودها ، وشجعه على نشرها فى مصر الكاتب الصحفى أحمد بهجت وقال له : إن نشرها فى مصر يهم الإخوان المسلمين والناشر على استعداد لأن يدفع لك عشرة آلاف جنيه ، ولما جاءه الناشر المصرى « محمد المعلم » صاحب دار الشروق ليشترى منه حق نشر « عودة الوعى » وضع أمامه شيكا بألفان من الجنيهات مقابل السماح له بنشرها ولكن الحكيم طلب عشرة آلاف جنيه طبقا لما قاله له أحمد بهجت ، ويبدو أن أحد الصحفيين كان قريبا من مكتب الحكيم بالأهرام وسمع بذلك فنشر فى صحيفته أن الصفقة التى تواطأ فيها الحكيم مع اليمين ثمنها عشرة آلاف جنيه ، وأراد الحكيم أن يبرر أخبار هذه المساومة التى تسربت أخبارها فقال : إنه أراد تعجيز الناشر حتى لا ينشر عودة الوعى فى مصر ، غير أن الاتفاق كما يؤكد الحكيم قد انتهى إلى ألفان من الجنيهات ، ولكن إبراهيم فرج الذى أبرم العقد يؤكد هو الآخر أن توفيق الحكيم قد حصل على ثلاثة آلاف جنيه .

ومهما يكن فإن الحكيم لم يجد بدًا من الموافقة على نشرها فى مصر ،

فذلك أفضل بالنسبة له وهو لم يتعود أن يتنكر لشئ كتبه أو قاله ، ثم إنه من الأفضل له أن يستفيد بحقوقه المادية عن نشر عودة الوعى فى مصر ، ولم يشأ أن يتمسك بمبلغ معين عن حقوق نشرها ، فقد تسربت عودة الوعى أو هكذا قال الحكيم ، ونشرت خارج مصر وما أسهل على الناشر المصرى أن ينقلها ويعيد نشرها ، وياطول بال المحاكم إذا فكر الحكيم فى رفع قضية يطلب فيها حقوقه ، لذلك رأى الحكيم أن يرضى بما قسم له فإن أحدًا لم يصدقه ولن يصدقه ممن هاجموه فى أنه لم يكتب عودة الوعى طعنا فى الثورة أو انتقاما من عبد الناصر،فهو أولى وأحق بحقوقه عن نشر « عودة الوعى » مادام يتحمل مسئوليتها أمام التاريخ .

ويدافع الحكيم عن نفسه بأن للكاتب الحق فى أن يعيد النظر فى بعض المواقف أحيانا على ضوء توفر معلومات جديدة لم تكن معروفة له من قبل ، ولم تنفع الحكيم أى تبريرات واستمر الهجوم عليه ، حتى أنه فوجئ بامتداد الغضب عليه إلى داخل بيته ، فقد خاصمته زوجته بسبب « عودة الوعى » ، رغم أنها كانت هى التى أكدت عليه ألا ينحنى أمام عبد الناصر حين يتسلم منه « قلادة النيل » التى منحها الزعيم للمفكر ردا على مهاجميه ، الذين أرادوا أن يسلبوه « حماره » وينسبونه إلى أديب أسبانى ، كما كانت القلادة تعبيرا عن تقدير الزعيم عبد الناصر لفكر الحكيم الذى تأثر به خاصة فى « عودة الروح » .

ولما رأى الحكيم غضب زوجته منه قال لنفسه أنه لابد قد جرح عبد الناصر ، فأعاد قراءة « عودة الوعى » مرة أخرى وكان فى نيته أن يحذف أى جملة فى الكتاب فيها مساس بعبد الناصر ، ولكنه بدا مقتنعا أنه لم يمس عبد الناصر فيماكتبه ، وإن كانت هناك انتقادات لنظام حكمه .

واستمرت العاصفة تتصاعد ضد توفيق الحكيم فأراد الاستنجاد

بصديقه المستشار سعيد العشماوى للحصول على وثائق التحقيقات الخاصة بلطفى الخولى وصحبه ، بخصوص جدل حدث حول توسيط الحكيم لكى لا يبعد محمد حسنين هيكل عن الأهرام لكى يصبح وزيرا ، وكتب الحكيم بذلك خطابا إلى عبد الناصر ، يقول له فيه إن هيكل الكاتب أفضل له من هيكل الوزير ، وتسرب خبر الخطاب ، وكانت له تداعيات أدت إلى التحقيق فى الأمر ، مما جعل الحكيم يحاول الحصول على وثائق التحقيق ليستشهد بها ، على أنه لم يكن من الممكن أن يكتب كتابه وينشره فى عهد عبد الناصر ، لأنه إذا كانت رسالة قد كتبها بشكل شخصى من المفكر إلى الزعيم ، قد تم تحويلها إلى النيابة ، وحقق مع ناس وسجنوا بسببها ، فماذا كان سيكون عليه الموقف لو نشر « عودة الوعى » فى تلك الفترة ؟

وسأله التلميذ ما الذى كان يمكن أن يحدث لو نشرت عودة الوعى فى عهد عبد الناصر ؟

فقال الحكيم : لو حدث ذلك لأرسل إلىَّ فرقة ضرب نار » !

وطلب الحكيم من المستشار العشماوى أن يحصل له على وثائق التحقيق مع لطفى الخولى وصحبه ، فطلب منه المستشار بالتالى أن يكتب خطابا بما يريده ويوجهه إلى وزير العدل ، الذى أشر بالموافقة ، فجاء كتاب الحكيم « وثائق فى طريق عودة الوعى » ، وقد أحس اليسار بالذات أن توفيق الحكيم هو أشبه بقائد كبير فى معركة قد انتقل من موقعه إلى المعسكر المعادى للثورة ، وأصبح نجما من نجومه ، ولم يكن الجميع ، إلا قلة نادرة على استعداد لأن يصدقوا حسن نواياه .

* * *

وكلما رأى الحكيم ، « عبدالمجيد محمد عبد الرازق » ، يتذكر « فلاح عودة الوعى » ، وتداعيات تلك الفترة ، ثم لا يلبث إلا أن يطوى هذه

الصفحة ليرحب بضيفه ويقوم بالواجب نحوه ، بل إن تحية الحكيم تمتد إلى أولاد عبد الجيد ، كلما جاء أحد منهم إلى القاهرة ، فيقضى ليلة أو ليلتين أو أكثر ، فى ضيافة الحكيم ، الذى يسأل أولاد « عبد الجيد » عن أبيهم :

كيف حاله ؟ لماذا لا يأتى ؟ لقد غاب عنا كثيرا هذه المرة .

وكحبه لأبيهم كان يحبهم ، فقد تعرف عليهم جميعا ، عندما كان « عبد الجيد » يستشيره فى أمور دراستهم ، فمن لم يقتنع برأى أبيه منهم ، أتى به إلى القاهرة ليستمع إلى رأى الحكيم بنفسه ، ويوصيه : مثلما يقول لك البك افعل فأنت لن تعرف مصلحتك أفضل منه .

له ابن أسماه جمال ، تيمنا وحبا لاسم جمال عبد الناصر ، بعد أن حصل على الاعدادية بمجموع كبير طمع فى دخول الثانوى العام ، ولكن والده عبد الجيد ، قال له :

أنت رجل تؤمن بالعمل ولن تصلح للأعمال المكتبية .. لامستقبل لك إلا فى التعليم الفنى .. صنايعى سيارات .. جرارات .. خراطة .. تجارة .. شغل ينفعك تستخدم فيه عقلك ويديك .. إنما لو اشتغلت على مكتب لن تستطع أن تستغل طاقات عقلك ويديك .. وانت يابنى فلاح يجب أن تعتمد عل طاقاتك دون أن تعطلها بالجلوس على مكتب ، ولذلك فالتعليم الفنى أفضل لك » .

ولكن « جمال عبد الجيد » لا يقتنع بكلام والده ، ويصعب عليه أن يضحى بمجموعه الكبير فى الإعدادية دون أن يدخل الثانوية العامة ، فقال له والده :

تعال معى إلى القاهرة والبيه - توفيق الحكيم - هو الذى يحكم بيننا ، والذى ينصحك به أنا موافق عليه » ، ولم تكن وجهة نظر الحكيم لتختلف مع وجهة نظر عبد الجيد عندما شرحها للحكيم الذى قال له « هذاهو

الرأى الصحيح وأنا موافقك عليه » ، فاقتنع جمال ونجح فى دراسته وحصل على دبلوم صناعة ، قسم سيارات .

أما « مجدى » فقد كان أزهريا دخل كلية الشريعة والقانون ، ولكن يبدو أنه وجد صعوبة فى دراستها ، فأراد أن يحول منها إلى كلية أخرى سهلة الدراسة والنجاح ، فقال له أبوه عبد الجيد لو تركت كليتك ستكون إنساناً ضعيف الإرادة غير قادر على تحمل الأمور الصعبة ، والرأى لك فى النهاية لكن بعدما نأخذ رأى البيه ونستشيره فى الموضوع ، فكان رأى الحكيم : « لا يامجدى لا تترك كلية الشريعة والقانون لازم تحبها وتنجح فيها ليس من أجل نفسك فقط ولكن من أجل بلدك » ، وأهداه الحكيم أجندة وكتب له متمنيًّا له الحياة الموفقة لخدمة نفسه وأهله ووطنه ، ونزل « مجدى » على رأى الحكيم وكان عند حسن ظنه به .

ولما أراد « شعبان » أن يسلك سلك التعليم العام كانت رغبة والده أن يتخصص فى الدراسة الزراعية ، ليساعده ويساعد إخوته الفلاحين الذين لم يتعلموا ، فيكون بتعليمه الزراعى إضافة علمية لإخوته بخبرتهم ، ولم يقتنع « شعبان » إلا بعد أن سمع من الحكيم موافقته على رأى أبيه : لازم يا شعبان يكون فيه واحد فى إخواتك « زراعى » يدرس الزراعة من الناحية العلمية وتساعد إخوتك الفلاحين .

وعندما وضعت زوجة عبد الجيد مولوداً جديداً وكان حلو الملامح والتقاطيع ، رأت أسماء البسطامى أم الحكيم أن تطلق عليه اسم ابنها توفيق ، ووجد هذا الاقتراح ترحيباً وقبولاً من عبد الجيد وزوجته ، وكان عبد الجيد يقول للحكيم : هذا الولد اسمه على اسمك وانت ملزم به تشجعه ليكون حاجة كبيرة مثلك » ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فقد تعثر توفيق عبد الجيد عبد الرازق ، فى دراسته ولم يستطع أن

يسير فيها فخرج وهو فى المرحلة الابتدائة وانضم إلى أخيه « محمد » ، يساعدان والدهما فى زراعة الأرض ، « محمد » يقود الجرار الزراعى ، وتوفيق يرعى الأرض بفأسه ومحراثه ، ولم يغضب الحكيم لأن سَميُه لم يحقق ما كانت ترجوه منه أسرته بتسميته باسم المفكر الكبير ، بل إنه قال : من الأفضل إن توفيق ينتج فى أرض يعرفها ويحبها ويرتبط بها ، ويخرج منها أسرارها وخيراتها ، فيستجيب لها وتستجيب له ، وإذا نجح فى أن يكون فلاحاً واعياً بأرضه وبرسالته فهو لا يقل قيمة عن أى عالم من العلماء فى تخصصه ، وكل إنسان مهيأ لما خلق من أجله .

وهكذا كانت علاقة الحكيم بناظر أرضه عبد الجيد ، وأولاده ، يشعرهم كأنهم جزء من أسرته ، وكان الحكيم يقول لزوجته : « عبد الجيد » وعياله جزء منا » فكانت تطمئنه على طعامهم وشرابهم ونومهم خلال وجود أحدهم فى بيت الحكيم ، وكانت السيدة زوجته تعطيهم نقوداً ، فقد كانت هى التى تتولى المسائل المالية ، ولم تك تترك عبد الجيد وأولاده دون أن تسألهم عن حاجتهم وتطمئن على رضاهم ، وكان الحكيم رغم أن له طعاما مخصوصا بحكم السن ، فإنه كان يطلب أن يتذوق من طعام أهل البيت وزواره مشاركة معنوية منه للمرتبطين به ، ولضيوفه ، ويقول لهم « الله .. طعامكم حلو .. بالهنا والشفا » .

ولم يكن الحكيم ينسى أن يوصى عبد الجيد أن يأتى له بالذرة الخضراء ، والفول الأخضر ، حيث يفضلهما الحكيم ويستمتع بأكلهما . وكانت عادة سنوية ، « الفول » يأكله ، الحكيم وهو أخضر ناضج شهى ، أما الذرة فهو لا يفضل شيه ، وإنما توضع أربعة أو خمسة « كيزان » على النار فى ماء وملح ، حتى يغلى الإناء بما فيه ، ثم يأكله الحكيم مسلوقاً ، ولقد اعتاد أهل بيته أن يفعلوا مثله ، وكان عبد الجيد حريصاً على أن يأكل الحكيم الذرة والفول الأخضر قبل أن يأكله أحد من الناس .

لقد كان عبد المجيد يحب الحكيم ، وفى آخر لقاء لهما قبل مرض الحكيم وانتقاله إلى المستشفى بشهر واحد ، كان الحديث بينهما يدور فى أمور الدنيا والآخرة ، وكأن الحكيم يشعر بقرب انتقاله من الدنيا إلى الآخرة ، وعندما علم عبد المجيد بخبر وفاة الحكيم ، وقبل أن يتصل به أحد كان قد وصل إلى القاهرة ما بين الثانية والنصف والثالثة بعد منتصف نفس ليلة رحيل الحكيم ، لقد شعر عبد المجيد كأن إنساناً عزيزاً عليه قد فقده ، وهو اليوم حين يدخل من باب العمارة التى يسكنها الحكيم يشعر بالحزن ، ويتضخم حزنه حينما يقف على باب الشقة يدق جرس بابها ، وبعد أن يدخل يشعر بحالة اكتئاب نفسى لأنه لن يعد يرى الرجل الذى أحبه .

ملحق الوثائق والصور

وثيقة (١)

زوجتي العزيزة

صباح الخير. وإن أصبحنا بلا صباحك المشرق
فالبيت في ظلام بدون وجودك فيه. فأنت فيه
الشمس والقمر معاً الشمس في نهاره والقمر في ليله
فنسأل الله أن لا تطول غيبتك عنا. وأن يعود
إلينا نهارنا مشرقاً. ونحن في غاية الشوق إلى الزهور
التي تزرعها وتعمل أناملك تنسقها بأذواقها. فبلغي الشكر
عنا إلى المسؤولين الذين في علاجك وعلى رأسهم
الدكتور الشهير الأستاذ محمود سامي عبد الجواد. ثم لمن
وجدت منه رعاية بك ممن في المستشفى. ولك مني ومن
الجميع هنا أطيب التمنيات. وقبلاتنا التي لا تعد ولا

توفيق

أندر وثيقة .. خطاب كتبه توفيق الحكيم إلى زوجته

وثيقة (٢ أ)

اسماعيل

أنا لا أحلل هنا برؤيات انفعالية رومانسية بل برؤيات أعم من ذلك وأعمق . سأبدأ تتعلق بما أعتقد أنك أنت تعاني منه وتقلقه في أعماقك بشعورك الواعي أو غير الواعي . ذلك هو شخصيتك التي تتصارع فيها ثلاث شخصيات مختلفة في وقت واحد وهي :

١ - شخصية الرجل الذي يفكر تفكيراً سليماً ويفهم كل شيء فهماً جيداً . ولكن إرادته أضعف من أن تقرر ما ينفعه وتجنب ما يضره ..

٢ - شخصية الشاب المراهق التارك لعواطفه فرصة أن تأكل شخصيته وهو عاجز عن حماية نفسه ومستقبله

٣ - شخصية الطفل في حجر أمه الذي يلقي بأعباء حمل كل مسئولياته والتزاماته .

ومن مجموع هذه الشخصيات تقوم شخصية واحدة متناقضة محيرة لمن ينظر إليها جيداً .

خطاب من أربع صفحات كتبه الحكيم بالقلم الرصاص إلى ابنه اسماعيل

وثيقة (٢ ب)

هل لهذه الحالة من حل أو علاج ؟

أعتقد أن الحل أو العلاج بسيط . ولا يحتاج إلا لشيء من التنظيم . وخاصة في البند الثاني والثالث . فإذا استطعت أن تنظم دخلك استطعت أن تواجه مسئولياتك . وبمواجهة مسئولياتك شعرت في الحال أمام نفسك أنك رجل ولم تعد طفلا ولا ذاتيا . وهذا سيريحك نفسيا . لأن من أسباب قلقك النفسي هو أنك تعرف أنك بلغت مبلغ الرجال وتتصرف بدون شعور تصرف الطفل والطالب الصغير . وهذا التنظيم الذي يعالج نفسيتك هذه ويجعلك طبيعيا في نظر نفسك وجديرا باحترامك لن يكلفك إلا أن تخصص أربعة جنيهات من دخلك الدوري (في أوقات شغلك) وذلك لمواجهة ديونك (التي تتحملها عنك والدتك فيها من ظروف شتى و[illegible] الحل يسيرا) وليس في مواجهتك لديونك هكذا راحة لوالدتك فقط بل إنك عندما تشعر أنك براحة الرجل الذي لم يعد عالة على أهله .

ولكن هذا يقتضي منك أن تكسب الكسب المعقول الذي ينبغي

لا منه عملك الخاص فقط الذي تشغلونه فيه ثم ازداد رزقك
بل من حاصل استغلال الآلات الضخمة التي دفعت انشاءها
منك وبدلك آلاف الجنيهات . واذا كنت تمر قدما
على أصابع رزقك بذلك فما عليك الآن تتخذ لك محاسبا تعول
عليه هو كل شئون المالية للشركة . وهو يعرض الوضع
في الوجهة القانونية ويضع كشوف توزيع الأرباح طبقا لما
تقضي به القوانين . ذلك لأن رزقك وأنت نفسك لم
تزل تعالج أمر الشركة كما لو كانت شركة هواة من طلبة
المدارس . في حين أنك أصبحت رجلا محترفا برأس مال
يقرب من الخمسين ألف جنيه ، وعليه أقساط ديون .
وهو وضع لا أستطيع أن أبالي كما تريد للشركة معالجة ميدانية
يتكالبون فيه على العقد بينهم شهوة أرباحهم ويتركون لك
مشغولياته وديونه . هذه مسائل خطيرة ولا بد أن تتوفر
على أساس قانوني سليم مع محاسب . وأنا لن
أكلفك شيئا . ولكنه سيحميك من الوقوع في أخطار الاحتيال
أو التشريع . وخاصة عند الارتباط بعقود مع الغير

وثيقة (٢ د)

من أصحاب الأعمال والملاهي والكرم الخادعين .
حياتك تلك ستتغير تغيرا مدهشا إذا نظمتها
هذا التنظيم ووضعتها على هذا الأساس السليم .
وستحس نفسك وتشعر بصحة شخصيتك . ولقد
كانت لك رجولة وإحساس بالمسئولية في يوم من الأيام
يوم كان دخل الغرفة كله في الوقت نحو ١٥ جنيه وكنت
تدفع لنا منه كل يوم ٧ جنيهات لسداد كمبيالاتك . وكنت
أمامنا جميعا مثال الشخصية المحترمة المقدرة لمسئولياتك .
وأنا لا أبغي من ذلك أن المقصود هو ما لديك لنا شيء
لنا . فالبيت بيتك أنت وزيزي . ولكن المقصود هو شعاري
بأنك تنهض بمسئولية رجل يحمل ذريته وحده ويفكر فيهم
بمفرده . كما أرجو أن لا تطلع أحدا على هذا الخطاب أو
تحدثه بما جاء فيه . مراعاة لشخصك . وأنا لم أتحدث في
ذلك إلا مع زيزي وحدها وهي متفهمة تماما لكل ذلك بل
إن آراءها كانت تشبه آرائي ونظامها يشبهه تماما . مما يدل
على أن طريقتك واضحة تماما . وملاحظة بيننا جميعا . فمن أجلك
جميعا . وما فعلناه أنا وزيزي فهو اللازم ... ونرجو لك التوفيق

وثيقة (٣)

توفيق الحكيم

إلى ابنتي "زينب" الحفيدة "إيزيس"

في عيد ميلادها

١٧ أكتوبر ١٩٨٦ توفيق الحكيم

ايزيس

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - ت ٩١٩٣٧٧

٤٢ ميدان الأوبرا - ت ٩٢٨٦٨

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

ايزيس .. كتاب أهداه الحكيم إلى ابنته فى عيد ميلادها

وثيقة (٤)

توفيق الحكيم

الى ابني محمد [illegible]

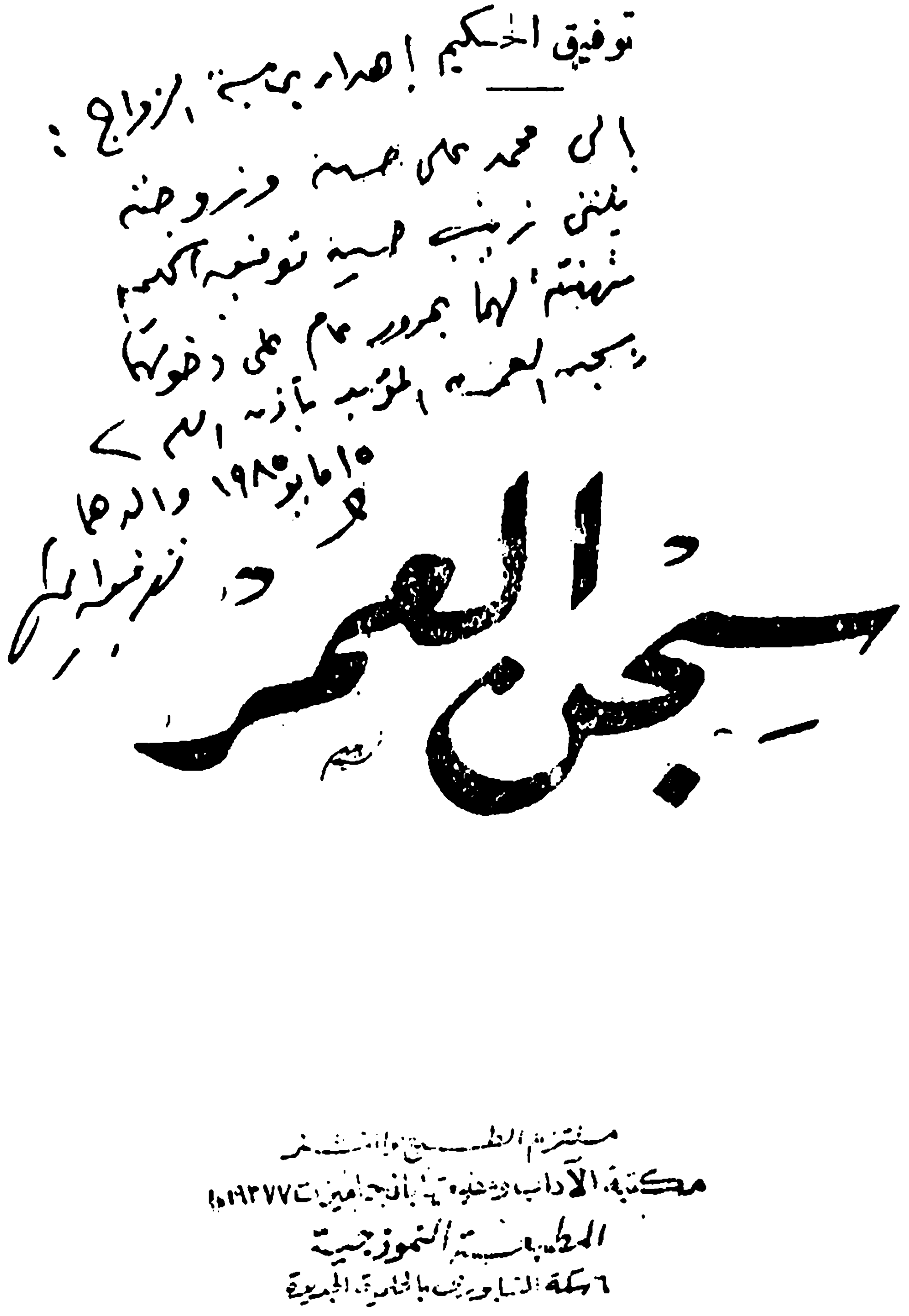
تهنئة بعيد ميلاده مع دوام
السعادة له مع بنتي زوجته
المخلصة وكل عام وانتم بخير [illegible]
٢٨/١١/١٩٨٤

بجماليون

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ حارة الشابوري بالحلمية الجديدة

وثيقة (٥)


توفيق الحكيم
إهداء بمناسبة الزواج :
إلى محمد على حسين وزوجته
بنتي زينب حسين توفيق الحكيم
تهنئة لهما بمرور عام على دخولهما
سجن العمر المؤبد بإذن الله
١٥ مايو ١٩٨٠ م
والدهما
توفيق الحكيم

سجن العمر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز
المطبعة النموذجية
٦ سكة [illegible] بالحلمية الجديدة

سجن العمر .. إهداء من الحكيم الى ابنته وزوجها

وثيقة (١٦أ)

باريس في ٩ سبتمبر

نبيلتي العزيزة كبيرة السعادة

أكتب إليك هذا الخطاب السريع من باريس بعد أن ذهبت إلى مكتب Air France لأحجز مكانا بالطائرة للعودة يوم السبت القادم ولكني مع الأسف لم أجد أماكن خالية وكان أقرب موعد هو يوم السبت ١٥ سبتمبر فلم أجد بدا من ذلك وحجزت تذكرة العودة بإذن الله إلى القاهرة يوم السبت ١٥ [illegible] سبتمبر بالطائرة التي تصل مطار القاهرة حوالي الساعة تسعة ونصف مساء. واخترت يوم السبت وهو اليوم الذي كنت أحضر فيه عادة إلى القاهرة بمناسبة الإجازة

[illegible].

هذا أما بخصوص المشوار موضوع المكالمة التليفونية فإني أريد أن أخبرك لكي تعرفي التفصيل. ولكن ملخصه أني عدت مع فوزية من لندن إلى باريس في منتصف شهر أغسطس تقريبا وأرسلت برقية بالتليفون فقالت لي أنا محتاجة ضروري لحضورك للتعارف بك و [illegible] أهلهم [illegible] عندها [illegible] وافقت [illegible]. وفعلا وجدته في غاية الأدب والتهذيب ووافقت ورأيت أنه لا مانع من الارتباط بالزواج في أسرع وقت

وثيقة (٦ ب)

لأن أهلها كما عرفت متعصبين ولا تسمح تقاليدهم بزواجهم
فما كان أسرة إسماعيل أن تتم شيء قبل الخطوبة. وهذا من
الدبلوماسية والتحفظ في كلامهم معنا. ولما عرضوا إلى الفرح للتعجيل
بالزواج تم من أن الخطوبة للاثنين وكنت لنا رغبة قديمة.
فرحوا جدا وكان عوني في لندن وكذلك أشرف، وخطوبته أن
أشرف أيضا سيتزوج الإنجليزية صاحبته ولم يستطيع أن يتمم معه
في شقة للعجز أصبح هدية ولذلك ترك بكر شقته لعدن ونام هو
وحجرة عند أصحاب الشقة. وكان من الضروري معالجة هذا
الوضع بسرعة لبرنامج الجميع ولكن كان أهل إسماعيل لعقبة
في سبيل هذا الحل. ولذلك فرح الجميع بموقفي وعقدنا الزواج
في لندن وأنا أول الشهود بالتأشيرة تمام والدها. وبعد ذلك
أنا في اليوم التالي تركت العروسين ورجعت أنا إلى باريس حيث
تحمل حسبه عن تأشيرة أقيم معه في شقته بدل الفندق الآن وحده
بعد أن ذهبت زوجته المريضة إلى المصحة جنوب باريس
وهكذا سأبقى مع حوزية لحين قيام الطائرة Air-France
يوم ١٥ سبتمبر. وأرجو أن في خير وعافية وسلامي وقبلاتي
لك وكذلك
تبلغ تحياتي للبشير أسعد ونرجو أعز الأحفاد. والسلام لجميع الأسرة وبالأخص
منصورة إلى اللقاء قريبا إن شاء الله (أبوك إسماعيل) جدا تحياتي

وثيقة (٧)

[illegible] ... [illegible] ...

ولم يعد ... [illegible] بعد الفراق ... [illegible]

[illegible] العزيزة

١- نرسل إليك شيك بمبلغ [redacted] آلاف جنيه هو ما استطعت جمعه لك لشراء سيارة صغيرة لتنقلاتك. من أن تكوني شجاعة وتسوقيها بنفسك ولا تحتاجي الآن إلى أن شخص ليسوقها لك. فإني أرى في الشوارع بنات في الرابعة عشرة والخامسة عشرة [redacted] يسوقون سياراتهن بمفردهن في شجاعة وعدم خوف ما دام القيادة في حدود العقل والأصول وعدم التهور. وإياك أن يسوقها لك أي شخص آخر. اعتمدي على نفسك ومن الله تعالى.

٢- الأولاد رجال ملكا وشريا هو أن تنصحي الأولاد بعدم الإسراف وأن تصدقي لهم بكل شيء. وإن لديها ارتفاع في أثمانه. وغني والملابس ... [redacted] . ولذلك يلموا نفسهم من الطلبات. فالمستقبل غير مضمون...

ولذلك

شطب ... العبد ... كلية من بيتكم وكفاية التلفزيون على أننا ... ولذلك عدم المطالبة بالملابس الغالية والظروف الزائدة. يجب أن تفهميهم الحقيقة [redacted] والدنيا دائما متغيرة وعليهم أن يفهموا ذلك ويستعدوا لما يلزمه الحياة لن تكون دائما كما تعودوا من بحبحة وإسراف ... وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم في المستقبل والخطأ سيكون أنت المسؤولة لعدم إفهام الأولاد حقيقة الموقف ... وادعو لهم بالصبر ورحمة الله لهم والدك

وثيقة (٨)

٢ شهر ابريل

بنتي الوحيده العزيزة بسويسرا

انت وحشتيني جدا جدا جدا ... وكذلك زوجك والاولاد [redacted]
وارجو ان تكونوا سعداء في صحة جيدة . وكذلك مريم والاولاد عندها
تكون بخير . وارسل لك قصاصة جرنال عن وجود الاطفال باللوز
وعدم الاستعجال في ازالتها الا بعد استشارة خبيرا اخصائي واحد
او اثنين او ثلاثة فاذا اتفقوا كلهم بدون تردد عملته وكلهم او اذا تردد
واحد منهم فلا لزوم والاهم [redacted] معالجة الالتهاب بسرعة . احنا كلنا وكنا
صغار كانت اللوز تتعبنا دايما لغاية ما كبرنا . وسابنا بلا كانت كده .

هذا واعلمك [redacted] انزعجت للمنشور في اخبار اليوم عن الموت
والرغبة في العزلة وعدم ازعاج راحتي فذلك كان اكبر للمسئولين عدم
حضوري في المجلس . فانا لا احضر ابدا جلسات الشورى ولا مجالس الثقافة
او المجالس المتخصصة مع اني عضو فيها كلها . ولذلك احتج لهم بحالتي
الصحية والنفسية وموت الزوجة والولد فهي لا يفتكروا اني متباعد عنهم
بدون سبب . كل ما عندي هو الوقت العمومي . فانا قرفان من كل شيء
حتى السفر الى الخارج . فانا غير مشتاق له . ولذلك افضل كثيرا
ان تكون نفعك انتي ومع الاولاد في الصيف . وكلا شهر او اثنين
انا في يونيه ان شاء الله اكون عندكم بنازين او امشي كل يوم على الكورنيش .
احسن رياضة المشي امام البحر . وانتي خدي بالك من نفسك . وانا مع
ولادك منصورة . وكذلك في انتظار العمارة الجديدة بالزمالك . ولك قبلاتي بالاولاد
وانا ابعت لك الجواب فيه انتي وحدك محافظتي ثم نفسك . والاولاد كذلك

وثيقة (٩)

٢٥ مايو

بنتي الوحيدة، سوزي

كنت كتبت هذا الخطاب في شهر ماضي ابريل وكان ستسلمه
منصوره موجود وكتبت الخطاب لك ليحمله معه. ولكنه سافر من
بره بره وبقي الخطاب (شهر ابريل) موجود عندي لغاية ما حضرت
أختك منصوره وابنها امس فكتبت هذا الملحق (مايو) مع الخطاب
السابق (ابريل). وازداد أملي واشتقت جدا جدا جدا. والحمد لله
أن الشهر القادم (يونيه) قريب واحضر لكم ان شاء الله. وسأحضر لكم
طبعا بالميعاد المضبوط لتحضروا وتأخذونا انا ومنصوره. وفي الغالب
في أواخر يونيه ان شاء الله او بعد شهر واحد بالضبط بإذن الله تعالى.
وأخبرتنا أختك منصوره بأخباركم وفرحنا بنجاح ... وسوسو.. أما انت
فقد سرني أنك أصبحت مستبشرة وناوية تصومي رمضان وكلي ... عارف
اسباب هذا التطور. المهم أنك ... والمهم كله ان تكوني انت
واولادك [redacted] في صحة جيدة وسعادة وان نجتمع كلنا مع بعض
في سرور وهناء بإذن الله تعالى.

والدك الذي لا ينساك ابدا
الذي ينتظر ... الحياة
مع تمنياته القلبية
...

وثيقة (١٠)

توفيق الحكيم

إلى ابنتي المتعبة المزعجة كلما تشكو في قراءة هذا
الكتاب وتشركني في هدوء وإقبال كل كتاب
آخر مقوم بمعونة الحكيم ٥
١٢/٤/٩٦٩ والدك

ثورة الشباب

قضية القرن الحادي والعشرين

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - ت ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا - ت ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

إهداء (ثورة الشباب) من الحكيم إلى ابنته

وثيقة (١١ أ)

٩ يوليو

بنتي الوحيدة العزيزة سوزي

انا مشتاقة لك جدا جدا جدا ودائما في فكري كلما ذهبت الى اي مكان. وطبعا مشتاقة الى احفادي العفاريت كتاكيت الاعزاء.

انا سافرت من مصر مع الوفد لحضور مؤتمر في مدريد باسبانيا وقد استقبلنا السفير المصري هناك احسن استقبال وعمل ما يسمى حفلة صغيرة لكل الوفود في اخر ليلة لنا في مدريد. جزاه الله خيرا. وهو من اسرة عبد الغفار وابن اخ شمس الدين باشا عبد الغفار صديق الحكيم رحمة الله عليه. وقد رأينا في اسبانيا اشياء عظيمة اهمها ما لم نحضره من قبل. وهي مصارعة الثيران المشهورة في اسبانيا ذهبنا فعلا وشاهدنا كيف يصارع الفارس من فوق حصانه الثور الهائج ويقتله. منظر مثير. اما المتاحف التي تعرض اهم اثار الفنانين الخالدين مثل متحف البرادو المشهور فطبعا زرناه... وزرنا مدينة توليدو او بالعربي طليطلة وهي مرتفعة على جبل... ونحو ذلك كثير. ثم ذهبنا الى باريس وطبعا انا نزلت في الآن في شقة صديقة العمر الدكتور حسين فوزي. وفي باريس لي نشاط ثقافي مستمر. فقد اخذوا مني في اهم برنامج راديو وهو France.Culture حديثا طويلا سيذاع هنا باذن الله في يوم ١٧ يوليه. وكذلك خلال هذا الاسبوع سيكون لي حديث آخر في التلفزيون الفرنسي لم يحدد بعد ميعاده. هذا بخلاف الدارسين تمثيل مسرحيتي «شهرزاد». وكان تمثيلها واخراجها لا بأس به وقد اعجب الكثيرين من الحاضرين. وهناك كثير من المشروعات الثقافية والفنية معروضة علي.

ولذلك لا اعلم موعد حضوري الى مصر ويمكن ان يتحدد قبل آخر الشهر. وفي الغالب اوائل اغسطس باذن الله. وبالطبع سأخطركم تلغرافيا عند تحديد اي موعد للحضور.

وثيقة (١١ ب)

بالطبع. هذا وقد اخبرني احد كبار المسئولين في السفارة الهندية بباريس ان سيدة تزوره
مقابلتي للآنسة صديقة بنتي سوزان وقال ان اسمها ... وهنا، فعرفت انها هي هيلين
وزميلتك في الدراسة بالكلية في الستينات وانت وهي دائما معا في المذاكرة. ولم نتمكن بعد
موعد المقابلة. وهي كما علمت جاءت باريس في بعثة في السوربون وجاء معها زوجها
بعد ان نقلوه الى باريس في وظيفة لم افهم جيدا ما هي؟ وجاء بالطبع مع الاطفال. يعني هي
الآن مع عائلتها بالكامل في باريس الآن مع زوجها واولادها. اما باريس فهي غالية نار
وتكلفنا تناول اي غداء باي مطعم ما لا يقل عن خمسين جنيه مصري. وانا وحبيبتي فوزية
اذا اردنا ان نأكل الاكل وضعفاء الشوربة لا يقل بأقل من عشرين جنيه عن الشخص
فقط. والحمد لله ان السكن في باريس مجانا لانه شقة حبيبتي فوزية نعمة من الله. والبركة
للمرحومة زوجتي التي كانت اشترت هذه الشقة. الف رحمة عليها. ولولا الشقة المجانية
لما امكن العيش في باريس بأقل من خمسين او ستين جنيه مصري في اليوم الواحد للشخص
الواحد. وكل الناس من المصريين هنا الزائرين ساخطين على هذا الغلاء الشنيع.
ولولا بعض مشروعاتي الادبية كنت هربت بسرعة وجئت كالعادة في شهور
الكورنيش في ندوتي مع الاصدقاء قبل كل صيف. ولكن لابد من الصبر هذا الشهر كله
واحتمال هذا الحر [illegible] وانا في الغربة اشعر باني لم يبق لي في الدنيا عائلة
سواك انت فقط يا سوزان (وطبعا ومعك اولادك الاعزاء وزوجك الكريم [illegible])
وهذا الشعور جعلني اندم كيف جعلتك تشاركين في حقيقة ضرورتك لي ... في
يجب ان تعرفي انه لا يصح ان ... اعرف قيمتك!! انا الآن اعرف قيمتك وضرورتك لي
لا فقط بالعواطف والكلام الذي يقال بل بالواقع الحي والحقيقة الواقعة. وهذه الحقيقة
هي انك باختصار كل شيء املكه وبقي لي في الدنيا. وهل توجد حقيقة اخرى
غير هذه: انك بنتي الوحيدة العزيزة. والباقي كله كلام في كلام. والله وحده يعلم
كل ما في قلبي وقدرتي من حب وحنان تجاهك ان يعطيني الله لبنتي الوحيدة في الدنيا.
ارجو ان تكوني مستعدة [illegible]. لانك في الحقيقة كل مستقبلي. وانا
واثق باذن الله تعالى من نجاحك نيلا. وسلامي لمنصوره ولعبد الحميد.
وقبلاتي لك ولأولادك ولزوجك [illegible]. والى اللقاء في اوائل
الشهر القادم باذن الله وسأخبرك تلغرافيا والسلام

والدك
[illegible]

وثيقة (١٢)

التليفزيون

نعم... أهم وأقدر وسيلة عصرية لنشر المعارف وتنمية المدارك وتفتيح الملكات خارج برامج التعليم التي يتقبلها الطلاب تقبل ضرورة أكثر من تقبل استمتاع... ومن هنا لو أننا نفكر من الآن في إنشاء تليفزيون خاص بالتعليم، تديره وزارة التربية والتعليم، وتوضع برامجه طبقاً لمراحل العمر ومقتضيات المراحل الدراسية ونجعل من هذه البرامج نموذجاً للمنفعة والمتعة معاً.. وتستجلب الأفلام الملائمة لهذا الهدف التعليمي من مختلف البلاد المتقدمة.. إن وزارة التعليم بهذا التليفزيون الذي هو إدارة خاصة ملحقة بوزارة التربية والتعليم... سيكون هو التعليم، بل هو "الثورة التعليمية" "الثقافة المحببة" التي ستعم أنشطة التعليم في المجتمع كله والمستقبل كله، وتكون مثلاً وقدوة يتتبعها العالم كله في دهشة وإعجاب..

وبعد فإني أشكر وزير التربية والتعليم ورجاله على اهتمامهم بهذا الموضوع الخطير الذي قد يقلب مجتمعنا كله نحو الأرفع والأنفع... توفيق الحكيم

إحدى صفحات الرسالة
التي بعث بها الحكيم إلى وزير التعليم
يطالب فيها بإحداث ثورة في التعليم ويقترح
إنشاء تليفزيون تعليمي تديره الوزارة.

وثيقة (١٣)

دولاب ١/ [illegible]

العلبة الرمادي : سلسلة المفاتيح الصغيرة .

الأجندة الصغيرة في جيب الكنبة

الصندوق الصغير للأدوية في جيب الأبيض الكنبة

الدولاب ناحية البلكونة : صندوق الجزم وفيه أدوية

عليه حمرة مكتوب عليها Lactotyle

بجوار هذا الصندوق وكيس شمع

عليه مشمع مكسر وشطاسليم

هاني السليم ... وهاني كاس

صنادل اذا عرفت منصورة مكانه

~~[illegible]~~ درج المكتب :

الدرج الأسفل به مجلد خضراء داخله

ورق مقالة ... تماما بالمجلد خضراء كامل وبداخله

المقالة وكذلك بعضه أوراقه بيضاء موجودة تحت المجلد

السابع الموجودة خلف المكتب

احضرها اذا كانت منصورة غير محتاجة ؟

وكان العلم الأزرق في نفس ...

[illegible]

[illegible]

مطلوبات من البيت آخر ما كتبه الحكيم بخط يده فى المستشفى



TEWFIK EL HAKIM

حتى الرسامين العالميين لم يسلم
توفيق الحكيم من ريشتهم



المؤلف فى صورة تذكارية مع الحكيم فى مستشفى المقاولون العرب بجناحه الخاص الذى سمى باسمه تكريما له



أندر لقطة لتوفيق الحكيم بين زوجته وابنها اسماعيل وزوجته الأولى « زيزى » التقطت لهم فى لندن



فى لندن يستعرض حرس الشرف



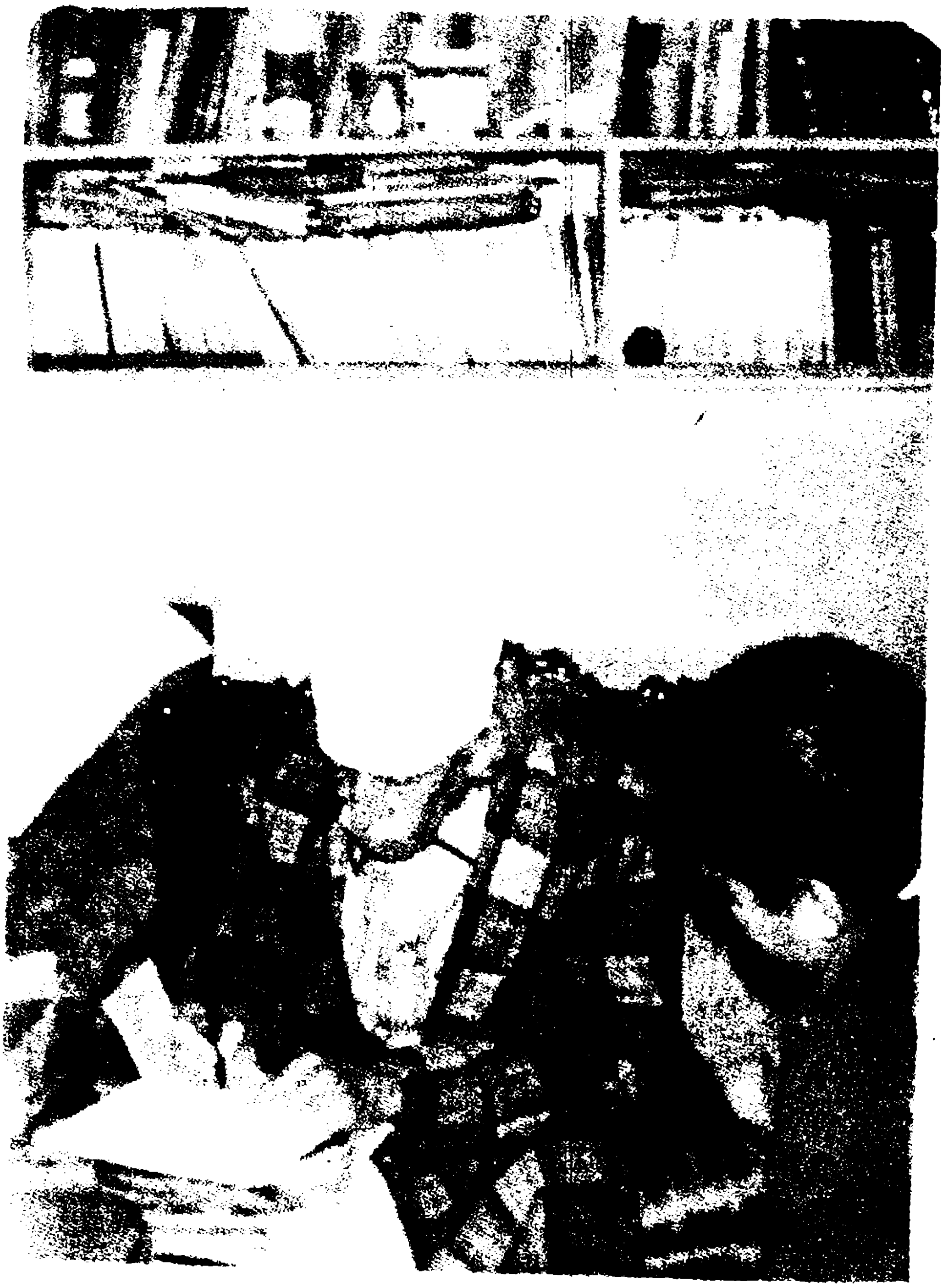
أعضاء فرقة البلاك كوتس ويقف فيها الحكيم بن ابنه اسماعيل ويوسف إدريس وصلاح طاهر



بين حفيديه اسماعيل ومريم على شط بحر الاسكندرية

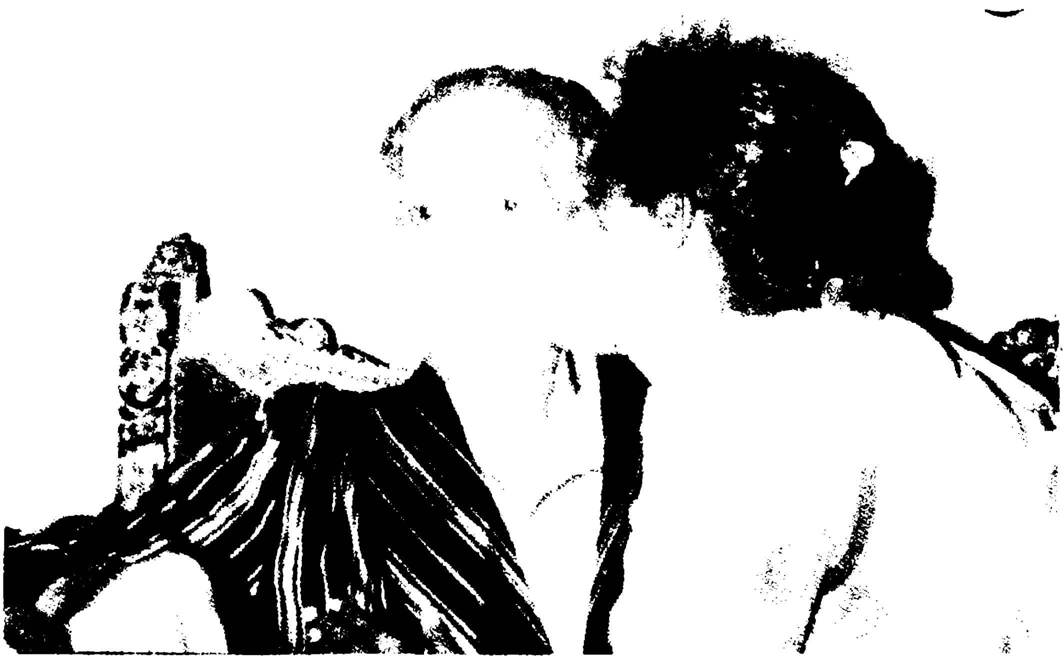


على الشاطىء ومحاولة من الحكيم لترويض حفيده المتمرد اسماعيل



يكتب موضوع الانشاء لحفيدته والذى استحق عليه أربعا من عشرين



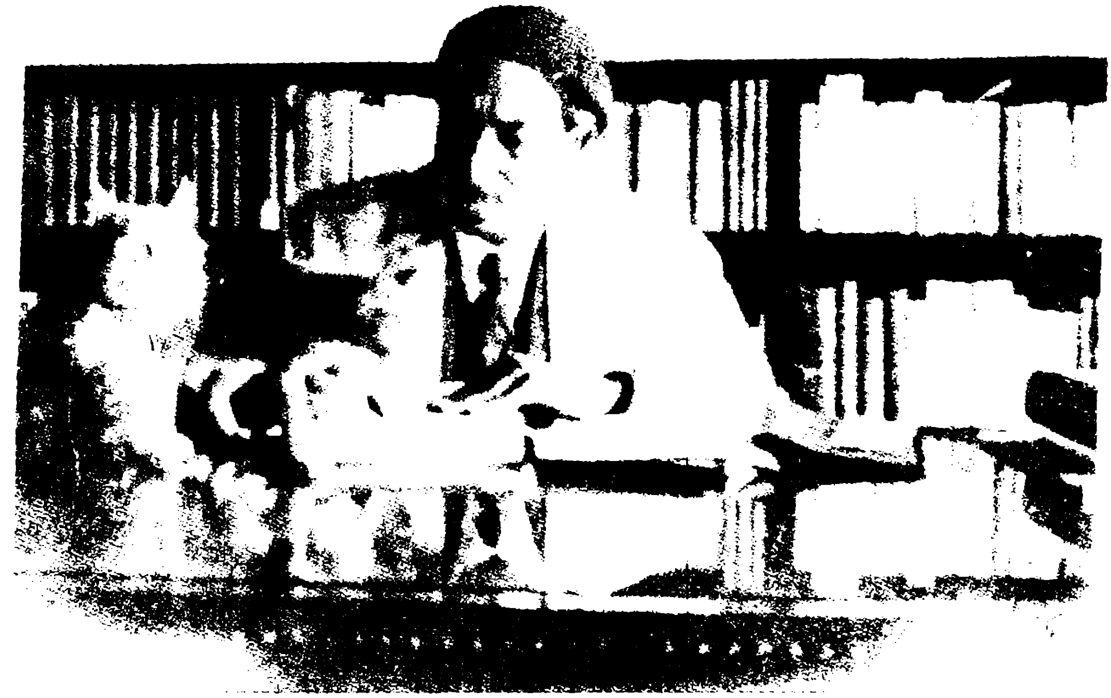


دلوعة جدها مريم وقد استسلم لمداعباتها



الصورة على الحائط والعصا بقايا ذكريات من الحكيم وابنه ونظرات تأمل من ابنته زينب وأولادها
مريم واسماعيل ومحمد





قطتان أخذتا مكانهما على مكتبه إحداهما فى لحظات فكر وتأمل والأخرى تتابعه فى قرائته فمن عاشر قوما صار منهم



المهندس زهير أخو الحكيم مع أمها وقد حال بينها محاولتها التحايل على
قانون الاصلاح الزراعى



ابراهيم باشا فرج صداقة ممتدة من كلية الحقوق ونجيب محفوظ فى مقابلهما عشرة عمر



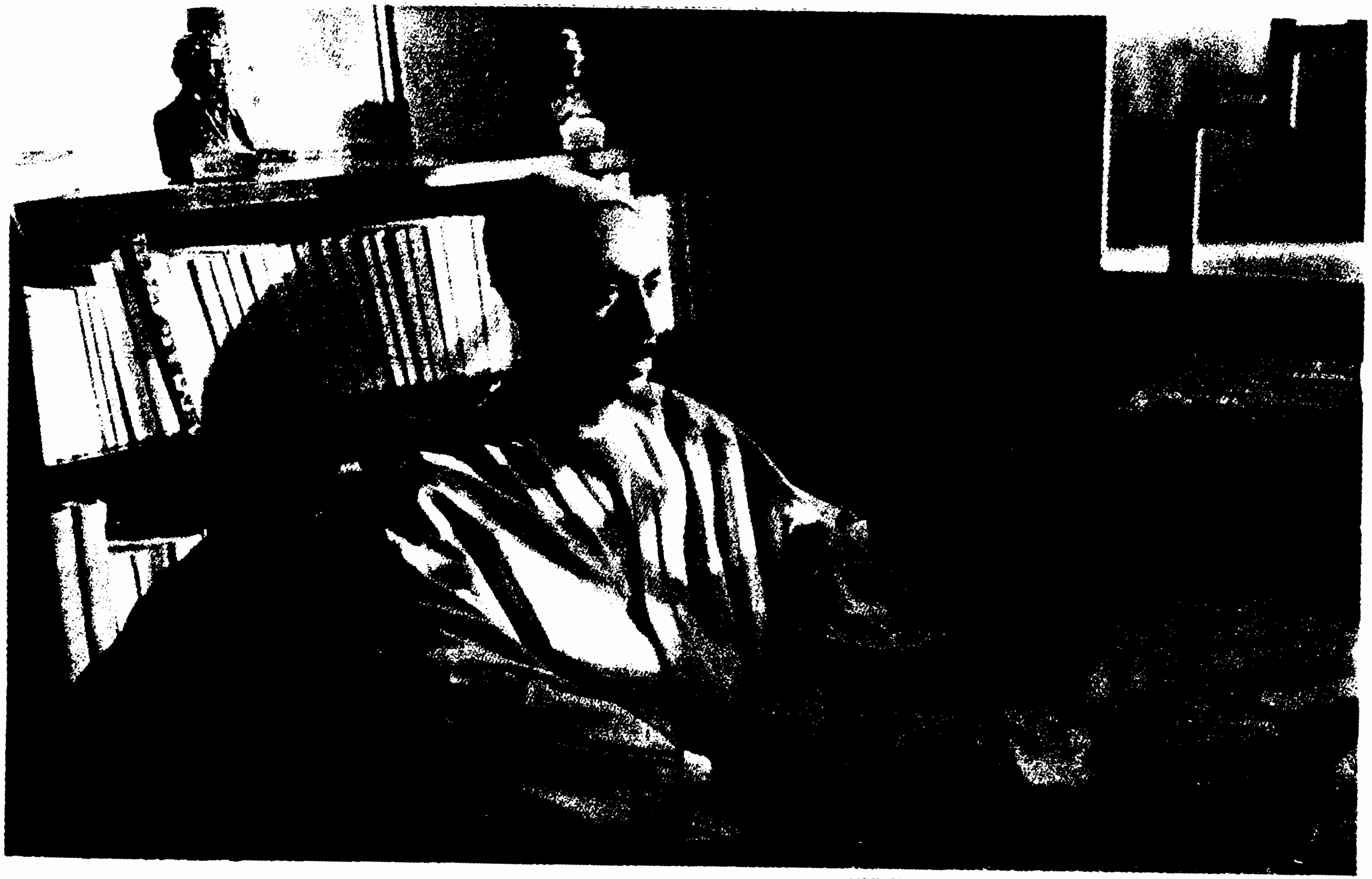
لقطة نادرة تجمع بين الحكيم وسراج الدين والمستشار العشماوى وابراهيم فرج وآخرين



سارتر وسيمون دى بوفوار فى ضيافة الحكيم الذى أجاب عن سؤال لسارتر قائلا : ولكن عبد الناصر لا يهاجمه أحد فهو لذلك غير محتاج منى إلى دفاع



الحكيم مستندًا على عصاه سنة ١٩٤٣



فى شبابه بالجلباب والعباءة والطاقية التى تمنى لو أجرى معها حوارا



زمن من الفكر والتأمل يغرق فيه الحكيم حين يسرح مع نفسه ولايدرى بشىء حوله

فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٧٨٦٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3799 - X

١ / ٩٢ / ٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)